دور الكلمة فى اللغة

تأليف

ستيفن أولمان

ترجمه وقدم له وعلق عليه

دكتور كمال محمد بشر

أستاذ بكلية دار العلوم

الناشر

مكتبة الشباب

١٢ شارع إسماعيل مرقص بالمنيرة

ت ٣١٨٢٥



دور الكلمة في اللغة

تأليف

ستيفن أولمان

ترجمه وقدم له وعلق عليه

دكتور كمال محمد بشر

أستاذ بكلية دار العلوم

الناشر

مكتبة الشباب

٦ شارع اسماعيل سري - بالمنيرة

ت ٣١٨٣٥

WORDS

AND THEIR USE,

by

STEPHEN ULLMANN PH. DD LITTNS

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إنى أؤمن بأن الحضارة الإنسانية تراث مشترك بين أمم الأرض جميعاً وأن الثقافة — دعامة هذه الحضارة وركيزتها الأولى — ليست ملكاً لجنس بشرى من الناس دون جنس . وبهذه الروح أقدمت على ترجمة هذا الكتاب بوصفه مثلا من أمثلة هذه الثقافة التى يتحتم علينا أن نتزود منها وأن نغترف من معينها ، حتى تؤكد الخاصة الأساسية للإنسان فينا ، وهى الإشتراك فى نتاج العقل والفكر : فقد نأخذ اليوم ونعطى غداً ، وبهذا يتحدد دورنا فى تشييد البناء الكبير ، بناء الحضارة الإنسانية بكل ضروبها وألوانها .

وقد تحتم علينا الظروف نقل لون معين من هذه الثقافة ، أو الإكثار من هذا النقل ، لأسباب قد ترجع إلى أهمية ما تنقل أو إلى حاجتنا الشديدة إليه ، أو إلى كلا العاملين معاً . وهذه الحالة الأخيرة تتحقق فى موقفنا من هذا الكتاب ، فهو يمثل لوناً مهماً من الثقافة ويضم بين دفتيه بحوثاً لا غنى لنا عنها فى وقتنا الحاضر ، فالثقافة اللغوية — فى صورتها العلمية الحديثة — لا تزال فى مرحلة الطفولة فى بلادنا ، ولا تزال تتطلب الكثير من الغذاء والرى حتى تشب قوية ناضجة . وفى اعتقادى أن هذه البحوث التى نقدمها للقارىء اليوم جديرة أن تمدنا بشىء من هذا الغذاء ، وأن تزودنا بعناصر أساسية نستطيع أن نستمد منها — على مر الأيام — أسباب القوة والنماء لهذا الناشىء الصغير .

فالكتاب يعرض لمسائل لغوية متنوعة كثيرة ، ولكنها — كلها أو جلها — تدور حول موضوع رئيسى واحد هو « المعنى » . ويمثل المعنى فى الدراسات اللغوية اليوم نقطة أساسية من نقاط البحث ، بل إن أستاذنا فيرث جعله أساس هذه الدراسات كلها وهدفها الأول ، فلا عجب إذن أن يركز المؤلف بحثه على هذه القضية الخطيرة ،

وأن يتناولها من زوايا مختلفة ، غير أن البحث العلمي لهذه القضية يقتضي التعرض لمسائل أخرى مهمة تتصل بها من قريب أو بعيد . ومن ثم نرى المؤلف يناقش فيما يناقش موضوع الفرق بين « الكلام واللغة » والفرق بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة ، كما يعرض للرموز اللغوية ووظيفتها في الاتصال الإنساني الخ . فمناقشة الفرق بين الكلام واللغة مثلا لها أهمية خاصة من وجهة نظر المؤلف في موضوع المعنى . إنه يرى أن الكلمة الواحدة قد تكون ذات معنى رئيسي ومعان أخرى فرعية أو ثانوية ، وهذا الرأي مبني على الإيمان بالفرق بين الكلام واللغة . فالمعنى الرئيسي هو ذلك القدر الثابت من المعنى والموجود في اللغة المعينة ، أما المعاني الأخرى الهامشية والفرعية ، فلا تتحدد إلا بالسياق والمقام أثناء الكلام الفعلي . وتتضح أهمية مناقشة الرموز اللغوية في استغلالها في بيان العلاقة بين اللفظ والمعنى : أهي علاقة طبيعية أم هي عرفية تقليدية وبهذه الطريقة يمكن أن نعرف السر في دراسة هذه القضايا ونحوها في بحث خصص أساساً لقضية المعنى .

ولا يظن ظان أن العنوان ـ وهو Words & their use وقد ترجمناه إلى « دور الكلمة في اللغة » ـــ يناقض موضوع الكتاب الرئيسي . فالكلمة هي أداة المعنى ، أو هي ـــ كما قرر المؤلف نفسه ـــ أصغر وحدة من وحدات المعنى وهي التي تتكون منها الوحدات الأخرى ، كالعبارة والجملة والكلمة ـــ فوق هـــذا وذاك ـــ تتمتع بقوة سحرية خارقة ، وتؤثر في نفوسنا وتعدل من سلوكنا ، بسبب ما ارتبطت به من صبغة دينية ، وما اكتسبته من منزلة إجتماعية تقليدية .

واختيار هذا العنوان بالذات مكن المؤلف من مناقشة بعض المسائل الأخرى التي قد يظن البعض أنها ليست داخلة في نطاق بحوث المعنى . من ذلك: قضية انقراض الكلمات وسقوطها من الاستعمال ، وحظر استعمال كلمات معينة وتفضيل كلمات أخرى عليها . وليس من شك في أن الكلمة بوصفها مجموعة من الأصوات لا قيمة لها ، وإنما قيمتها بمعناها ومدلولها الذي ارتبطت به على أن المؤلف قد استباح لنفسه الخروج عن نطاق الدراسات اللغوية بمعناها الدقيق حين ناقش في الفصول النهائية من الكتاب نقطتين مهمتين في بابهما ، وهما تأثير الكلمات في التفكير وكفاية هذه

الكلمات كوسيلة من وسائل الاتصال الإنسانى . على أن القارىء المنصف لا يسعه إلا أن يحكم بوجود علاقة من نوع ما بين هــــذين البحثين وبين بقية القضايا التى تنتظمها الدراسة .

وإذا كان لنا أن نلخص أهمية هذا الكتاب وقيمته العلمية فيمكن أن يتم ذلك فى نقطة أو نقطتين :

أولا : بالرغم من أن الموضوع الأساسى ليس بجديد ، فالنقاط الفرعية التى أثيرت فى ثناياه تشهد ببراعة المؤلف فى ربط القضايا العلمية بعضها ببعض ربطاً يؤدى إلى تكوين بحوث جديدة مبتكرة . فالمعنى المتعدد » ـ بصورته المعروضة بالكتاب ـ ما أظنه إلا بحثاً جديداً ، لم يأت به أحد قبله فيما نعلم . فهذا العنوان البسيط ينتظم عدداً من القضايا التى يعرفها الناس جميعاً ، ولكنهم يذهبون فى معالجتها مذاهب شتى ، من ذلك مثلا : الترادف والمشترك اللفظى والأضداد والحقيقة والمجاز ، فبعضها فى نظرهم جزء من بحوث البلاغة ، وبعض آخر مكانه « متن اللغة » ، وبعض ثالث قد يجدون له مكاناً هنــا ومكاناً هناك . ولكن أولمان إستطاع أن يعثر على خاصة مشتركة تجمع بين هذه القضايا جميعاً ، هذه الخاصة هى فكرة التعدد : فى اللفظ أو فى المعنى أو فيهما معاً ، ومن ثم عالجها كلها فى إطار واحد .

ثانياً : يقدم لنا هذا الكتاب وجهة نظر جديدة فى معالجة المعنى اللغوى ، وهى وجهة ـ وإن كنا لا نتفق معها ـ قد أثارت فينا كثيراً من الشكوك حول المفهومات القديمة لعدة من القضايا اللغوية التقليدية ، ودفعتنا بذلك إلى النظر فيها من جديد . ويكفى أن يعلم القــارىء أننى ما كدت أفرغ من ترجمة هذا الكتاب حتى بدأت فى كتابة بحث مستقل فى الموضوع نفســه ، أسميته . « دراسات فى علم المعنى » ، وقد اتخذت لنفسى فى هذا البحث خطة معينة ، تتفق مع المؤلف حينـــاً وتختلف معه أحياناً أخرى ، وراعيت أن أطبق ما أفدته منه ومن غيره من الدارسين على اللغة العربية .

أضف إلى كل ذلك أهمية هذا الكتاب بالنسبة للقارىء العربى بصفة عامة . فهذا

القارىء لم يتعرف بعد تعرفاً كاملا على هذا الضرب من البحث ، فعلم المعنى - أو علم الدلالة كما يسميه بعض الباحثين - علم حديث فى بلادنا ، ولم يحظ بعد بالشيوع الذى أصابه فى بلاد العالم الأخرى، ولم تكتب فيه حتى الآن - بصورة علمية حديثة - إلا بحوث معدودة ، أهمها وأشملها « دلالة الألفاظ » للدكتور إبراهيم أنيس . أما بقيتها فلا تعدو أن تكون دراسات مختصرة موجزة ، أشبه ما تكون بمقالات أعدت للنشر فى مجلة أو صحيفة . ومما يزيد فى قيمته - فى نظرنا - إتصاله المباشر بالإنسان وبحياة هذا الإنسان فى مجتمعه ، فأهميته ليست مقصورة على الهيئات العلمية والأكاديمية كما قرر المؤلف أكثر من مرة ، وإنما تتعداها إلى مجالات الحياة الأخرى ، وبخاصة تلك المجالات التى تستعمل فيها الكلمة للتأثير كالصحافة والإذاعة والوعظ وغير ذلك من وسائل الإعلام والدعاية .

أما مؤلف الكتاب فهو البروفسور « ستيفن أولمان » Stephen Ullmann وهو الآن أستاذ علم اللغة (فرع الدارسات الرومانية) بجامعة « ليدز » Leeds بانجلترا ، وكان من قبل - حين أخرج للناس كتابه هذا سنه ١٩٥١ - أستاذاً مساعداً فى نفس المادة بجامعة جلاسجو . والأستاذ أولمان معروف فى البيئات اللغوية بثقافته الواسعة لا فى اللغة وقضاياها فحسب ، ولكن فى فروع العلوم الإنسانية الأخرى ، وبخاصة الأدب والنقد الأدبى وعلم النفس . وقد تبوأ مكانة خاصة بين اللغويين عندما ظهر كتابة الآخر « أسس علم المعنى » The Principles of Semantics وفى هذا السفر الجليل يعالج أولمان المعنى ومشكلاته على مستوى أوسع وأشمل ، ويعرض فيه لهذه القضية من زوايا ثلاث : من الناحية الوصفية والتاريخية ، ومن الناحية الثالثة التى سماها « من الوصفية إلى التاريخية » . وهو بهذا المنهج المبتكر يفوق سابقيه من علماء المعنى ، ويرسم خطة بارعة لكل من أتى بعده . وقد ظهر للمؤلف نفسه فى السنوات الأخيرة . كتاب جديد سماه « علم المعنى » Semantics . وبهذا يتضح لنا جيداً أن أولمان قد كرس جهوده لدراسة المعنى وتقصى مشكلاته وبحث قضاياه .

وللمؤلف شخصية متميزة فى كل كتاباته ، ولكن طريقته فى البحث يعيبها الخلط

بين المناهج ، فهو مرة ينحو منحى لغويا ، وأخرى يعرج على علم النفس والمنطق ، يلتمس منهما العون والمساعدة ، وأغلب الظن أن أولمان ينتمى إلى تلك المدرسة التى لا تزال تؤمن بأهمية علم النفس فى تفسير الظواهر اللغوية وتحليلها . وفى الحق إن هذا تقليد قديم ابتدعه الإغريق ، حين كانوا يعدون الدرسات اللغوية جزءاً من البحوث الفلسفية . وظل ينتقل من بعدهم عبر التاريخ من أمة إلى أخرى ، حتى استقر دستوراً لا يحيد عنه بعض الدارسين فى الوقت الحاضر ، وبخاصة فى ألمانيا وفرنسا ونحن ـ وإن كنا لا ننكر أهمية المعرفة بعلم النفس ـ لا نذهب هــذا المذهب ولا نأخذ به ، فالدراسات اللغوية الآن لها استقلالها وكيانها الخاص ، ومن ثم وجب اعتمادها على حقائق اللغة نفسها . دون الإلتجاء إلى علوم أخرى تستمد منها مبادئها وأسسها .

ولقد ظهر هذا الإتجاه النفسى واضحاً عند معالجة أولمــان للنقطة الرئيسية فى الكتاب ، وهى معنى « المعنى » فهو يبنى دراسته لهذه القضية على أساس التحليل الذى قام به العالمان النفسيان «أوجدن وريتشاردز» للموضوع نفسه . وبالرغم من محاولته تبسيط هذا المنهج النفسى وجعله أقرب إلى طبيعة الدراسات اللغوية ـ كما يقول هو ـ فلا تزال الفكرة النفسية تفصح عن نفسها فى هذا الموضوع [1] وفى أماكن أخرى من الكتاب وبخاصة فى الفصلين الأخيرين . والحق أن أكثر ما جاء فى هــذين الفصلين ــ بالرغم من اتصالهما اتصالا ما بالموضوع الأساسى ــ أقرب إلى علم النفس منه إلى علم اللغة .

وهذا المنهج نفسه قد اضطر أولمان إلى أن يتورط فى قضية جدلية أخرى . هى قضية التفريق بين جانبى الحدث اللغوى (الكلمة أو العبارة أو الجملة) . إذ يرى

---

(١) انظر الفصل الخامس من الباب الأول . وقد سجلنا هناك رأينا الخاص فيما يتعلق بهذه القضية .

أولمان ومن حذا حذوه أن الحدث اللغوى له جانبان : جانب اللفظ أو الصوت وتتولى دراسته فروع معينة من علوم اللغه ، وجانب المعنى أو المحتوى العقلى وتختص بدراسته والبحث فيه فروع أخرى. أما المدارس اللغوية التى يعتد برأيها فى هذا الشأن فلا تدين بهذا المبدأ . وتؤكد أن الحدث اللغوى وحدة متكاملة ولا يمكن فصل أحد جانبيها عن الآخر .

على أن هذا كله لا يطعن فى قدرة الرجل وكفاءته فى البحث والتحليل ، لا ينقص من قيمة الدور الإيجابى الذى قام به فى كل كتاباته . فموضوع المعنى موضوع شائك ولا يجرؤ على تناوله إلا أولئك الذين اكتملت لديهم عدة البحث وأدواته ، ومؤلفنا أحد رواد البحث فى هذا الموضوع فى الغرب . بل هو رائدهم جميعاً من حيث العمق فى الدراسة وشمولها . وفى كتابنا هذا لفتات بارعه ، ونظرات ذكيه ، فلقد أرشدنا — فيما أرشدنا — إلى سر الصعوبة فى معالجة موضوع المعنى وإلى سر الخلاف الكبير بين العلماء فيه . ويكمن السر فى رأيه — وهذا حق لا مراء فيه — فى عاملين رئيسيين هما : كثرة المصطلحات واضطرابها . واختلاف العلماء فى معنى هذه المصطلحات . فلو تخلص الدارسون من هاتين الصعوبتين ، ما رأينا هذا الاضطراب والخلط اللذين اشتهر بهما علم المعنى . بهذه الروح نفسها عالج أولمان بعض المسائل اللغوية المبهمه . كالترادف والاشتراك اللفظى والمعنى المتعدد الخ .

ولست أدرى على أية حال إلى أى الجهتين تنسب صعوبة أسلوب الكتاب الذى نقدمه اليوم . أما الذى أدريه فهو أن هذه الصعوبة ترجع إلى عاملين أساسيين :

الأول : رغبة المؤلف الواضحة فى تلخيص كل بحوثه الأخرى فى هذا الكتاب الصغير .

الثانى : تعرضه لقضايا غير لغوية كثيرة ، تعرف بالصعوبة والتعقيد . كقضايا النقد الأدبى وعلم النفس .

وأشهد أنى بذلت جهداً ضخماً فى نقل هذا الكتاب بالصورة التى يبدو فيها

الآن . ولست أدعى أنها ترجمة مثالية خالية من الزلات خلواً تاماً ، فالكمال لله وحده . ولكنني أستطيع أن أدعى أنها ترجمة صحيحة دقيقة إلى درجة تبعث على الرضا والارتياح . فلم أبح لنفسى أن أخرج عن الأصل إلا فى حدود ما تقتضيه قواعد اللغة العربية وأساليبها ، ولم أشأ أن أتصرف ذلك التصرف الذى يسلكه البعض هرباً من الصعوبة اقتصادا فى الوقت .

وكم طالت وقفاتى أمام فقرات غامضة وجمل ناشزة إلى أن أوفق فيها بالمعاودة والمراجعة . ومع ذلك فقد كنت أجدنى مضطراً فى كثير من الأحيان إلى شرح كلام المؤلف وتوضيحه ، أو التعليق عليه برأينا الخاص فى هذه القضية أو تلك . وقد بلغت هذه التعليقات فى جملتها مائة وأربعة وتسعين تعليقاً .

أما الذى استبحته لنفسى فى كل هذا العمل الشاق فيتلخص فى شيئين .

١ — الاستغناء عن أمثلة المؤلف أحياناً والإتيان بأمثلة عربية بدلا منها . وقد طبق هذا على بعض الأمثلة الطويلة التى تشغل فقرة أو أكثر ، كما حدث فى صفحة ٧٧ ، حين أوردنا أمثلة من الشعر العربى فى صلب المتن ، بدلا من اقتباسات المؤلف .

٢ — توضيح بعض عبارات المؤلف وجمله بعبارات وجمل عربية مصاحبة لها ويستطيع القارىء على أية حال أن يدرك هذا التغيير الذى ما قصدنا به إلا التيسير عليه وجعل الكلام مستساغا مقبولا لديه . على أننا قد أشرنا إلى هذا التغيير فى كل الحالات أو معظمها ، كما عمدنا إلى وضع الأقواس ( ) لتمييز الجمل العربية التفسيرية .

بقى لى أن أقدم جزيل شكرى إلى الأصدقاء والزملاء الدكتور درويش الجندى والدكتور محمد سالم الجرح والدكتور عبـــد الصبور شاهين ، على تفضلهم بقراءة الأصول وإبداء بعض المقترحات المفيدة فى تفسير بعض المصطلحات أو ترجمة بعض الجمل والعبارات .

المترجم



مقدمة

إن الوعى اللغوى للعصر الذى نعيش فيه آخذ فى الازدياد يوما بعد يوم . فإن اهتمام هذا العصر بوسائل الاتصال بين الناس مشوب بشىء من الشك وشىء من القلق أيضاً ، ومثل هذا الشك أمر مألوف فى كل الأزمات الكبرى فى الحياة الإنسانية . وإنا لنلاحظ فى القرن الحاضر على كل حال أن انتشار الصحافة والإمكانيات الحديثة للسينما والإذاعة والاساليب العصرية لفنون الدعاية والنشر هذه الاشياء كلها قد منحت الكلمة المنطوقة والمكتوبة قوة خطيرة لم يعهد لها مثيل من قبل . وفى مثل هذه الظروف لابد لهذه الشكوك التقليدية حول اللغة أن تفرض نفسها علينا فرضا وربما يتضح ذلك من تلك المجموعة من الاسئلة المحيرة التى تستحوذ على عقول الكتاب والمفكرين فى وقتنا الحاضر . وهاك أمثلة من هذه الأسئلة .

هل اللغة وسيلة واضحة يمكن الإعتماد عليها فى اتصال الناس بعضهم ببعض ؟ كيف نتأكد من أن السامع أو ملايين السامعين قد وعوا قصد المتكلم ومغناه وما رغب فى توصيله إليهم ؟ أليست اللغة تفرض حجاباً بيننا وبين الاشياء التى نتحدث عنها ؟ أليست تمنح هذه الاشياء ذاتها نوعا مزيفاً من الحقيقة ، فتغرينا بأن نعتقد اعتقاداً ضمنياً بوجود حقيقى للأمور المعنوية الموغلة فى التجريد ، كالجمال : وكل تلك المعانى الفائقة الحصر التى تدل عليها تلك الالفاظ المنتهية باللاحقة ism - فى حياتنا العصرية [1] أليست اللغة تغرينا بهذا الاعتقاد لمجرد أن لدينا كلمات موجودة بالفعل

---

(١) أمثلة هذه الالفاظ التى تدل على هذه المعانى : Soecialism « اشتراكية » Communism «شيوعية» Capitalism « رأسمالية» . واللاحقة وجمعها لواحق — عنصر صرفى يلحق بأواخر الكلمات لتعديل وظائفها أو معانيها الأصلية . ومثال اللواحق فى اللغة العربية الضمائر المتصلة التى تلحق بآخر الفعل الماضى نحو : كتبت =

للدلالة على هذه المعانى ؟ هل نقل الأفكار وتوصيلها هو الوظيفة الوحيدة للكلام ؟ وهل لنا أن نفسر « معنى » القضيه العلية بنفس الطريقة التى نفسر بها « معنى » القصيدة الشعرية أو الإعلان أو الحديث السياسى بالإذاعة ؟ اللغة أداة سلبية ؟ أم أنها قابلة لأن تتطور إلى قوة ، فتسيطر على عقولنا ، وتمدنا بالأفكار ونماذج السلوك وطرائق العادات ، وتضع الحواجز بين البيئات اللغوية المختلفة ، أليست أهمية اللغة — بوصفها وسيلة للمحافظة على التراث الأدبى وبوصفها أداة للوحدة السياسية — سبباً فى جعلها مصدراً من مصادر سوء التفاهم والنزاع فى الشئون العالمية ؟ أليس الكثير من مشكلاتنا الفلسفية مجرد أوهام ناتجة عن طرائقنا التقليدية فى التعبير ، تلك المشكلات التى لا وجود لها عند ذوى العادات اللغوية المختلفة .

إن العقل الحديث حين تهاجمه هذه الشكوك غالباً ما يكون عنده الاستعداد لأن يستجيب إلى ذلك النقد المرير الذى وجهه أفلاطون إلى اللغة وهو : « لن يجرؤ إنسان حصيف على أن يعبر باللغة عما يدور بخلده من أفكار وأشياء ... فإذا خانه الحظ وأقدم على ذلك فمن المؤكد أن البشر — لا الآلهة — هم الذين قد عصفوا بحصافته ، وقضوا عليها قضاء مبرما » .

وفى أى نقد يوجه إلى اللغة تكون الكلمة عرضة لأن ينظر إليها على أنها السبب الأساسى فى هذا النقد . وليس ثمة ما يثير الدهشة أو الغرابة فى هذه المكانة التى

= كتبوا إلخ . واللاحقة يقابلها فى اللغة الانجليزية المصطلح Suffix ومثال ذلك فى هذه اللغة Lsm — كما فى الأمثلة السابقة و er - فى نحو Leader و ship - فى نحو Leadership . واللاحقة تقابلها السابقة - وجمعها سوابق - وهذه الأخيرة عبارة من عنصر صرفى يضاف إلى أول الكلمات مثال ذلك فى اللغة العربية حروف « أنيت » التى تدخل على أول الفعل المضـــارع نحو : أكتب نكتب يكتب إلخ . والسابقة يعبر عنها فى اللغة الانجليزية بالكلمة prefix مثل re فى نحو reaction و en فى نحو enlist الخ (المترجم) .

تنفرد بها الكلمات ، فهي أصغر « نواقل » المعنى أو أصغر الوحدات ذات المعنى في الكلام المتصل [١] . أضف إلى ذلك أن الكلمات هي أسماء الأشخاص والأشياء وهي أول خطوة يقوم بها الطفل في سبيل تعلم اللغة . والكلمات كيان مستقل في الكتابة والطباعة ، وتتمتع بذاتية ومكانة مستقلة في المعجم . وهي فوق هذا وذلك تخضع في استعمالها لعدد لا يحصى من القيود والعادات الخرافية حتى إنها في كثير من الحالات كانت موضع العبادة والتقديس . لهذا لم يكن من الغريب أن تنفرد الكلمات باهتمام خاص من نقاد اللغة .

ولقد تعرضت الكلمة ووظائفها في السنوات الأخيرة للبحث الدقيق من وجهات نظر ثلاث ، هذه الوجهات الثلاث أو المناهج تعرف كلها الآن بوجه عام - وإن لم يكن باطراد - « بعلم المعنى » أو السيمانتيك Sematics (من الكلمة الاغريقية Sema بمعنى « علامة » أو « دليل ») وهذه المناهج الثلاثة — بقطع النظر عن اشتراكها في اسم واحد — لا يوجد بينها من مظاهر الاتفـــاق والاشتراك في الخصائص إلا القليل ، كما أنها حتى الآن لا تزال بحاجة كبيرة إلى نوع من التنسيق فيما بينها .

وأول ما ظهر من المنـــاهج الثـــلاثة للبحث في المعنى هو المنهج اللغوى philological Semantics [٢] - فدراسة المعنى — بوصفه فرعاً مستقلا من

---

(١) هذا التصريح يقرر مبدأ خطيراً عند المؤلف وهو أن «الوحدات الصوتية» الفونيمات ليس لها معنى . وهذا عكس ما تراه المدارس اللغوية الأخرى التي تؤمن بأن هذه الوحدات، بل الأصوات التي تندرج تحتها لها معنى . والسر في هذا الخلاف الخلاف في معنى ، المعنى نفسه . على ما سنبينه في حينه . انظر الملحوظ رقم (٣٥ المترجم) .

(٢) المصطلح (philological) هو ما استعمله المؤلف والأنسب في هذا المقام هو المصطلح الآخر linguistic . وذلك لأن philological صفة مأخوذة من الاسم=

فروع علم اللغة — قد ظهرت أول ما ظهرت سنة ١٨٣٩ ، ولكن هذه الدراسة لم تعرف بهذا الاسم إلا بعد فترة طويلة — أى فى سنة ١٨٨٣ — عندما ابتكر العالم الفرنسى م. بريال M, Breal المصطلح الحديث semantigne الذى لم يلبث أن انتقل إلى اللغة الإنجليزية مترجما بالكلمة Semgntics . ولما تعرض هذا المصطلح الإنجليزى للغموض كانت هناك حاجة قوية إلى الاستعاضة عنه بالاسم القديم : Semasiology ، غير أن Smantics — نظراً لقصره وخفته فى النطق — يبدو أنه الآن قد عم انتشاره بدرجة كبيرة .

وفى السنوات الأولى من العقد الثالث من هذا القرن أخذ الفلاسفة البولنديون المصطلح Semantics وأدخلوه إلى علم المنطق الرمزى Symbolic Logic وهناك أطلقوه على دراسة تخصصية دقيقة ، تعنى بالبحث فى الرموز ومعانيها على أن علم المعنى الفلسفى philosophical semantics فى صورته الراهنة أصبح عويصاً لا يقدر على فهمه إلا نفر قليل من الرواد الأوائل .

وبعد هذا بسنوات معدودة . ظهرت فى الولايات المتحدة حركة طموح ذات أهداف عملية على يد الكونت البولندى كورزيبنكى Korzybski وكان من آثار هذه الحركة ظهور علم المعنى العام General Semantics : وعلم المعنى العام —

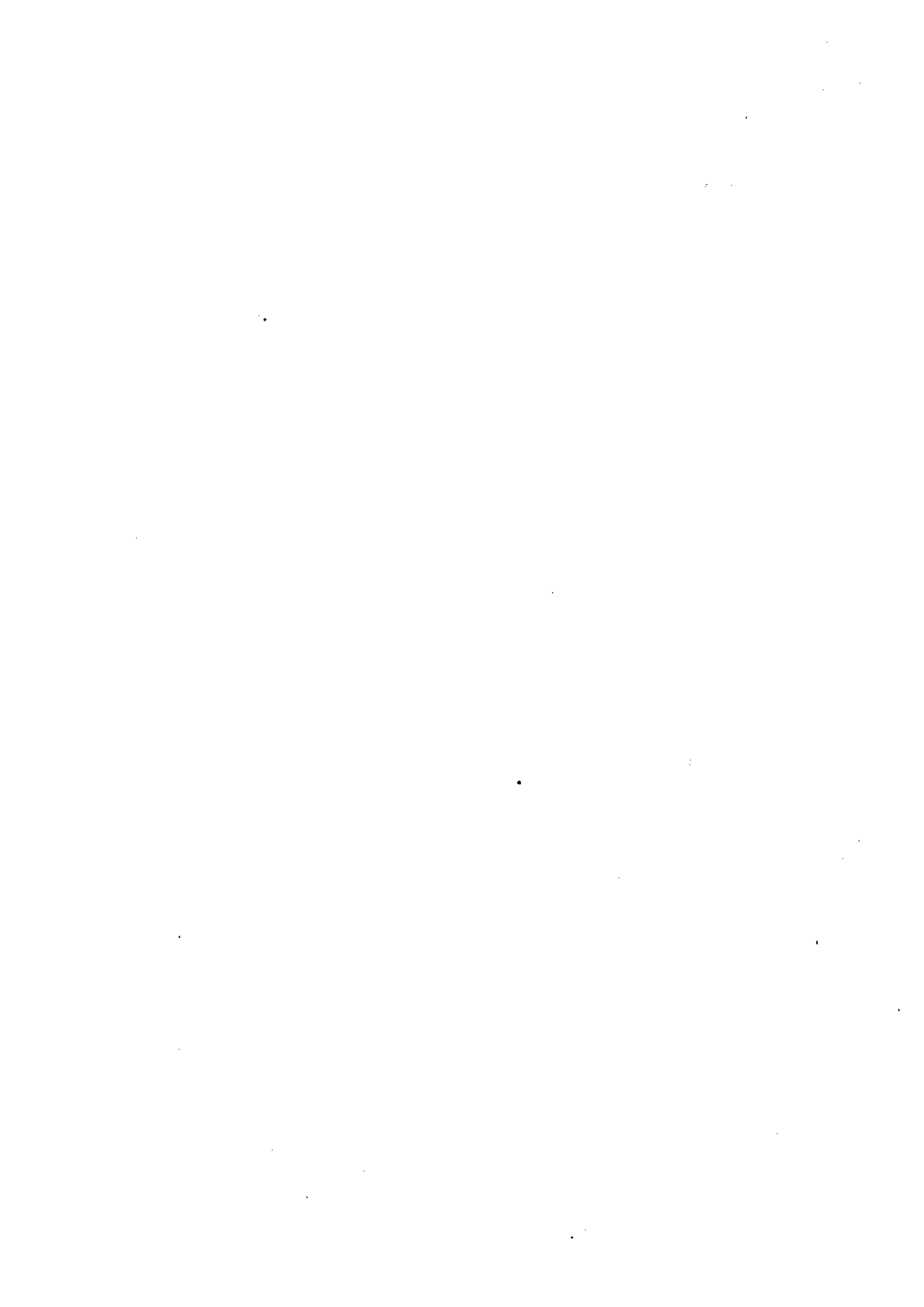
= المشهور philology وهذا المصطلح الأخير إنما يطلق اليوم على الدراسات اللغوية التاريخية المقارنة التى يعتمد فيها الباحث على (المتون) حيث يعمل على تحقيقها ومقارنة بعضها ببعض. وهذا يفسر لنا الاصطلاح المألوف comparative philology الذى يطلق على هذه الدراسات . أما linguistic فهى صفة من Lilnguistics أى علم اللغة ، وهذا العلم إنما يعتمد فى أساسه على الكلام المنطوق . وقد يتعرض أحيانا للكلام المكتوب ولكن بدون مقارنة . والدراسة التى يعرض لها المؤلف هنا هى من اختصاص « علم اللغة » لا من اختصاص « الفيلولوجيا » بالمعنى الذى ذكرناه . (المترجم) .

الذى استطاع ستيورات تشيس وغيره أن يقربوه من الجماهير ويشيعوه بينهم — يهدف إلى تخليص الفكر الإنسانى من المغالطات اللغوية ، وترتبط بهذه الحركة تلك البحوث والدراسات التى قام بها فى انجلترا العالمان أوجدن وريتشاردز . ومن ضمنها ذلك البحث المعروف « بالانجليزية الأساسية » Basic English [1] للعالم الأول . وكذلك يرتبط بهذه الحركة كل ما تفرع عن هذا المنهج العام فى بحث المعنى من الدراسات المختلفة التى أحدثت فيما بعد ثورة شاملة فى نظريات الجمال والنقد الأدبى .

وهذه الدراسة التى بين أيدينا الآن — بالرغم من كونها دراسة لغوية فى عمومها — سوف تعمل جاهدة على النظر فى مشكلة المعنى من الزوايا الثلاث التى أشرنا إليها آنفاً : وسنبدأ بحثنا بتحديد مكانة اللغة — منطوقة ومكتوبة — بين العلامات والرموز الأخرى ، وبيان الدور الذى تلعبه الكلمات فى الكلام الإنسانى سيعقب ذلك تحليل المعنى ، ذلك التحليل الذى سوف يساعدنا على تفسير سلوك الكلمات وتفسير التغييرات التى تصيب الثروة اللفظية ، من ابتكار كلمات جديدة ، وتكييف كلمات موجودة بالفعل تكييفاً ملائماً للحاجة ، وانقراض الكلمات التى لاتقوى على « البقاء » « مواصلة الحياة » وفى الباب الثانى من هذا الكتاب سوف نبحث تأثير الكلمات فى الفكر الانسانى وهناك سوف نستعرض الوسائل والطرق التى يوصى بها علم المعنى العام لمعالجة قصور اللغة وعدم كفايتها .

---

(١) « الانجليزية الأساسية » لغة ابتكر أسسها ومبادئها الأستاذ أوجدن . من ذلك أنه عمد إلى الاستغناء عن بعض الأفعال فى اللغة الانجليزية وعن بعض الكلمات الأخرى كالمترادفات وما شابهها . وكان يرى ببحثه هذا الاقتصاد فى الثروة اللفظية ، وإلى تسهيل التفاهم بين الناس بطريق التركيز على عدد معين من الكلمات ذات المعانى الدقيقة المحدودة ، وعنده أن عدداً محدوداً من الكلمات الواضحة المعنى خير بكثير من آلاف الكلمات ذات المدلولات الغامضة والمشكوك فيها . (المترجم)



الباب الأول

اللغــــة والمعنى

الفصل الأول

العلامات والرموز

إن أحسن طريقة للوقوف على كيفيه أداء اللغة لوظيفتها إنما تكون وقت الكلام الفعلى فى موقف لغوى بسيط. لنفرض مثلا أن طفلا رأى تفاحة وشعر برغبة فى التقاطها وأكلها. فهذا الطفل — كى يشبع رغبته — يمكنه أن يسلك أحد طريقين، إذا كانت التفاحة سهلة المنال، وليست هناك عوائق فى طريقه. ففى استطاعته أن يذهب بنفسه ويحصل عليها دون مساعدة خارجيه. أما إذا لم يتمكن من الوصول إليها، أو كان الأمر يقتضى إذناً خاصاً فلابد له حينئذ من مساعدة شخص آخر. وفى هذه الحالة سوف يصدر الطفل مجموعة من الأصوات المصوغة فى قالب معين من الإيقاع والتنغيم، مكوناً عبارة مثل: «هات لى هذه التفاحة من فضلك». فاهتزاز الهواء الذى يحدثه المتكلم يصل إلى أذن السامع الذى سوف يستجيب لهذه العبارة فى حالة فهمه لها. وهذه الإستجابة فى أبسط الحالات تظهر فى صورة عملية، كأن يلتقط السامع التفاحة بناء على طلب منه. وربما يجرى بينهما أيضاً تبادل لغوى ذو نماذج أكثر تعقيداً، تؤدى فى النهاية إلى نتيجه عملية إيجابية أو سلبيه.

هذا الموقف قد حلله الاستاذ ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield فى أسلوب «سلوكى» أى إنه نظر إليه على أنه سلسلة من المثيرات والاستجابات، وتكون هذه السلسلة بسيطة حين يستطيع الطفل التقاط التفاحة بنفسه، حيث تقوم رؤية التفاحة بدور المثير الخارجى. وحيث تستدعى استجابة حالية عملية. أما إذا تطلب الأمر المساعدة الخارجيه، فان المثير الخارجى (S) يستدعى رد فعل لغويا (R) يتمثل فى نطق المتكلم بمجموعة معينه من الأصوات. وحينئذ تصل الموجات الصوتية إلى السامع وتعمل فيه كمثير لغوى (S). وهذا المثير اللغوى يؤدى بدوره إلى رد فعل خارجى عملى (R) من قبل السامع، ويمكن تمثيل هذا الموقف بالشكل الآتى: —

مثير أصلى (S) ← رد فعل لغوى (R) . مثير لغـــوى (s) ← رد فعل عملى (R) [١] .

ونلاحظ هنا أن تبادلا لغوياً — أى الكلام الفعلى والاستجابة له — قد وضع وضعاً مناسباً بين المثير الأصلى والاستجابة النهائية . ومعنى هذا أن الخطوة النهائية إنما يقوم بها شخص آخر غير الذى استقبل المثير الاول أو الاصلى ، وبعبارة أخرى سوف يصبح تقسيم العمل بين المخاطبين أمراً مضموناً ، ومؤكداً .

وإذا أنعمنا النظر فى هذا الموقف اللغوى البسيط ، فإننا سوف نحصل منه على مزيد من المعلومات التى لها صلة بالتبادل اللغوى . سيتضح لنا أن هناك ثلاثة عناصر يتضمنها أى حدث لغوى . هذه العناصر هى : المتكلم والسامع والرسالة المرغوب فى توصيلها . فالحديث اللغوى بالنسبة للمتكلم هو تعبير أو وسيلة لتوصيل أفكاره أو شعوره أو رغباته وهو بالنسبة للسامع مثير يدفعه إلى القيـــام بعمل ما أو إلى إختيار ضرب معين من السلوك . أما فيما يتعلق بالرسالة نفسها فالحديث اللغوى أو الكلام عمل نقل الأفكار وتوصيلها . ويمكننا هنا أن نستعمل تلك العبارات السديدة التى قدمها لنا العالم النفسى النمساوى ك . بوهلر uhle .

---

(١) الحرف الإنجليزى S — بقطع النظر عن طريقة رسمه فى الكتابة — إختصاراً الكلمة الإنجليزية stimulus أو stimuli بمعنى مثير أو مثـــيرات . والحرف P إختصاراً الكلمة reaction و response بمعنى رد فعل أو استجابة ويجدر بنا هنا أن نشير إلى الحرف S بالرسم الكبير يرمز إلى « المثير الأصلى » وهو هنا رؤية التفاحة . أما الحرف s بالرسم الصغير s فهو يرمز إلى « المثير الذى هو بديل عن المثير الأصلى » . وهو هنا سماع المتكلم للكلام والحرف R بالرسم الصغير (r) يشير إلى رد الفعل الذى هو بديل عن رد الفعل الأصلى » وهو فى مثالنا كلام المتكلم . أما النقط (. . . .) الموضوعة بالشكل بين (r) و (s) فهى ترمز إلى الموجات الصوتية فى الهواء انظر بلومفيلد : اللغة ، ص ٣١ - ٤١ . (المترجم)

وهى : إن الكلام دليل على الحالة العقلية للمتكلم ورمز للرسالة وتنبيه للسامع.

وعن طريق هذا التحليل تظهر لنا بوضوح الوظائف الأساسية للكلام الإنسانى . فكما أن هناك ثلاثة مصطلحات وثلاثة جوانب ، كذلك توجد ثلاث وظائف ، وهى أن الكلام معبر وموصل ومؤثر [1] . ويتوقف الأمر على ما إذا كان الموضوع ينظر إليه من زاوية المتكلم أو الرسالة أو السامع .

---

(١) تعرض المؤلف هنا لوظيفة اللغة والأغراض التى تؤديها فى المجتمع . وهى قضية لغوية خطيرة ، اختلف فيها العلماء وتباينت آراؤهم إلى حد بعيد . ويجدر بنا فى هذا المقام أن نشير فى إيجاز إلى بعض هذه الآراء ، حتى يقف القارىء على حقيقة الأمر فى هذا الموضوع ، وحتى نتمكن من إلقاء بعض الضوء على مشكلات لغوية أخرى ذات صلة وثيقة بهذه القضية .

لا يزال بعض اللغويين يتبعون العرف القديم الذى كان يجرى على النظر إلى اللغة كما لو كانت تابعة لميادين الفلسفة وعلم النفس والمنطق ، مجتمعة أو منفردة ، ومن ثم نراهم — فى أغلب الأحايين — يعمدون إلى تفسير الحقائق اللغوية تفسيراً يتمشى مع مبادىء هذه العلوم . ومن هذا القبيل ما ذهب إليه هؤلاء الباحثون فيما يتعلق بوظيفة اللغة وأغراضها فى الحياة . فالرأى عندهم - بقطع النظر عن بعض الاختلافات الجزئية فيما ذهبوا إليه — أن اللغة وظيفتها التعبير عن الأفكار والعواطف والرغبات ، وما إلى ذلك من الانفعالات والمشاعر ، ومن أنصار هذا الرأى العالم الانجليزى هنرى سويت H, sweet والعالم الأمريكى سابير Sapir . يقول هذا الأخير فى كتابه « اللغة » (ص ٧) : اللغة وسيلة إنسانية صرفة - غير غريزية - لنقل الأفكار والعواطف والرغبات عن طريق نظام من الرموز الصادرة اختياراً عن الإنسان » . وينضم إلى هذه المدرسة — فى رأينا — مؤلف هذا الكتاب ، فهو إذ يقرر أن « الكلام معبر وموصل ومؤثر » لم يخرج فى حقيقة الأمر وجوهره عما صرح به سابير . وإن كان قد أضاف وظيفة أخرى للغة ، وهى كونها تؤثر فى =

ومهما يكن من أمر ، فقد بقيت نقطة مهمة فى هذا الموقف اللغوى لم تفسر بعد : لماذا وكيف ، كانت الأصوات : « هات لى هـــذه التفاحة من فضلك »

= السامع وتدفعه إلى القيام بعمل من الأعمال، وإن الباحث المدقق ليمكنه بسهولة أن يرجع كل ما نطق به هؤلاء اللغويون إليها وإلى بعض الفلاسفة والمناطقة وعلماء النفس فى هذا الشأن . ويظهر الإتجاه النفسى بوجه خاص فى بحوث ذلك العالم الكبير هيرمان بول H. Paul الذى يصرح فيها يصرح خاصاً بهذه القضية أن اللغة «وظيفتها الأساسية هى كونها دائماً وسيلة لنقل أو توصيل شىء من الاشياء » . أما أن هؤلاء اللغويين قد تأثروا بمقالة المناطقة فى هذا السبيل فيتضح ذلك جلياً مما جاء لنا جفونز jevons فى كتابه « مبادىء دروس المنطق » Elementary Lessen of Logis حيث يقول : « ان للغة ثلاث وظائف : أ — كونها وسيلة للتوصل . ب — كونها مساعداً آلياً للتفكير . حـ — كونها أداة للتسجيل والرجوع » . ثم يستمر جفونز فى كلامه ويقرر : « أن اللغة فى نشأتها الأولى كانت تستعمل بشكل رئيسى — إن لم يكن دائما — فى الغرض الأول وحده » وهو كون اللغة وسيلة لنقل الأفكار والعواطف وتوصيلها إلى الغير ، وأنه لما يلفت النظر حقاً أن تكون آراء أولمان — مؤلف هذا الكتاب — مطابقة تمام المطابقة لما ذهب إليه بعض الفلاســـفة المعاصرين ، بل ما أظن هذه الآراء إلا ترديداً وصدى لما قرره هؤلاء الفلاسفة يقول الفيلسوف الإنجليزى المشهور برتراند رسل فى كتابه : Human Knowledge, Its Scopeand Limits ص ٧٢ : « للغة وظيفتان رئيسيتان : التعبير والتوصيل، أى التعبير عن الأفكار وما إليها وتوصيل هذه الأفكار إلى الغير . فإذا ما أضفنا إلى ذلك ما قرره فى ص ٧١ وهو أن « اللغة يمكن استخدامها للتعبير عن العواطف والتأثير فى سلوك الآخرين » خرجنا من ذلك بنتيجة مؤكدة ، وهى إتفاق الرجلين إتفاقاً تاماً فيما يتعلق بوظائف الكلام الإنسانى وهى كونه « معبراً وموصلا ومؤثراً» ولا تضح لنا كذلك أن عدداً من اللغويين وفى مقدمتهم أولمان — قد تأثروا بآراء

حاملة للسامع على أن يلتقط هذه الفاكهة ؟ وإذا ضيقنا دائرة المشكلة ونظرنا إلى النقطة الأساسية فيها ، قلنا أن نسأل : لماذا وكيف كانت الأصوات « تفاحة »

= الفلاسفة تأثراً بالغاً . على أنا نلمح فى كلام هذين العالمين فكرة نفسية بجانب الفكرة الفلسفية التى هى أساس نظرتهم إلى هذه القضية . فالقول بأن الكلام الإنسانى وظيفته « التأثير فى السامع ودفعه إلى القيام بعمل من الأعمال » إنما هو رأى السلوكيين من علماء ، الذين يؤمنون بأن الأحداث اللغوية ، إن هى إلا مثيرات تقتضى إستجابة أو رد فعل معين من السامع ويعد بلومفيلد من أبرز اللغويين الذين نهجوا هذا المنهج السلوكى فى دراساتهم وبحوثهم ، كما يبدو ذلك واضحاً فى هذا السفر الجليل الذى ألفه بعنوان « اللغة » Language وأكبر الظن أن هذا العالم قد تأثر فى منهجه هذا بآراء « ڤايس » Weiss أحد أنصار المدرسة السلوكية فى علم النفس ، وبالرغم من أن بلومفيلد لم يشأ أن يصرح بهذا التأثر فى كتابه المذكور ، وبالرغم من تسميته لهذا المنهج السلوكى الذى اتبعه بالفعل باسم آخر محبوب لديه ومفضل عنده هو « المنهج الميكانيكى » : Mechanistic approach

انظر : Bloomfield : Language, esqecialy. ppvii & 12—41

وانظر أيضاً : Weiss ; A Theoretical Basis of Human Behavior esp pp 301—321.

هذه الأفكار وأشباهها بالنسبة إلى اللغة ووظيفتها تعبر عن وجهة النظر عند عدد كبير من اللغويين الذين يمثلون — فى رأينا — ما يعرف بالمدرسة الفلسفية أو النفسية أو المنطقية فى الدراسات اللغوية . وهذه المدارس — مجتمعة ومنفردة قد يشار إليها أحياناً بالمدرسة العقلية ، على أساس أنها جميعاً تتفق فى اعتمادها على الأسس العقلية والذهنية فى تفسير الحقائق اللغوية . وفى إهمالها للجانب الإجتماعى للغة ، ذلك الجانب الذى يعد فى نظرنا أهم خصائص الكلام الإنسانى ومميزاته .

يقابل هذه المدرسة مدرسة فكرية أخرى ، يعنى أصحابها عناية بالغة بالجانب الاجتماعى للغة ، إذ هم يعتبرونها حقيقة إجتماعية ونتيجة للاتصال الإجتماعى ، =

تمنى هذا الشيء بالذات ، ولا تمنى شيئاً آخر ؟ أو ، لماذا وكيف تمنى أى شيء على الإطلاق ؟ من الواضح أنه ليست هناك علاقة طبيعية بين الصيغة والمعنى فى حالتنا

= وهى فى الوقت نفسه مدينة فى تطورها ونموها إلى وجود الجماعات . والوظيفة الأساسية للغة عند هؤلاء هى تسيير دفة الأمور وتصريف شئون المجتمع الإنسانى ومن أنصار هذه المدرسة العالم الأمريكى « ستيرتفنت » Sturtevant واللغوى الإنجليزى « جاريير » Gariuer وكذلك العالم الانثروبولوجى المشهور « مالينوفسكى » Malinovski الذى يؤكد فى كل كتاباته العنصر الإجتماعى للغة ، والذى يرى أنها وسيلة لتنفيذ الأعمال وقضاء حاجات الإنسان . ويتضح هذا من قوله فى هذا المجال « وإنما تستعمل الكلمة فى أداء الأعمال وإنجازها ، لا لوصف الأشياء أو ترجمة الأفكار : فالكلمة — إذن لها قوتها الخاصة ، وهى وسيلة لتنفيذ الأعمال وقضاء الأشياء ، وليست تمريناً لهذه الأشياء ، ومن أبرز المتحمسين لهذه النظرة الإجتماعية العلمية إلى اللغة العالم اللغوى الكبير « يسبرسن » jesqerson الذى يتصدى للدفاع عن هذا الإتجاه ولتنفيذ كل ما ذهب إليه العقليون فيما يختص بوظائف اللغة ، يقرر يسبرسن أنه من المستحيل أن نصل إلى فهم تام لطبيعة اللغة إذا وافقنا على ما ذهب إليه أصحاب المدارس السابقة ، وحصرنا إهتمامنا فى الوظيفة العقلية للغة ، بوصفها وسيلة لنقل الأفكار وتوصيلها إلى الغير : إن القول بأن وظيفة اللغة الأساسية التعبير عن الأفكار ونقلها توصيلها قول غير سديد بل هو قول ينافى الحقيقة . ذلك بأن إستعمال اللغة للتعبير عن الأفكار ونقلها إنما ينطبق على رجال الفكر والفلاسفة وأمثالهم فى اللحظات التى يكونون مشغولين فيها بأعمالهم العلمية التى تحتـــاج إلى تفكير دقيق . أما بالنسبة للغالبية العظمى من الناس فليست وظيفة اللغة الأساسية التعبير عن الأفكار أو نقلها . إنهـا بالنسبه لهؤلاء الناس طريق من طرق الحياة . بواسطتها يديرون شئونهم وأعمالهم ولو أنك دققت النظر لوجدت أن أكثر استعمال الرجل العادى للغة إنما هو للتسلية أو لتنفيذ أموره . وكثيراً ما يتكلم الإنســان فى موضوعات شتى فى الموقف اللغوى الواحد دون أن يقصد إلى نقل أفكاره إلى الغير

هذه ، إذ أن المرء لا يعجز فقط عن إدراك كنه هذه العلاقة ، بل إنه ـ على فرض وجود علاقة خفية هناك ـ لن يدرى كيف يفسر تنوع الأسماء الموضوعة لهذا الشيء نفسه ، وتباين هذه الأسماء فى لغات مختلفة .

=ومن الواضح لنا جميعاً أن الإنسان يكره التفكير ولكنه فى الوقت نفسه ميال إلى اللعب باللغة فى كل فرصة تسنح له .

ومن المقرر أن الطفل إلا يمكنه أن يتعلم اللغة إذا نشأ بين قوم من المفكرين والفلاسفة الذين لا هم لهم إلا الكلام عن القضايا المجردة والأمور المعنوية المعقدة . ومن حسن الحظ أن الأطفال يحاطون فى سنيهم الأولى بمجموعة من الناس (كالأم والمربية أو من يقوم مقامهما) يحلو لهم دائماً إرسال الكلام إرسالا على مسمع من الطفل الذى قد لا يفهم شيئاً مما يقولون ، ولكنه مع ذلك تكون لديه فرصة استماع إلى اللغة والتعرف عليها بالتدرج ، سواء أكانت توصل إليه أفكاراً أم لا . إن كثيراً من العبارات التى نستعملها فى حياتنا اليومية مثل « صباح الخير » ، « السلام عليكم » أو « من أى بلد أنت ؟ » ، حين تقابل شخصاً لأول مرة ، أو « الطقس جميل اليوم » موجها الكلام لمن تود معرفته وصداقته ـ ان هذه العبارات وأمثالها لا تعنى نقل الافكار أو التعبير عنها . وإنما غرضها الأول والأخير هو الترابط الاجتماعى والتعاطف الذى هو أول خطوة فى علاقات الود والألفة التى قد تقوى وتزداد متانة باجتماعات متكررة قد يتخللها طعام لذيذ أو سمر مطرب .

وهكذا يؤكد لنا يسبرسن أن كلمات اللغة فى الإختلاط الإجتماعى لا تستعمل فى أكثر الأحايين لتنقل أفكاراً أو لتوضيح أشياء من هذا القبيل ، أو حتى للتعبير عن الشعور ، ولكنها تستعمل لتشبع الاشتياق إلى النزعة الإجتماعية والمصاحبة التى يهواها الإنسان وينشدها . وهذا ما يؤكده أيضاً غيره من العلماء الذين يرون أن ان اللغة طريق من طرق السلوك الإنسانى فى ظروف خاصة واللغة بهذه الصفة تربط الفرد بالمجتمع وربط الفرد بالمجتمع أمر مهم يسعى إليه الفرد ويجاهد فى تحقيقه ، حتى لا يبدو شاذاً فى تصرفه أو منبوذاً ومن ثم وجب على الفرد أن يستعمل اللغة استعمال المجتمع لها وبالطريقة السائدة فيه .

=

فالتفاحة يعبر عنها بالكلمة apple فى اللغة الإنجليزية ، homme فى الفرنسية

= انظر : otto Jespersen, Mankind, Nation and Individual from a Linguistic point of View, pp. 6 ff)

وخلاصة القول فى هـذا كله أن اللغة لا تستعمل للتعبير عن الأفكار بقدر ما تستعمل وسيلة التعاون والترابط الاجتماعى . ويجب أن نؤكد أن الكلمات ذات قوة تؤدى إلى نتائج محسوسة ملموسة وأن اللغة ذات قوة سحرية فى المجتمع الذى تنمو فى أحضانه ، والذى تحفظ له كيانه ونظامه . وإذا كانت اللغة تعبر عن الأفكار والعواطف ونحوها فهذه وظيفة ثانوية .

هذا الذى قررناه هنا هو ما يمثل رأى تلك المدرسـة التى نطلق عليها أحياناً « المدرسة الاجتماعية » فى البحوث اللغوية ، وهى مدرسة تدين باستقلال علم اللغة ووجوب اعتماده على حقائق اللغة نفسها ، دون الاعتماد على مبادىء العلوم الأخرى وأسسها ، وبخاصة علم النفس والفلسفة والمنطق، ونحن من جانبنا لا يسعنا إلا أن نتبع هذه المدرسة : لأن فى مناهجها ما يكفل لنا الوصول إلى نتائج صحيحة خالية من الاضطراب والخلط . ومهما يكن من أمر ، فقد رأينا أن نلخص هنا أهم الآراء المختلفة فى وظائف اللغة ، لأن فى ذلك ما يكشف عن سر الخلاف بين العلماء فى بعض القضايا اللغوية المهمة، من ذلك مثلا أن المدرسة العقلية تذهب إلى التفريق بين جانبى الكلام الإنسانى ، أى أنها ترى إمكانية الفصل بين جانب اللفظ المحض وجانب المعنى . أما المدرسة الاجتماعية فهى تنكر هذه « الثنائية » dichotomy وترى أن الحديث اللغوى (كلمة كان أو عبارة أو جملة) وحدة متكاملة لا انفصام لجانبيها، ومن ثم وجب تحليلها على هذا الأساس . ومن المعروف عن المدرسة العقلية أيضاً أنها تنظر إلى المعنى اللغوى كما لو كان شيئاً مخزوناً فى الذهن أو العقل أو هو — على حد تعبير أولمان أحد أنصار هذه المدرسة — « علاقة متبادلة بين الرمز أو اللفظ وبين المحتوى العقلى ، أو الصورة الذهنية للشىء الذى يدل عليه هذا اللفظ فى حين أن المدرسة الاجتماعية تذهب إلى أن المعنى اللغوى ليس إلا مجموعة الخصـائص والمميزات اللغة لحدث اللغوى (المترجم) .

و manzana فى الاسبانية ، و mar فى الرومانية ، aima فى الهنغارية الخ .

ما السر فى أن الكلمة apple قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً فى أذهان كل المتكلمين بالانجليزيه بتلك الفاكهة بالذات ، حتى صارت رمزاً لها ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضى النظر فى العلامات والرموز بوجه عام ، حيث أنه من المعروف أن هناك علامات ورموزاً كثيرة غير لغوية ، ومن ذلك أن كلمة اللغة إنما تحتل مكاناً واحداً فقط فى الإطار العام للعمليات الرمزية .

إننا حين نرى سحاباً كثيفاً فى السماء نفسر ذلك على أنه دليل على مطر وشيك الوقوع . وإذا أراد الكلب مثلا مغادرة حجرة مغلقة فإنه يرشدنا إلى ذلك بإعمال أظافره فى الباب . ففى الحالة الأولى فسرت ظاهرة طبيعية على أنها دليل على ظاهرة أخرى ، وفى الحالة الثانيه وجدت إشارة مقصودة نبهت السامع أو السامعين والأهم من ذلك كله على أية حال ، هو عملية التحليل والتفسير نفسها . وقد ألقت التجارب المشهورة التى قام بها العالم النفسى الروسى بافلوف Pavlov ضوءاً جديداً على هذه العملية . فقد اعتاد بافلوف أن يحدث صفيراً ذا نغمة خاصة وقت تقديمه الطعام لكلبه . ومن ثم حدث ترابط وثيق بين منظر الطعام ورائحته وطعمه وبين الصوت الذى يصاحب تقديم الطعام بانتظام . كل هذه الإنطباعات الحسية كونت جزءاً من من خبرة عامة متكررة . وبعد أن اطمأن بافلوف الى استقرار هذه القرائن الحسية عمد ذات يوم الى احداث الصفير ولكن دون إحضار الطعام . فوجد ان الكلب قد أظهر كل علامات توقع الطعام ، وكان اللعاب الذى يثيره احداث الطعام عادة إحدى هذه العلامات . كل الذى حدث هو أن جزءاً من الخبرة قد انفصل عن بقية الأجزاء ، وكان هذا الجزء وحده كافياً لاستدعاء بقيه القرائن . وقد صاغ لنا الدكتور ريتشاردز Dr, Richards عبارة معبرة — وإن كانت فجة الى حد ما — يوضح بها الخاصة البارزة للعلامات ، تلك العبارة هى « فاعلية نائبة » ومعناها ان عنصراً واحداً من خبرة مركبة قد انفرد بأداء دور المجموع « عن طريق النيابة » ، اذا صح هذا التعبير . ولنا حينئذ أن نعرف العلامة بأنها ذلك الجزء من الخبرة الذى فى استطاعته أن يستدعى بقية هذه الخبرة .

هناك عدد كبير جداً من العلامات التى يستعملها الناس فى اتصالهم بعضهم

بعض . ولعله من الأفضل أن نميز هذه العلامات عن غيرها ، وأن نسميها رموزاً وسوف نعرف هذه الرموز حسب حاجة بحثنا هذا — بأنها « تلك العلامات التى يستعملها الناس فيما بينهم للإيصال والتوصيل » (تعريف أوجدن وريتشاردز)

وهذه الرموز من الممكن تقسيمها من وجهات نظر متعددة ، فهى قد تجذب إليها الحواس المختلفة ، ومن الطبيعى أن يكون السمع والرؤية أعظمها منزلة ، إذ أن أعضاءها أكثر الأعضاء رقياً . ولكن بعض الانطباعات الحسية الأخرى يمكن أن يعمل لها حساب أيضاً ، وذلك كاللمس فى طريقة بريل للمكفوفين . ومن الممكن كذلك أن تثير هذه الرموز خليطاً من إحساسات شتى ، كما فى أداء الأوبرا حيث تصحب الحيل البصرية التأثير الموسيقى وتزيده قوة . وقد وجد — من وجهة نظر أخرى — أن الرموز إما طبيعية أو تقليدية عرفية . فالرموز الطبيعية لها نوع من الصلة الذاتية بالشىء الذى ترمز إليه . من ذلك أن بعض الحركات الجسمية تمد وصفاً للحالات العقلية التى تعكسها ، وتشخيص إلهة العدل مثلا بطريق التصوير أو النحت إن هو إلا عمل تمثيلى أى مبنى على نوع من المشابهة الداخلية . كذلك يعد الصليب رمزاً طبيعاً للمسيحية ، ولكن هذا ليس راجعاً إلى أى مغزى تشبيهى ، أو هو لم يكن فى الأصل كذلك ، وإنما سببه المغزى الذى تركه صلب المسيح عن طريق إيحاءاته التاريخية . ومن جهة أخرى ، فإن الكلمة : منطوقة أو مكتوبة ، والصفارة كأداة لضبط الوقت أو للإنذار ، واستعمال اللون الأسود علامة على الحزن ، وهــز الرأس دليلا على الرفض وعدم الموافقة — هذه كلها ما هى إلا وسائل ورموز تقليدية عرفية ، بحيث تصبح غير مفهومة خارج البيئة التى وجدت فيها . فاللون الأبيض لا الأسود لون الحزن فى الصين ، وهز الرأس فى تركيا يعنى الرضا والقبول .

وفى النهاية قد تكون بعض الرموز رموزاً مفردة أو وحيدة ، فى حين أن بعضها الآخر قد يكون نظما مركبة معقدة ، ومن ذلك إشارات الطرق والإشارات البحرية ، وكل أنواع الرموز التى يتفق على استعمالها فى ظروف خاصة ، والأبجدي

التى يستخدمها الصم والبكم ، وكذلك اللغة والكتابة . وفى السنوات الأخيرة شرع الفيلسوف الأمريكى تشارلز موريس Charles Morris وآخرون فى البحث عما إذا كان من الممكن إيجاد نظرية عامة للرموز والعلامات ، نظرية جامعة مانعة من شأنها أن تعنى بدراســـة كل العمليات الرمزية ، وأن تقسمها وأن تبين الإرتباطات بينها ، ومن ضمن هذه العمليات الرمزية اللغة الإنسانية التى هى لديهم أسمى وأحكم مثال .

الفصل الثانى

الكلام واللغة

تؤدى الكلمات وظائفها بنفس الطريقة التى تتبعها الرموز والعلامات الأخرى، غير أن خاصتها المميزة هى أنها تستخدم أصواتاً واضحة المعالم لأداء هذه الوظائف. فالطفل — أو الإنسان البالغ فى بعض الحالات — يسمع هذه الكلمات متكررة فى مواقف معينة، حيث تكون مصحوبة بظواهر أخرى وعلى هذا النمط نجد أن الأصوات «اماحه» تسمع مراراً وتكراراً وبانتظام مرتبطة بهذه الفاكهة الخاصة. وبالتدريج يكون العنصران - الأصوات والمدلول - كلا أو وحدة ترابطية متكاملة، فإذا تكون هذا الترابط وثبت أصبحت الكلمة — بوصفها جزءاً من من الخبرة الكلية — ذات قدرة على أن تقوم مقام هذا المدلول. وكذلك العكس، فإن فكرة المدلول تستدعى الكلمة الدالة عليه بالطريقة نفسها.

والكلمات — ككل العلامات والرموز — لها صورتان من الوجود، وجود بالقوة ووجود بالفعل. فكل كلمة تسمع أو تنطق تترك فى إثرها مجموعة من الانطباعات فى ذهن كل من المتكلم والسامع، انطباعات الأصوات وانطباعات حركات أعضاء النطق، كما تترك أيضاً استعداداً معيناً لإعادة هذه الحركات والإتيان بهذه الأصوات نفسها. هذه الإنطباعات — أو الفكر كما يسميها علماء النفس — تودع فى أذهاننا، ومن الممكن أن تصير حقيقة واقعة فى الكلام المتصل بكل سهولة وطواعية، فإذا ما تحققت هذه الانطباعات برز فى الحال فى ذهن السامع ذلك الجزء الباقى من الخبرة الكلية، وهى الشيء الذى تدل علية هذه الانطباعات.

ولقد أنتشرت التفرقة بين الموجود بالقوة والموجود بالفعل أو بين اللغة Language والكلام Speech إنتشاراً واسعاً بين علماء اللغة المحدثين منذ

السنوات الأولى من القرن الحاضر . ولقد كان اللغوى السويسرى فرديناند دى سوسير Ferdinand de Saussure الرائد الأول فى وضع مبادىء هذه التفرقة. فالكلام — فى نظرة — ما هو إلا وجه من أوجه النشاط الإنسانى، أما اللغة فهى وعاء هذا النشاط وأداته : أو بعبارة أخرى ، اللغة عبارة عن نظام من الرموز التى يستدعيها حدوث الكلام الفعلى . ويشترك فى هذه العملية كل من المتكلم والسامع ، ويشترك فيها الأول بطريق إيجابى ، بوصفه بادئاً ، والثانى بطريق سلبى ، بوصفه مستقبلا . أما الكلام — بمعنى القيام بعملية التكلم — فيستدعى صور الكلمات والرموز الأخرى التى انطبعت فى أذهان كل المتكلمين ، ثم يترجمها إلى أصوات فعلية واضحة ذات مغزى .

ولقد نتجت عن هذا التقابل بين اللغة والكلام مجموعة من الظواهر المتعارضة. فالكلام — كما يؤخذ من التعريف — شىء عابر سريع الزوال ، والحدث اللغوى لا يستغرق أكثر من لحظات . وهذا يصدق بالرغم من أن وسائل التسجيل الحديثة قد منحته شيئاً من الدوام الذى كان من قبل مقصوراً على الكلمة المكتوبة . أما اللغة فهى ثابتة ومستقرة نسبياً إذا قورنت بالكلام ، وبالرغم من خضوعها للتغيير والتطور فهى تسير فى هذا الاتجاه ببطء شديد . كما أن بعض التغيرات الرئيسية التى تصيب اللغة قد تستغرق أجيالا بل قروناً طويلة حتى تنضج وتستقر . أضف إلى ذلك أن للكلام نشاط معتمد مقصود ، بينما اللغة تفرض علينا من الخارج ، ويكتسبها الفرد بطريقة سلبية . ويكون ذلك عادة فى الطفولة . كما أن اللغة لا يمكن أن تتغير أو تتبدل تبعاً للمزاج الفردى . وإن أى إبتكار أو تجديد لغوى — وهو فى الأصل يحدث فى كلام فرد أو أفراد قائلى الحصر كما هو الأغلب الأعم — لابد له من موافقة الجماعة اللغوية قبل أن يتقرر ويثبت ، وقبل أن يجد طريقه إلى نظام اللغة . وهذا أيضاً يعنى أن الكلام فردى ، بينما اللغة اجتماعية : أى أنها نتاج نتاج الجماعة وملك لها . هذا التفريق بين الموجود بالفعل والموجود بالقوة ، بين الزائل والدائم ، بين الفردى والاجتماعى ، يعد حدثاً خطيراً فى تاريخ علم اللغة فى القرن العشرين .

ويمكن أن يلخص هذا التفريق فى هذا التعريف : اللغة نظام من رموز صوتية مخزونة فى أذهان أفراد الجماعة اللغوية ، بينما الكلام نشاط مترجم لهذه الرموز الموجودة بالقوة إلى رموز فعلية حقيقة .

فالذى يمثل اللغة حقيقة مادية إذن إنما هو الكلام الفعلى ، كما أن تحليل النطق الفعلى هو الذى يكشف عن تلك الوحدات التى تبنى وتكون النظام اللغوى . وبهذا يتبين لنا أن عملية الكلام لها جانبان ، أحدهما مادى physical وهو الأصوات المنطوقة . والآخر عقلى mental وهو المعنى المقصود . وعلى هذا يجب أن يسير التحليل اللغوى فى خطين متوازيين .

وإذا تناولنا نموذجا من كلام متصل وحللناه إلى عناصره المادية ، فإننا سوف نحصل فى النهاية على أصوات فردية ، لا يمكن أن يذهب معها التحليل إلى أبعد من ذلك . فالصوت هو الوحدة المادية للكلام المتصل . وهو بهذا المعنى له خواص سمعية وعضوية معينة ، يتناولها بالبحث علم الأصوات ، أى علم أصوات الكلام . . مفردة كانت هذه الأصوات أو فى مجموعات .

والأصوات ليست رموزاً مستقلة إستقلالا تاماً ، أى أنها ليست ذات معنى خاص بها : فالأصوات المفردة ، الفتحة والباء واللام مثلالا تعنى شيئاً بنفسها ، وإنما وظيفة هذه الأصوات هى أنها تكون وحدات أكبر وإذا قارنا بين كلمتين مثل قتل وقاتل فسوف نجد أنهما تفترقان بصفة أساسية فى ناحية واحدة ، تلك هى قصر الحركة أو طولها ، وهذه المقابلة بين الكلمتين هى العامل الذى يفصل بينهما ويفرق بين معانيهما : أما المقابلة بين نحو ، بات وباد ، فهى مقابلة بين الجهر والهمس فى الصوت الساكن الأخير فيهما[٧] . فالاوتار الصوتية ساكنة لا تتحرك

---

[٧] جرى العرف اللغوى على تقسيم الأصوات اللغويه ، إلى أصوات ساكنة وهى ما يشار إليها بالمصطلح الإنجليزى Consonants نحو الباء والتاء والثاء الخ ، وإلى أصوات لينة وهى ما تسمى vowels (أو حركات) . والأصوات اللينة =

فى حالة النطق بالتاء . ولكنها تهمز حين النطق بالياء والذى يميز بين وجهين إنما هو الفرق بين الفتحة والكسرة : ولكن الظاهرة المميزة فى نحو to recordareord هى موضع النبر فى كل منهما [1] . وهكذا تتكون كلماتنا ويتميز بعضها عن بعض بطريقة تبادل دقيق متقن بين هذه المقابلات .

ومن الممكن بعد هذا أن نتناول النموذج السابق نفسه ونحلله لما يشتمل عليه من ومن المقرر أن أصغر وحدة ذات معنى ، ويمكن إفرادها والنظر إليها من هذه الناحية ، إنما هى الكلمة .

ولكن الأصوات والكلمات ليست هى الوحدات الوحيدة للكلام ، إننا لا نتكلم كلمات مفردة ولكننا نكون منها تراكيب : عبارات أو جملا ووحدات أكبر من ذلك . ووظائف هذه الوحدات هى بيان الارتباطات والعلاقات بين الأشياء ، أما الأشياء نفسها فيرمز إليها بالكلمات المفردة ، وقد تقوم الكلمة الواحدة فى الحالات القصوى مقام النطق الكامل كما فى الصيحة « حريق » ! وفى هذه الحالة تقوم الحركات الجسمية والتنغيم والموقف اللغوى جميعه بإمدادنا بالأدلة اللازمة للفهم .

فالصوت والكلمة والتركيب النحوى هى الوحدات الثلاث للكلام المتصل . وهذه الوحدات تدخل فى النظام اللغوى الخاص بكل عضو من أعضاء الجماعة اللغوية بعد أن تستخلص من أحداث كلامية لا حصر لها ، سواء كانت هذه

= فى اللغة العربية هى الفتحة والكسرة والضمة قصيرة وطويلة . وهناك نوع ثالث من الأصوات يعرف « بأنصاف أصوات اللين » (semi-vowels) وتتمثل هذه الأصوات فى الياء والواو فى العربية فى مواقع صوتية معينة . (المترجم) .

(١) من وظائف النبر فى اللغة الإنجليزية بيان نوع الكلمة ففى هذا المثال تكون الكلمة إسماً حين يكون النبر على المقطع الأول . وتكون هذه الكلمة نفسها فعلا حين يكون النبر على المقطع الثانى والأخير . (المترجم) .

الوحدات مسموعة أم منطوقة ، وفى الموقف المناسب يستحضر المتعلم هذه الوحدات ويتعرف عليها السامع بسرعة إنعكاس الضوء وإطراده فإذا كان هناك قصور أو تخلف فى هذه العملية كان ذلك دليلا على أحد أمرين : إما أن المثال لم يستقر بعد — أو لم يعد مستقراً — إستقراراً قويا فى نظام اللغة ، وإما أن هناك قصوراً فى معلومات الفرد ، وهذا القصور عادى جداً ، بل هو شيء لا يمكن التخلص منه ، إذ لا يوجد عقل بشرى مهما كان كبيراً — ولو كان عقل العباقرة كشيكسبير — يمكن أن يعى كل الثروة اللفظية للغة الانجليزية بكل مصادرها الضخمة الواسعة .

والثروة اللفظية بهذا المعنى ليست فى الواقع إلا جملة رصيد الألفاظ الجارية بين المتكلمين . ومفردات هذه الثروة متداخلة فيما بينها إلى حد بعيد . ولكنها تتضمن إختلافات مهمة ترجع إلى المزاج الفردى والنشأة والحرفة والبيئة (٩) .

---

(٩) هذا الفصل كله مبنى على أساس أن الكلام الانسانى فى عمومه يتضمن جانبين أو عنصرين مختلفين . أحـــدهما : عقلى جماعى أو إجتماعى ، وثانيهما : مادى فردى . وترجع هذه الفكرة فى جوهرها إلى ذلك المبدأ الذى إبتكره دى سوسير والذى يقضى بالفرق بين ثلاثة مصطلحات وثلاثة مدلولات فى مجال البحث اللغوى . هذه المصطلحات هى : langage أى اللغة بالمعنى المطلق أو الكلام الإنسانى بوجه عام ، و langue أى اللغة المعينة كاللغة الفرنسية أو الانجليزية أو العربية مثلا ، و parole أى الكلام فاللغة بالمعنى المطلق عند دى سوسير عبارة عن الميول والقدرات اللغوية عند الانسان بصفة عامة ، وهى إجتماعية وفردية معاً وهى أيضاً غير متجانسة متعددة الأشكال والأنواع . ودراسة اللغة بهذا المعنى ليست من وظيفة علم معين ، واللغة المعينة langue هى وظيفة جماهير المتكلمين فى البيئة اللغوية المعينة وهى عبارة عن مجموعة من النظم والقوانين اللغوية المخزونة فى عقول هذه الجماهير ، واللغة بهذا المعنى تمثل الجانب الاجتماعى من القضية وهى موضوع البحث فى علم اللغة . أما الكلام فهو وظيفة الفرد المتكلم بالفعل ، وهو عبارة عن الأحداث الصوتية التى يحدثها المتكلم وقت الكلام الفعلى . والكلام شيء فردى . كما

= أنه شيء ثانوي بالنسبة لعلم اللغة ،إذ مكان دراسته في علم النفس. ومن البديهي أن يركز دي سوسير إهتمامه بعد ذلك على التفريق بين اللغة المعينة والكلام . إذ هما الجانبان اللذان يعنيانه . واللذان يكونان كلا لا يختص بدراسته اللغويون ولا غيرهم من العلماء إذ أن هذا الكل شيء مطلق لا وجود له في الخارج بذاته وإنما يتحقق وجوده في عناصره وأجزائه المكونة له ، وتتمثل هذه الأجزاء والعناصر في اللغة المعينة والكلام . وقد تبع دي سوسير في رأيه هذا عدد كبير من اللغويين ، منهم تلميذه تشارلز بييه وبالمسار الانجليزي وكذلك جاردينر الذي ألف كتاباً كاملا بعنوان « الكلام واللغة » sqeech & Longuage . وممن تبعه في ذلك أيضاً أولمان مؤلف هذا الكتاب . ولكن أكثر اللغويين المعاصرين — وفي مقدمتهم أتباع المدرسة الإنجليزية الحديثة بريادة أستاذنا فيرث — لا يرون هذا الرأي ولا يأخذون به . فالتفريق بين اللغة (أي اللغة المعينة) والكلام عندهم ليس له ما يبرره من حيث المنطق والواقع ، إذ هما جانبان لشيء واحد ، أو هما مصطلحان يطلقان على مسمى واحـــد ، وكل منهما اجتماعي وفردي ، كل منهما عقلي ومادي ، وهما متداخلان إلى درجة يصعب معها التفريق بينهما ، فكلام الفرد ليس إلا أسلوبا أو مثلا من كلام الجماعة ، وكلام الجماعة ليس إلا حصيلة كلام الأفراد . كما أن هـذه المدرسة تنكر التفريق بين اللغة والكلام لأسباب منهجية أخرى منها أن هذا التفريق يتضمن أن بعض عناصر الكلام الإنساني عناصر عقلية محضة (وهذه تتمثل في اللغة على الرأي القائل بالتفريق) وبعضها الآخر مادي صرف (وهذه تتمثل في الكلام) . وهذه الثنائية في عناصر الكلام الإنساني لا تعترف بها هذه المدرسة التي تؤمن بأن الكلام (من أي وجهة نظر إليه) وحدة متكاملة الأجزاء والعناصر ولا يجوز الفصل بين جوانبه ومن هذه الأسباب أيضاً أن الفرد — في نظر هذه المدرسة — إنما هو جزء من بيئته وهو ممثل صحيح لها ، وهو في كلامه يراعي - بطريق شعوري أو لا شعوري - النماذج اللغوية التي تعارفت عليها الجماعة ، ومن ثم جاز لنا أن نعد لغته صورة صحيحة للغة الجماعة ، وهي لذلك جديرة بنفسها بالنظر والدراسة . وإذا كان من الضروري أن نفرق بين الجانبين جاز لنا أن نسمي أحدهما « لغة الجماعة » والآخر « لغة الفرد » طبقا للزاوية التي تنظر منها إلى الموضوع . والحق أن =

= دى سوسير فى قوله بالتفريق بين اللغة والكلام متأثر بآراء بعض علماء الإجتماع فى التفريق بين ما سموه « العقل أو الشعور الجماعى » و « العقل أو الشعور الفردى » وهذه فكرة قد تولى الرد عليها كثير من العلماء . من ذلك مثلا ما قرره يسبرسن من أنه لو صح أن كل أفراد المجموعة الاجتماعية الواحدة أو معظمهم فكروا بطريقة واحدة وسلكوا فى الحياة مسلكا موحداً ما جاز لنا أن نقول بوجود عقل جماعى وإنما يمكن أن نقول إن هناك عقولا متعددة يشبه بعضها البعض الآخر ومن ثم فكرت بطريقة واحدة وسلكت فى الحياة مسلكا متشابها (المترجم) .

الفصل الثالث

صورتا اللغة

إن تفوق الكلمة المنطوقة على الكلمة المكتوبة أمر مسلم به ، بحيث لا ينبغي بحال من الأحوال أن يقلل من شأن ذلك الدور الذي تلعبه الطباعة في عالمنا الحديث . وهذا التفوق ليس بحاجة إلى برهان من الناحية النظرية الصرفة . فالكلام أسبق من الكتابة في تاريخ البشرية وفي تاريخ الأفراد كذلك . وبالرغم من وجود أجناس وأشخاص أميين فإنه ليس من الممكن عادة كتابة اللغة القومية دون التحدث بها . ولكننا نلاحظ من جهة أخرى أن إمكانية الصوت الانساني قد ضيقت مجال الكلام تضييقاً بالغاً ، بحيث لم يجد الناس بدأ ـ منذ زمن طويل ـ من استعمال الكتابة كلما احتاج إنسان إلى مخاطبه إنسان آخر غائب أو إلى مخاطبة جمهور كبير متفوق . ومعنى هذا أن دور اللغة في بث الأفكار ونشرها ، وفي التأثير الأدبي والثقافي والتربوي الذي تحدثه خارج فصول الدراسة ـ يكاد يكون مقصوراً على الصورة الكتابية للغة . غير أن إختراعين حديثين ـ وهما التليفون في الاتصال الشخصي والمذياع بوصفه أداة للنشر والإعلام ووسيلة لترويج الأدب ـ قد بدءا يعملان على إعادة التوازن بين الكلمة المكتوبة والكلمة المنطوقة . وأدخلت في الوقت نفسه على كل حال تحسينات فنية كثيرة على الكلمة المكتوبة ـــ في الصحافة بخاصة ـــ حتى أصبح شيوع اللغة المطبوعة في حياتنا العقلية والعامة أمراً ثابتاً لا يقبل المنازعة .

ومن الطريف أن نعلم أن الحروف التي نستعملها في الكتابة وفي الطباعة بكل أنواعها ما هي إلا إمتداد لظاهرة ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ ، بالرغم مما تعرضت له من تبسيط وتكييف لم يبعدا بها عن أصلها الأول .

وفي فجر التاريخ ظهرت الكتابة في أطوارها الأولى في ثلاثة مراكز كبرى من

مراكز الحضارة ، وهى الصين والعراق القديم ومصر . ويرجع نظام الكتابة فى اللغة الإنجليزية إلى الهيروغليفية المصرية التى كانت فى أساسها كتابة تصويرية ؛ أى أنها كانت ترمز بالصور إلى الفكر ، فكانت الرموز تدل على الأشـيـاء لا على الكلمات . وعندما أخذ الساميون هذا النظام فى النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد أدخلوا عليه إبتكاراً مهما ، فأصبحت الرموز المصرية تستعمل فى الدلالة على الصوت الأول من الكلمة السامية التى تعنى الشىء الممثل بالتصوير . من ذلك مثلا أن الكلمة السامية التى تدل على « منزل » هى بيت beth . ومن ثم فقد أخذ الرمز المصرى الذى يمثل « المنزل » ليدل على صوت الباء فى السامية ، وكلمة ألف السامية معناها الثور ، ومن هنا أصبح الرمز الذى كان يعنى « الثور » فى الهيروغليفية يدل على صوت الألف فى اللغة السامية (ولا يزال يوجد شبه حتى الآن بين هذه الألف وبين الحرف الإنجليزى a)[١٠] . وعلى هذا فالكلمة الإنجليزية alphabet — المشتقة من كلمة إغريقية مناظرة مأخوذة بدورها من الإسمين الساميين للحرفين الأولين من الأبجدية السامية — تعنى « ثور — بيت » لو نظرنا إليها من ناحية أصلها واشتقاقها التاريخيين . كما لا يزال الشبه واضحاً بين الحرف الإنجليزى o وبين الرمز المصرى الذى يدل على « العين » . وهذا النظام الكتابى الذى أخذه الإغريق عن الساميين والذى إنتقل إلى الرومان عن طريق الاغريق صار فيما بعد أساساً لا للأبجدية الانجليزية فحسب ، بل وللأبجدية القبائل الألمانية القديمة ، وللأبجدية « السيريلية » التى كان يستعملها السلافيون المنتمون إلى الكنيسة الشرقية ، والتى لا تزال حتى الآن تستعمل فى روسيا وفى غيرها من العالم السلافى[١١] .

يتبين من هذا أن القاعدة الأساسية كانت تخصيص حرف واحد لكل صوت ،

---

(١٠) هذا الشبه واضح من الناحية الصوتية ، وكذلك يوجد بينهما شبه من الناحية الكتابية فيما لو رجعنا إلى تاريخ كتابة الألف السامية . (المترجم) .

(١١) الأبجدية « السيريلية » Cyrillic Script تنسب إلى القديس Cyril الذى يظن أنه مخترع هذه الأبجدية (المترجم) .

ولو أنه من الطبيعى أن هذا الحرف لم يكن يستعمل لكل مثل أو صورة من الصور المختلفة لهذا الصوت [١٢] . وهذه القاعدة التى اتبعت بدقة واطراد كبيرين فى النظم التى ابتدعت فيما بعد للأبجدية الصوتية Transcription ، phonetic ، قد طبقت بصورة أو بأخرى فى بعض اللغات ، كالايطالية والأسبانية والالمانية والروسية ، حيث توصف أبجدياتها بأنها أبجديات صوتية Phonetic alphabets [١٣] .

---

(١٢) المقصود بالصوت هنا ما يطلق عليه فى العرف اللغوى الحديث « الوحدة الصوتية » أو « الفونيم » Phonetic ، وليس المقصود به الصوت المفرد الذى هو صورة أو مثل من الأمثلة المختلفة التى تندرج تحت هذه الوحدة . ويمكن توضيح ذلك بالصوت المعروف فى اللغه العربية بالفتحة مثلا . فهذا الصوت — من حيث كونه يختلف عن الأصوات الأخرى فى الوظيفة كالكسرة والضمة ، بقطع النظر عن السياق والموقع المعينين والذين يمكن أن يستعمل فيهما — يسمى وحدة صوتية أو فونيما . ولكن هذا الصوت نفسه له صور أو أمثلة مختلفة بحسب السياق الصوتى الذى يقع فيه . فهناك مثلا الفتحة المفخمة ، والفتحة التى هى بين التفخيم والترقيق . ومع ذلك فهذا الصوت أو بعبارة أدق ، فهذه الوحدة الصوتية يجوز أن يرمز إليها (بكل صورها) بحرف واحد أو علامة مميزة واحدة (المترجم) .

(١٣) الابجدية الصوتية Phonetic transcription عبارة عن نظام معين من الكتابة يراعى فيه تمثيل النطق تمثيلا واضحا صحيحا . والابجدية الصوتية نوعان : الاولى أبجدية « عامة أو واسعة » broad transcription ، وفيها يخصص حرف واحد فقط لكل وحدة صوتية أو فونيم ، وذلك كتخصيص حرف واحد أو أية علامة مميزة فى اللغة العربية مثـــلا للدلالة على الوحدة الصوتية المعروفة بالفتحة . والابجدية الصوتية الثانية أبجدية « دقيقة أو ضيقة narrow tranacription » ، وفيهـــا يخصص حرف مستقل أو أية وسيلة مميزة لكل مثل أو صورة من صور الوحدة الصوتية التى تتعدد بتعدد السياق والموقع وذلك كأن تخصص ثلاثة أحرف مختلفة أو ثلاث وسائل مميزة للأصوات المفردة الثلاثة التى تندرج تحت الفتحة (انظر الملحوظة السابقة) . والابجدية الصوتية بنوعيها يقصر استعمالها عادة على

ولكن هذا النظام لم يطبق فى اللغة الانجليزية والفرنسية والايرلندية ، حيث تكتب كلماتها لا كما تنطق اليوم ، بل كما كانت تنطق منذ مئات السنين . فالهجاء الانجليزى الحالى مثلا ما هو إلا إنعكاس صادق إلى حد بعيد للنطق أيام تشوسر . فنحن لا نزال نكتب كلمة book بإثبات oo ، وذلك لانها كانت تنطق بالحركة o الطويلة حوالى سنة ١٤٠٠ ميلادية ، بالرغم من أن هذه الحركة قد تطورت إلى u بعد ذلك بقليل [١٤] .

= البحوث العلمية وما شابهها كالدراسات الخاصة بتعليم اللغات الاجنبية . وهى تختلف عادة فى نظامها عما يعرف بالابجدية الاملائية orthogrophy . وهـــذه الاخيرة عبارة عن ذلك النظام من الكتابة الذى يستعمل فى الكتابة العادية فى الحياة العامة . والأبجدية الإملائية يشترط فيها هى الأخرى تمثيل النطق تمثيـــلا صحيحاً ، ولكن المشاهد الملحوظ أن أكثر الأبجديات لا تراعى هذا المبدأ أو لا تحافظ عليه وذلك لأسباب كثيرة منها : (١) أن إستعمال هذه الأبجديات الاملائية فى بيئات لغوية واسعة يجعل من الصعب ـ بل من المستحيل ـ عليها أن تمثل النطق تمثيلا دقيقاً ، وذلك بسبب تنوع النطق واختلافه اختلافاً كبيراً بين أفراد هذه البيئات . (٢) قد يراعى مبدأ تمثيل النطق فى هذه الأبجديات فى أول الأمر . ولكنها بمرور الوقت لا تقوى على مقابلة حاجة النطق مقابلة دقيقة ، بسبب التطور السريع الذى يلحق بأصوات اللغة ، مع بقائها هى فى صورتها القديمة . وقد يضطرنا الأمر حينئذ إلى العمل على إصلاحها حتى تقابل النطق المتطور . والابجدية الاملائية التى تراعى النطق ، تعمل على تمثيله تمثيلا صحيحاً توصف ـ عادة ـ بأنها أبجدية صوتية : Phonetic alphabet . وتعد الابجدية الاملائية للغة العربية من الابجديات الصوتية . وذلك لأن هذه الابجدية ـ فيما لو قورنت بغيرها من الابجديات ـ تشتمل على نظام دقيق للكتابة من شأنه أن يمثل النطق تمثيلا صحيحاً إلى درجة كبيرة ، بالرغم من أنها لا تطبق تطبيقاً كاملا فى بعض الحالات ، كما فى نحو الرحمن ، هذا ، داود الخ . لكن هذه الحالات محدودة يمكن إدراكها بسهولة .

(١٤) الحركة o الطويلة تشبه الضمة الممالة التى تظهر فى نحو كلمة (يوم) العامية . أما الحركة u فهى تمثل الضمة القصيرة التى تظهر فى نحو (خذ) مثلا (المترجم) .

... فإذا ما أهملنا المبدأ الصوتي في الكتابة وطرحناه جانباً ، فإن الطريق أمامنا سوف يصبح مليئاً بكل أنواع الصعوبات والتعقيدات . وهذا هو ما حدث بالفعل للنساخ أنصاف المتعلمين الذين يعتبرون مسئولين عن كثير من الأوهام في الهجاء الإنجليزي . إنهم هم الذين دسوا الحرف b في الكلمتين doubt و debt بالرغم من أنهما منحدرتان عن الكلمتين الفرنسيتين dette و deuter . لا عن الصيغتين اللاتينيتين debita و dubirare . كما أن القياس الخاطىء قد أدى إلى إقحام الحرف s في الكلمة الإنجليزية island مع أنها كلمة سكسونية قديمة لم تشتمل في وقت من الأوقات على هذا الحرف ، كما يدل على ذلك مقابلها الألماني Eiland ولكن هذه الكلمة الإنجليزية قد اختلطت في مرحلة معينة من مراحل تاريخها بمرادفها isle المأخوذة عن الكلمة الفرنسية القديمة isle (وفي الفرنسية الحديثة ile) التي ترجع بدورها إلى الكلمة اللاتينية imsala . وهذا النوع من القياس مألوف جداً في تاريخ كل اللغات ، ولكنه لا يستطيع تغيير الصيغة المكتوبة دون تأثير على النطق الفعلي إلا في اللغات ذات الأبجديات غير الصوتية فقط .

وفي حالات أخرى ، قد تتأثر الكلمة المنطوقة نفسها بمقابلها المكتوب . مثال ذلك الكلمة الانجليزية : author فالحرف h لم يكن موجوداً في الكلمة الفرنسية auctor التي هي المصدر المباشر للكلمة الانجليزية ، ولا في اللاتينية antenc التي هي المصدر الاصلي لها . أما الصيغة التي تشتمل على th فلم تكن في بادىء الامر إلا تنويعاً كتابياً لهذه الكلمة ، منحها مظهراً إغريقياً زائفاً ، وفي نهاية الامر . طابق النطق صورة الكتابة ، ونتج عن ذلك صوت الثاء الموجود بها الآن . وعلى العكس من ذلك قد يتوقف التطور الطبيعي أو يتأخر عن طريق التأثر بنظام الكتابة المحافظة . فليس هناك ما يمنع من القول بأنه كان من الممكن أن تنطق الكلمة : assume مثلا بصوت الشين كما هو الحال في assure ، لا بصوت السين متبوعاً بالياء ، لو لم تمنع الصيغة المكتوبة هذا التطور .

ولقد تعرض نظام الكتابة في كثير من بلاد العالم لنوع من الاصلاح والتحسين . أما في اللغة الانجليزية فإن عدم وجود نظام ثابت في الكتابة قد وصل إلى درجة تستدعي إصلاحاً مناسباً معقولا . بل إن هذا الاصلاح أصبح – في الواقع – أمراً لا مفر منه على مر الايام . وقد جرت مناسبات كثيرة حول الآراء المؤيدة

والمعارضة لإحداث ثورة شاملة فى نظام كتابة اللغة الإنجليزية . وقد كان التحمس الشديد الذى أبداه برنارد شو إزاء ضرورة القيام بتعديلات جوهرية فى نظام كتابة هذه اللغة الفضل الكبير فى مناقشة هذه القضية بالبرلمان حديثاً ، وفى أن الاقتراح الذى ينادى بالإصلاح كاد يحظى بالموافقة ، لولا توقف عدد قليل جداً من الأصوات فى طريقه . وبالرغم من هذا كله ، فإن المشتغلين بالدراسات اللغوية لا ترتاح نفوسهم إلى مثل هذه الخطط « الاصلاحية » ، وذلك لاعتبارات عدة يدركونها جيداً .

فهناك أولا العامل الجغرافى : من المعروف أن اللغة الانجليزية لغة واسعة الانتشار إلى أقصى حد وتشتمل على عدد من اللهجات والصور الكلامية الاقليمية فى الجزر البريطانية نفسها ، هذا إلى جانب ما تتضمنه من اختلافات أعمق وأبعد مدى فى بلاد الكومنولث وفى الولايات المتحدة . وبالرغم من أن نظام الكتابة فى هذه البلاد الأخيرة قد خضع لنوع من التبسيط ، فإنه لا يزال حتى الآن شديد الصلة بالنظام المتبع فى بريطانيا ، ولنا أن نسأل : ما الأساس الذى يمكن أن يعتمد عليه نظام الهجاء الجديد إذن ؟ هل من الممكن أن يوجد أساس واحد فقط ؟ إن الامكانية الأخرى — وهى اتباع عدة نظم على أساس إقليمى — سوف تكون ضربة قاضية على وحدة اللغة . ولقد أمدتنا الصين بمثال غاية فى الأهمية ، يوضح لنا دور الكتابة بوصفها عاملا من عوامل التماسك اللغوى فهناك فى هذه البلاد لا يستطيع كثير من المتكلمين باللهجات المختلفة أن يتصل بعضهم ببعض أو أن يتفاهموا إلا بطريق الكتابة التقليدية .

هذه المناقشات التى تولدت عن العامل الجغرافى تعززها مناقشات أخرى مستمدة من عامل الزمن . ويتضح ذلك من تساؤل الأستاذ ل . ر . بالمار ، حيث يقول : « بأى نظام من نظم الكتابة يجوز لنا أن نطبع روائع الأدب الانجليزى؟ إن تطبيق النطق الحديث على آثار شيكسبير مثلا لن يكون إلا تزييفاً للحقائق . وإذا خصصنا نظام الكتابة القديم لمثل هذه الآثار ثم طبقنا النظام الجديد على المتون الحديثة ، وعلمناه بالمدارس الابتدائية ، فإن الأدب الانجليزى سوف يصبح بعيد المنال على كل من ليس لديه الوقت والصبر لان يتعلم نظام الكتابة القديم » .

وأخيراً : هناك فى بنية اللغة الإنجليزية نفسها من الخصائص ما يقف حائلا دون أى إصلاح جوهرى فى نظام الكتابة . إنه ليس من محض الصدفة أن تصر بعض اللغات — كالإنجليزية والفرنسية والصينية — على التمسك بطريقتها العتيقة فى الكتابة بصورة أقوى وأشد من اللغتين الألمانية والإيطالية . فهذه اللغات تطورت بأقصى سرعة وتعرضت لأعنف صور النحت الصوتى ، وما إن طرحت بعيداً عدداً كبيراً من مقاطعها غير المنبورة أو اختصرتها حين ولدت مجموعة أساسية من الكلمات القصيرة ذات المقطع الواحد . وهذا واضح بصورة تلفت النظر فى اللغة الصينية . ولكن هذا الإتجاه نفسه موجود فى اللغتين الإنجليزية والفرنسيه أيضاً ، وكلما إزداد عدد الكلمات القصيرة فى لغة ما كانت فرصة وجود المشترك اللفظى أعظم ، أى وجود كلمات مختلفة المعنى متحدة الصوت ، ومن هنا كانت اللغتان الإنجليزية والفرنسية معرضتين — إلى حد بعيد — للغموض الناشىء عن الاشتراك اللفظى . غير ان إمكانيات الغموض هذه مقصورة فى حالات كثيرة عن اللغة المنطوقه . يرجع الفضل فى ذلك إلى نظام الكتابة فى هاتين اللغتين . ومن ثم لا يمكن أن يقع خلط من حيث الصورة الكتابية بين a nightly ride و a knightly ride أو بين his gait و his gaie الخ (١٥) . ومن الثابت أن هناك نوعا فريداً من التوازن الدقيق بين مختلف دوافع التطور الصوتى وبين اتجاهات النبر فى نظام أية لغة . فأى إصلاح فى نظام الكتابة يغفل هذه الحقائق لابد أن يفسر هـــذا التوازن .

(١٥) nightly و Knightly تنطقان بصورة واحدة ويمكن توضيح ذلك بالكتابة الصوتية هكذا ، naitli وكذلك يتحد النطق فى gate و gait ، وصورتهما الصوتية هى geit . ويتضح من هذا أنه قد يقع خلط بين هـــذه الكلمات فى الكلام المنطوق ، كما قد يحدث غموض ناشىء عن هذا الاشتراك اللفظى . أما فى الكتابة فلا خلط ولا غموض . حيث أن كل كلمة لها صورتها الكتابية الخاصة بها وتشير مثل هذه الحالات إلى أهمية الإحتفاظ بطريقة الكتابة التقليدية فى اللغـــة الإنجليزية (المترجم)

ومع ذلك، فإن وجود صورتين للكلمة — إحـــداهما منطوقة والأخرى مكتوبة — يعقد طبيعة الكلمات من وجوه عدة، بل إن رموز الكلمات نفسها تصبح أكثر تعقيداً. ذلك بأنه إلى جانب الانطباعات الصوتية المختلفة التى تتركها الكلمة المنطوقة يجب أن تضاف الصور البصرية لشكلها المكتوب، كما تضاف إليها مجموعة اخرى من إنطباعات الحركة، وهى الإنطباعات التى تتضمنها عملية الكتابة (والكتابة على الآلة الكاتبة والاختزال .. الخ) وللكتابة أيضاً تأثير جوهرى على اختيارنا للكلمات، إذ أنها تتضمن مستوى مختلفا من التعبير اللغوى والكتابة — حين تقارن بالكلام المنطوق — تعد وسيلة أكثر احتواء على العناصر الذهنية والعقلية. وهى تقوم بوظيفتها خالية من وسائل التعبير الفنية الموجودة فى الصوت الانسانى، كما تقوم بهذه الوظيفة دون مصاحبة حركات الوجة والاشارات الجسمية الأخرى.

كما أن التنغيم والايقاع لا يمكن التعبير عنهما فى الكتابة إلا بصورة ناقصة بوساطة أساليب الترقيم ووضع الخطوط تحت الكلمات، أو أية وسيلة أخرى من الوسائل الخاصة بالطباعة. والكتابة فى الوقت نفسه أسلوب من أساليب التعبير الأكثر دقة وأناة، ومن الممكن محوها أو اســتبدالها أو تحسينها ودوامها الذى يمنحها — على الأخص فى صورها المطبوعة المتنوعة — مكانة ممتازة من شأنها أن تؤثر على الأغلبية من القراء العاديين، بالرغم من أن إستخدام « جهاز الإملاء » dictaphone قد يتحدى خاصية الدوام هذه إلى حد ما. وهى — سواء من حيث الألفاظ التى تستعملها أم المعانى التى تستخدمها — تتضمن عناية وإعمالا للذهن أكثر مما يحتاجه الكلام المنطوق الذى هو انبعاثى وتلقائى فى أساسه، ومن هنا كان الرقى النسبى فى الأسلوب الخاص بالكتابة. أضف إلى ذلك أن الكتابة لها اصطلاحاتها الخاصة وصيغها التقليدية، كالعبارات التى تختتم بها العبارات مثلا، كما أنها تستخدم كلمات وأساليب نحوية، يعد إستعمالها حذلقة فى الكلام المنطوق. ومن الطبيعى أن تكون هناك حالات كثيرة مشتركة بين الكتابة والكلام .. فبعض أساليب الكتابة قريبة الشبه جداً بالكلام الدارج، كما أن بعض صور التعبيرات التقليدية فى الكلام المنطوق لها مسحة أدبية راقية الأسلوب. ولقد لاحظ شيشرون

من قبل أن مرافقات الحاكم تستخدم لغة رقيقة منمقة بينما تكتب الرسائل الشخصية بالأساليب الدارجة فى الحياة اليومية . ومهما يكن من أمر ، فإن الكتابة من شأنها أن تخلق نماذج من التعبير أرق من نماذج الكلام ، ولقد كان لها تأثيرها الواضح فى هذا الشأن فى كل عصور التاريخ ولقد اخترعت الكتابة أول الأمر على يد السلطات الدينية . وكانت هذه السلطات أيضاً أول من مارسها (والمعروف أن كلمة هيروغليفى معناها « النقش المقدس » فى اللغة اليونانية) . وقد ظلت الكتابة محتفظة — إلى حد ما — بهذا الأصل البعيد الخاص بها طول مدة تطورها البالغة ستة آلاف عام .

الفصل الرابع

الكلمة

الكلمة — كما رأينا — هى أصغر وحدة ذات معنى للكلام واللغة ، بيد أنه ليس هناك تعريف وحيد أو تعريف جامع مانع لمثل هذا النوع من المصطلحات المجردة ، فهى مصطلحات يصعب تعريفها وإن كان من السهل عادة التعرف عليها . ولقد اقترحت عبارات فنية شتى يقصد بها إلى بيان بعض الجوانب الأساسية للكلمة . فهناك من العلماء من يهتم بوظيفتها بوصفها وحدة المعنى، ومنهم من يعدها « أصغر صيغة حرة » (وهذه عبارة بلومفيلد) ، ويعنى هؤلاء بذلك (كما صرح ل . ر. بالمار) « أنها أصغر وحدة كلامية قادرة على القيام بدور نطق تام » ، كما فى مثالنا السابق : « حريق ! » . ومدرسة فكرية ثالثة تفضل معنى الكلمات بأنها مقابلات استدلالية Substisution Counters (وهذا رأى ج . ر. فيرث) ؛ وفى هذه الحالة يكون تناظر الأصوات هو الفيصل فى الأمر . وتوضيح ذلك مثلا أن استبدال الأصوات ذات الصفات المميزة بغيرها ، أو إضافة هذه الأصوات أو حذفها يؤدى إلى وجود كلمات جديدة . وعلى هذا النحو ، يؤدى تغيير أى عنصر من عناصر الكلمة pin مثلا إلى صيرورتها pit, pan, bin والإضافة إليها تصيرها spin ، وأما الحذف فيحولها إلى in وهكذا.[16] . وبهذه الطريقة نفسها « يؤدى تغيير المكانات إلى تغيير مضمون التراكيب أو الجمل التى تشتمل

---

(١٦) اللغة الإنجليزية من اللغات التى يسهل فيها تطبيق نظرية « الاستبدال » بين الأصوات بالطريقة الموضحة بالأمثلة المذكورة على أنه من الممكن إيراد أمثلة لهذا النوع من « التقابل الاستبدالى » فى اللغة العربية نحو : قال ، جال ، قيل قاد ، حيث استبدل صوت واحد بصوت آخر فى كل كلمة . أما الزيادة فيمثل لها بنحو أقال والنقص بنحو لَ (المترجم) .

عليها . فالجملة : « هو كتب كتاباً جيداً » ، قد تتحول إلى « هى كتبت كتاباً جيداً » ، « وهى قرأت كتاباً جيداً » ، « وهو كتب قصة جيدة أو « هو كتب كتاباً رديئاً » . وهكذا الشأن حين تضاف بعض الكلمات كما فى « هو لم يكتب كتاباً جيداً أبداً » أو حين تحذف نحو « هو كتب كتاباً » الخ .

وبالرغم من أن المتكلم العادى — كما هو المفروض — لا يعرف كل هذه القضايا ، فهو مع ذلك شاعر بالكلمات ومدرك لها إدراكاً قوياً ، ذلك بأن الكلمات منطوقة ومكتوبة — تتمتع بقوة خفية غامضة منذ أقدم أيام التاريخ المعروف . إنها مثلا تستغل فى كل أنواع الرقى وتعاويذ السحر ، وتقديها بها الناس فيعمدون إلى تحريم استعمالها أو إلى تضييق مجال هذا الاستعمال، كما سنبين فى الفصل الخاص «باللامساس» taboo [17] . وهذا الوضع ليس مقصوراً بحال من الأحوال على الجماعات البدائية . بل إنه لا يزال ينعكس فى عاداتنا الخزعبلية ، وفى خرافاتنا اللغوية الأخرى كما ينعكس أيضاً فى ذلك الأسلوب الكلامى المسمى «حسن التعبير» euphemism وفى إحجامنا عن أن نقول « للأعور يا أعور » مثلا . وهذا يفسر اعتقادنا الضمنى الساذج بأن الأشياء المجردة - التى هى فى الواقع من صنع الإنسان - لها وجود حقيق : ذلك الاعتقاد الذى يتمثل فى تلك الفكرة البغيضة المعبر عنها « باستبداد الكلمات tyranny of words والتى يعمل على مقاومتها علم المعنى العام والحق أن الغموض الذى يكتنف الكلام فى كل مجالات الحياة قد وجد دافعاً قوياً من التعاليم الدينية ، ويظهر ذلك بوجه خاص من السطور الافتتاحية لإنجيل يوحنا.

« فى البدء كان الكلمة ، والكلمة عند الله ، وكان الكلمة الله . . أما أن هذا القديس كان يعنى نسبة قوة إلهية إلى الكلمة فهذا أمر ربما يكون مشكوكا فيه ، إذا أن الكلمة الإغريقية التى استعملها — وهى Logos — كلمة غامضة إلى أبعد حد ، كما أن لها أكثر من معنى ، فهى قد تعنى : « تقدير مغزى ، معنى أو منطق » ولكن ترجمتها بالكلمة اللاتينية verbum هى التى صبغت الموضوع بصبغة لغوية

---

(١٧) أنظر ص ١٧٤ (المترجم) .

بصفة قاطعة . ومن الملاحظ أن جوته عندما ترجم هذا الإنجيل نفسه على لسان فاوست كان متردداً فى قبول هذه النظرة التقليدية وفى إعطاء الكلمة مثل هـــذه الأهمية البالغة ، ونراه بعد محاولته ترجمتها بالكلمتين « معنى » و « قوة » يلجأ فى النهاية إلى تفسيرها « بالعمل » .

وهناك من الشعراء من هم أقل حذواً فى نظرتهم الدينية إلى الكلمة . شيلى مثلا يرى أن : « أن اللغة لحن خالد ساحر كألحان أورفيوس[18] ، لحن يسيطر — بانسجام فنى رائع — على الأفكار والأجسام التى لولا اللغة ما كان لها معنى أو كيان » .

أما فيكتور هوجو فيردد صدى الإنجيل نفسه قائلا : « لأن اللفظ هو الكلمة والكلمة هى الله » .

على أن التفكير الحديث أصبح يتملك شكا متزايداً فى الأشياء المجردة تجريداً عالياً ، ذلك بأنه لا توجد — فى أغلب الأحايين — أشياء واقعية من أى نوع تكمن خلف العلامات والرموز . أما فيما يختص بالاعتقاد السائد بأن الكلمة نوعا من الكيان المستقل فعلى اللغوى أن يبين لنا ما إذا كانت - وإلى أى حد تكون - الكلمات عناصر مستقلة استقلالا ذاتيا وقائمة بنفسها ، أو أن مكانتها الممتازة التى تتمتع بها فى حياتنا إنما ترجع فقط إلى التقاليد وقوة العادات .

هذه المشكلة من الممكن تناولها من جوانب عدة : من الجائز مثلا النظر إلى الكلمة على أنها سلسلة من الأصوات ، أو على أنها عنصر نحوى أو وحدة من وحدات المعنى ، وحينئذ تبرز مشكلة الاستقلال هذه فى صور مختلفة تبعاً للحالة الخاصة . أما من الناحية الصوتية فغالباً ما تفقد الكلمة جزءاً واحداً على الأقل

---

(١٨) أورفيوس Orpheus شخصية اشتهرت فى الأساطير الإغريقية القديمة بالبراعة والروعة فى الموسيقى ، لدرجة أن هذه الموسيقى كانت « تبهر الحيوانات المتوحشة ، بل والأشجار والأنهار وتجذبها جذبا إلى الاستماع إليها والتمتع بها » . (المترجم) .

من كياناتها فى أثناء الكلام المتصل ، فهناك بعض الكلمات التى قد يصيبها البتر فى بعض الأحايين (كما فى do not التى تصبح don't) ، كما توجد كلمات أخرى يتدخل بعضها فى بعض ، مكونة مجموعة واحدة دون فاصل حقيقى ، هذا النوع من التداخل له آثاره التى قد تصل إلى نظام اللغة نفسه وتؤثر تأثيراً دائماً من ذلك مثلا أن اللغة الفرنسية — وكذلك بعض اللغات السلتية (١٩) — توجد بها كلمات تختلف صيغها باختلاف سياقها الصوتى فبينما لا ينطق الحرف S الموجود فى نهاية الصورة الكتابية لأداة التعريف الموجودة فى التركيب les femmes . نجد أن الحرف نفسه ينطق فى التركيب الآخر : Les hommes وقد تتداخل الكلمتان تداخلا قوياً بحيث تزول الحدود من بينهما تماما ، كما فى te don بدلا من to do on و to doff بدلا من to do off (to) atone, التى ترجع إلى at one (٢٠) .
وقد يؤدى الخطأ فى تحليل الكلمات إلى نزع صوت من كلمة وإضافته إلى كلمة أخرى تجاورها مباشرة ، وهذا ظاهر فى أداة التنكير فى اللغة الإنجليزية ، حيث تتعرض هذه الأداة بصفة خاصة لهـــذا النوع من التحليل مثل ذلك : an apron التى

(١٩) اللغات السلتية (وتنطق السكلتيـــة أيضا) Celtic languages هى مجموعة من اللغات التى تنتمى إلى فصيلة اللغات الهندية الاوروبيـــة Indo-European Languages . واللغات أو اللهجات السلتية كثيرة منهـا اللغة « الجـالية الإيرلندية » Irish Gaelic و « الجالية الأسكوتلاندية » Scottish Gaelic . والبريطانيـــة القديمة Critish وما تفرع منها كلغة ويلز Welsh الخ (المترجم) .

(٢٠) يمكن أن يمثل لهذا التداخل فى اللغة العربية بنحو الأمثلة العامة : « ليش » (فى بعض اللهجات الدارجة) التى قد ترد إلى « لأى شىء » ، « وعقبالك » التى أصلها « عقبى لك » ، و « منين » التى تعود إلى « من أين » . وقد يكون من ذلك أيضاً نحو : منذ على القول بأنها مركبة من : « من + إذ » (بمعنى وقت) ، و ليس التى يقال أنها مركبة من ل + فعل سامى قديم بمعنى « وجد » وينطق « ييش » (المترجم) .

naperon تطورت عن : a napron — وهى فى اللغــــة الفرنسية القديمة و na adder التى انحدرت عن : a nadder و an anqer التى ترجع إلى a manqer و oniumpis التى أصلها a numpir . وهى الفرنسية القديمة nomper بمعنى « منقطع النظير غريب الأطوار » . فى كل هذه الأمثلة السابقة ، نلاحظ أن الصوت n فى أول الكلمة التالية لأداة التنكير قد عومل على أنه جزء من هذه الأداة . وقد حدث العكس فى a newt التى انحدرت عن : an ewt وفى a nickname التى ترجع إلى an ekeame ، حيث نجد صوت n فى أداة التنكير قد أضيف إلى الكلمة التالية لها . وهناك تطور مشابه لذلك يعد مسئولا عن العبارة : for the nonce التى كانت for then once فى مرحـــلة تاريخية سابقة .

كل هذه الأمثلة — بالإضافة إلى نتائج بحوث معامل الأصوات — تدلنا على أن الكلمة ليست دائماً وحدة صوتية للكلام المتصل ، ولكنها مع ذلك تحتفظ بذاتيتها الصوتية فى ذهن السامع ضمن الإطار لنظام اللغة[٢١] . وهناك وسائل دقيقة شتى يمكن بوساطتها التعرف على حدود الكلمة . ومن ذلك مثلا النبر الذى يحتل مكاناً ثابتاً من الكلمة فى بعض اللغات . فالقاعدة فى اللغة الفرنسية — حيث لا تحظى الكلمة المفردة إلا بقدر بسيط من الاستقلال الصوتى — أن النبر يقع على المقطع الأخير . وهذه هى الحال إذا كان هناك نبر على الإطلاق ، ولكن هذا النبر قد ينتقل إلى أول الكلمة تحت تأثير العاطفة والانفعال . وفى اللغتين الفنلندية والمجرية يقع النبر دائماً على المقطع الاول ، ومكانه فى اللغة البولندية هو المقطع قبل الأخير من الكلمة . أما اللغة اللاتينية فلها قوانين أكثر تشعباً ، لكنها مع ذلك قوانين مطردة .

---

(٢١) يتضح من كلام المؤلف هنا أنه يربط مسألة كيان الكلمة واستقلالها أو عدم استقلالها بمبدأ لغوى مهم عنده وعند من نهجوا نهجه . وذلك المبدأ هو التفريق بين ما سموه « الكلام » speech وما سموه « اللغة » language . فهو يرى أن الكلمة فى الكلام — أى فى الأحداث الصوتية الصادرة بالفعل من =

فى كل هذه اللغات وأمثالها ، يرشدنا النبر بطريق ضمنية إلى بداية الكلمات ونهايتها ولكن مبدأ الاعتماد على النبر لا يمكن تطبيقه على اللغة الانجليزية ، حيث إن هذه اللغة لا يوجد فيها نظام ثابت للنبر . ومن ثم كان من الممكن استغلال النبر فيها كوسيلة من وسائل التمييز بين نوع الكلمات ، كما فى record, reco. d مثلا (٢٢) . ولكن اللغة الانجليزية لها مقاييس أخرى تفيد فى هذا الشأن : من ذلك مثلا استحالة وقوع مجموعات معينة من الأصوات الساكنة (٢٣) فى أول الكلمات ، وإن جاز وقوعها فى وسطها . وعلى هذا لا توجد كلمة فى الانجليزية تبدأ بالصوتين — kn أو — gn مجتمعين بالرغم من أن الطريقة التقليدية المتبعة فى الكتابة تشير إلى أن كلا من الصوتين — k أو — g كان ينطق فى مرحلة تاريخية سابقة : وكذلك تخلصت اللغة الانجليزية حديثاً من اجتماع الصوتين — ps فى أول الكلمات ، ولذلك لا ينطق الصوت p فى الكلمتين Psychology و Psendo (٢٤) .

= المتكلم الفرد — قد تفقد أحياناً ذاتيتها واستقلالها الصوتيين ، ولكنها فى اللغة تحتفظ دائماً بصورتها الصوتية المخزونة فى ذهن الجماعة اللغوية المعينة ، انظر الكلام واللغة ، ص ٢٨ وما بعدها (المترجم) .

(٢٢) record منعزلة عن سياقها قد تكون اسما وقد تكون فعلا . فهى اسم إذا كان النبر على المقطع الأول ولكنها فعل إذا كان النبر على المقطع الثانى والأخير (المترجم) .

(٢٣) انظر ص ٣٠ (الملحوظة (٧)) لمعرفة معنى الصوت الساكن (المترجم) .

(٢٤) يجب أن نؤكد أن الكلام هنا منصب على النطق فقط ، ولا عبرة بطريقة الكتابة فى هذا المقام ، ولتأكيد هذا المعنى استعمل المؤلف كلمة sound التى ترجمناها ، بصوت ، منعاً للبس وليكون الأمر نصاً فى النطق ، فالصوتان الممثلان كتابة بالمجموعة — kn فى نحو knight مثلا لا ينطقان هنا ، وإن كانا مسجلين فى الكتابة . الذى ينطق هنا إنما هو صوت n فقط ، ، وهكذا الحال فى بقية الأمثلة (المترجم)

يتضح من كل هذا إذن أن الذاتية الصوتية للكلمة متحققة وثابتة بصورة قوية إذا نظرنا إلى الموضوع من ناحية اللغة ، ولكن الذاتية غالباً ما تذوب وتختفى فى الكلام المتصل ، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة .

أما من الناحية الصرفية والنحوية فقضية استقلال الكلمة تواجهنا بعدد من المشكلات ، أهمها تلك المشكلة التى تتصل بكيان الكلمات المتصرفة فلسائل أن يسأل : هل give, gives, gave, given كلمة واحدة أو خمس ؟ الواقع أن هذا السؤال إنما يرجع آخر الأمر إلى اصطلاح . فالمعاجم الإنجليزية بوجه عام تعاملها على أنها صيغ مختلفة لكلمة واحدة فى حين أنها تعامل المشتقات : lead, leader, leade ship على أنها كانت مستقلة . وهذا أمر منطقى فى الواقع ، إذا أخذنا فى الحسبان أن ، السوابق واللواحق الاشتقاقية[٢٥] تغير معنى الكلمة ، بينما يقتصر عمل عناصر التصريف على تعديل الوظائف النحوية للكلمة .

أو بعبارة أخرى ، إن هذه العناصر وظيفتها بيان ما إذا كانت الكلمة مفردا أو جمعا مثلا أو أنها فعل يدل على الماضى أو الحال وهكذا[٢٦] . ومهما يكن من

---

(٢٥) انظر ص ١١ — ١٢ (الملحوظه (١)) لمعرفة معنى السوابق واللواحق (المترجم) .

(٢٦) يبدو من كلام المؤلف أنه نظر إلى أمثلة المجموعة الأولى على أنها فعل واجد ، غير أن هذا الفعل ظهر فى صيغ مختلفة بطريق التصريف الداخلى الذى عدل وظيفة الصيغة ، ولكنه لم يمنحها معنى مستقلا خاصاً بها . أما صيغ المجموعة الثانية فهى فى نظرة كلمات مستقلة ، إذ أن الصيغة الأولى فعل والثانية اسم والثالثة مصدر . وهذا الاستقلال — بالرغم من رجوع الصيغ جميعاً إلى أصل واحد — ناتج عن إضافة اللواحق (كما فى leader بمعنى قائد و teadership بمعنى قيادة) التى غيرت المعنى الأصلى للكلمة ، وفرعته إلى صور مختلفة . أى أن كل صيغة أصبح لها معنى مستقل ، ومن ثم فهى كلمة مستقلة . وهذا معناه فى الواقع أن المؤلف بنى كلامه على أساسين أثنين . الأول : إمكانية ضم الصيغ كلها تحت باب واحد من أبواب الصرف والنحو (كالأفعال أو الأسماء مثلا) أو عدم

أمر فإن هناك صلات ترابطية قوية بين أفراد كل مجموعة من مجموعات هذين النموذجين : صلات تبرر بصورة قوية جواز معاملة كل سلسلة منها على أنها وحدة عضوية متكاملة . وقد يذهب بنا البحث إلى أبعد من هذا بكثير فى هذا المجال .

إمكانية ذلك . الثانى : استقلال المعنى أو عدم استقلاله . ونحن لا نوافق المؤلف على أى من الأساسين . أما استقلال المعنى أو عدم استقلاله فقد يكون أساساً مناسباً للتفريق بين المجموعتين لو كنا ننظر إلى الصيغ من الناحية القاموسية ، لا من الناحية الصرفية والنحوية . وأما إمكانية ضم جميع الصيغ إلى باب واحد أو عدم إمكانية ذلك فهذه نظرية تدين بفكرة الأصل والفرع ، والفكرة التى تتضمن أن هناك أصلا واحدا فقط تفرعت عنه بقية الصيغ مع شىء من التعديل والتغيير فى صورها ، وهذه فكرة لا تعترف بها الدراسات الوصفية الحديثة فى البحوث اللغوية . والرأى عندنا أن كل صيغة فى كل من المجموعتين كلمة مستقلة من الناحية الصرفية والنحوية ، إذ أن لكل منها خصائصها ووظائفها المعينة . من ذلك أن كل صيغة فى الأمثلة المذكورة تختلف عن صاحبتها فى الشكل والصورة وهذه خاصة صرفيه تعطى الصيغة نوعا من الاستقلال الصرفى الذى تكمله وتؤكده الخصائص النحوية الممثلة فى اختلاف وظائف الصيغ فى التراكيب ، ومما يؤيد ذلك أنه لا يجوز استعمال صيغة مكان أخرى فى جملة بعينها فى الموقف الواحد وهذا كله دليل الاستقلال فى المميزات والخصائص . كما أنه دليل الحكم بأن كل صيغة كلمة مستقلة . أما إمكانية ضم جميع صيغ المجموعة الأولى إلى باب الأفعال فلا تستلزم أن تكون كل هذه الصيغ كلمة واحدة . إن هذا الضم فى الواقع فيه تجوز وتبسيط كبير للأمور ، إذ من البديهى أن كل صيغة تنتمى إلى نوع معين من الأفعال ، فصيغة منها فعل ماض وأخرى فعل مضارع وهكذا . وهذا الفرق النوعى هو فى حقيقة الأمر الأساس الذى يجب أن نأخذ به فى هذا المجال . لأنه يعتمد على خصائص الصيغة المعينة ذاتها لا على خصائص أصلها أو ما تفرعت عنه . ويجدر بنا أن نذكر أيضاً أن كل ما قلناه هنا خاصاً بتلك الأمثلة الإنجليزية نرى تطبيقه على ما يناظرها فى اللغه العربية . وعلى هذا فكل صيغة من المجموعة : =

فهناك بعض المجموعات التى تتألف كلماتها لا من أصل واحد ، بل من أصلين إثنين أو أكثر كما فى الأمثلة الإنجليزية go-went (ذهب — يذهب) و good-Bettet (حسن — أحسن) الخ . وهناك عدد ليس بالقليل من أكثر الأفعال والصفات شيوعا فى معظم اللغات يتبع مثل هذه النماذج المتداخلة . ومن الواضح أنه من الخطأ أن تتكلم فى مثل هذه الحالة عن كلمة واحدة ، إذ الواقع أن هناك عدداً من الكلمات تتضمنها كل سلسلة من هذه الأمثلة . غير أن هذه الكلمات جميعاً تكون فيما بينها مجموعة واحدة لها خصائصها ومميزاتها الصرفية والنحوية .

وهناك عامل آخر من عوامل تهديد استقلال الكلمة من الناحية الصرفية والنحوية . هذا العامل يرجع إلى الطبيعة الثنائيــة للكلمات ، قارن مثلا الكلمات « شارع ، يكتب ، خمسة ، طويل ، أجمل » بالصيغ : « هو » ، واو العطف ، هناك ، أداة التعريف ، وسوف . من الواضح أن الكلمات فى المجموعة الأولى لها كيان وإستقلال ذاتى أقوى بكثير مما للمجموعة الثانية . وقد إقترحت مصطلحات شتى قصداً إلى بيان الفرق بين النوعين ، وكان من أبسط هذه الاصطلاحات : كلمات كاملة Full words وأدوات Form-words اللذان تبناهما هنرى سويت Henry Sweet . فالكلمات الكاملة لها مضمون أغنى وأكثر تحديداً من الأدوات ، وهذه الأخيرة إن هى فى حقيقة الأمر إلا مجرد عناصر أو وسائل نحوية ليس لها معنى مستقل خاص بها . ليست شيئاً أكثر من وسائل ، وظيفتها ، التعبير عن العلاقات الداخلية بين أجزاء الجملة ، ومنزلتها فى علم النحو تستوى ومكانة التصريف والوسائل

= وأعطى ، يعطى ، عطى ، معطى ، معط » كلمة مستقلة . وكذلك الحكم فى نحو : « يقود ، قائد ، قيادة » . وهذا الرأى بنيناه على أساس علم يجب اتباعه دائما فى الدراسات الوصفية . وهذا الأساس هو الاعتماد دائما على الخصائص والمميزات الموجودة فعلا بالصيغة نفســها ، بقطع النظر عن إمكانية ردها إلى أصل تشترك فيه مع غيرها أو عدم إمكانية ذلك (المترجم) .

النحوية الأخرى التى تستخدم للغرض نفسه والواقع أن هناك نوعا من التعادل بين الأدوات ونماذج التصريف : فاللغات ذات النظم الاشتقاقية والتصريفية الفنية المتنوعة تستعمل الأدوات إستعمالا خفيفاً والعكس بالعكس . ولذلك نجد اللغتين الإنجليزية والفرنسية تعتمدان على الأدوات بدرجة أكبر وأعم من اللاتينية والألمانية مثلا . فبينما يمكن الفعل فى اللغة اللاتينية أن يتصرف بدون ضمائر مستقلة نرى اللغتين الإنجليزية والفرنسية تلجئان إلى تخصيص كل صيغة بذكر الضمير المنفصل . يقال فى اللغة اللاتينية مثلا : amamus, amatis, amat amo, amas ، amat, وهذه كلها صيغ يتميز بعضها عن بعض تميزاً واضحاً بواسطة نهاياتها ، ولكن يقال فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية فى هذه الحالة .

I love, you love, J'aime,tu aimes الخ بذكر الضمير المنفصل ، منعاً للخلط والغموض (٢٧) فالتنويع فى صيغة الكلمة هنا قد قل أو زال نهائياً ، وحينئذ

---

(٢٧) اللغة العربية تشبه اللاتينية فى أنها غنية بنظم الاشتقاق والتصريف ومن ثم نراها تستغنى عن الضمير المنفصل فى كثير من الأحيان عند تصريف الفعل إلى حالاته المختلفة من حيث التكلم والخطاب والغيبة : فيقال فى الفعل المضارع مثلا : اكتب ، اكتب ، يكتب ،وفى الماضى ، كتبت ، كتبت ، كتب الخ بدون الضمير المنفصل فى كل هذه الأمثلة وما شابهها إكتفاء باللواحق والسوابق التى تضاف إلى الفعل . ونحن نوافق المؤلف على أن الضمائر المنفصلة قد تعد من باب الادوات أو الكلمات غير الكاملة ، غير أن هذا الحكم ليس على إطلاقه . فهو فى رأينا يطبق فقط على لغات معينة كالعربية واللاتينية وغيرهما من اللغات التى يمكن فيها الإستغناء عن هذه الضمائر ، والتى يمكن أن تقوم فيها السوابق واللواحق مثلا بدور الضمير ، كما رأينا فى الأمثلة السابقة . أما فى اللغتين الانجليزية والفرنسية ونحوهما فالرأى عندنا أن الضمائر المنفصلة فيها كلمات كاملة لعدم انطباق خصائص الأدوات عليها . وعلى هذا كان من الواجب على المؤلف أن يراعى الفروق بين اللغات المختلفة ، وألا يطلق الحكم بهذه الصورة العامة . والحق أن مسلك المؤلف فى ذلك يعد مثلا مما يؤخذ على بعض اللغويين الذين يحاولون تعميم الأحكام دون النظر إلى اللغة المعينة (المترجم) .

يتوقف بيان وظيفتها النحوية على الأدوات وعلى نظام ترتيب أجزاء الجملة. والتقليد الشائع هو وصف هذا النوع الأخير من التراكيب بأنها « تحليلية » بينما القاعدة العامة هي وصف اللغات المتصرفة تصرفاً كبيراً بأنها « تركيبية » .

ولكن الأدوات — بالرغم من افتقارها إلى معنى مستقل خاص بها — تشارك الكلمات الكاملة بعض الخواص الأخرى . إنها مثلا تتبع قوانين التركيب الصوتى التى تتبعها هذه الكلمات نفسها . فكما أنه لا يجوز لكلمة إنجليزية كاملة أن تبدأ بالصوتين — kn ، كذلك لا يجوز لحروف الجر أو حروف العطف أن تقبلهما فى هذا الموقع أيضاً . أصوات التعجيب فقط هى التى قد تشذ عن هذه القاعدة ، إذ أنها ليست من صميم الثروة اللفظية ذات النظم المحقق ، وإنما توجد على هامشها فقط . وكذلك تشارك الأدوات الكلمات الكاملة فى قابلية الإنتقال والإنفصال . فالضمير مثلا يجوز فصله عن الفعل ، فيقال : « أنا أعرف » و « أنا لا أعرف » بالفصل بين الضمير والفعل فى المثال الثانى ، كما قد يفصل بين أداة التعريف وبين الاسم نحو the book . حيث يصح أن يقال أيضاً the new book ، بالفصل بالصفة بين الإسم والأداة [٢٨] . إن الأدوات ما هى إلا حالات وسطى بين الكلمات الكاملة وبين مجرد العناصر النحوية [٢٩] . وليست هنا فى الواقع حدود

---

(٢٨) من الواضح أن هذه الصورة الثانية — وهى الفصل بين الاسم وأداة التعريف — ممتنعة الوقوع فى اللغة العربية ، إذ أن من خصائص الأداة فى هذه اللغة أنها تتصل إتصالا مباشراً بالإسم الذى تدخل عليه ، على أنه من الممكن الاعتراض على المثال الذى ذكره المؤلف لهذه الحالة ، حيث وقع الفصل فيه بالكلمة new وهى صفة ، ومن المعروف أن الصفة والموصوف كالشىء الواحد . فالحقيقة إذن هى أن الأداة داخلة على الوصف والموصوف معاً ، لا على الموصوف وحده ، كما يفهم من كلام المؤلف (المترجم) .

(٢٩) من أمثلة هذه العناصر النحوية السوابق واللواحق التى تضاف إلى أول الكلمات وإلى آخرها (المترجم) .

دقيقة بين النوعين . وقد لا يعنينا فى هذا المقام أن تكون الأدوات ـ من الناحية التاريخية ـ قد تطورت فى كثير من الأحيان عن كلمات كاملة ، كما فى الصيغة الفرنسية chez بمعنى « عند » التى ترجع إلى الكلمة اللاتينية casa « منزل » . وفى الاستعمال المعاصر نفسه قد تنسب بعض الصيغ إلى أى من النوعين ، طبقا للسياق الذى تقع فيه ، كما فى نحو : I am considering your proposal[٣٠] . . . . . . و considering he is poor فى اللغة الإنجليزية ـ حيث انتقال الصيغ فيها من نوع من أنواع الكلمات إلى نوع آخر أسهل منه فى معظم اللغات ـ يمكن أن تنسب الصيغة الواحدة إلى خمسة أنواع ، وقد تكون هذه الأنواع كلمات كاملة أو أدوات ، فمن ذلك الصيغة round التى قد تكون اسما أو صفة أو فعلا ، كما يجوز أن تكون ظرفا أو حرف جر .

على أن كل هذه الإعتبارات السابقة تتضاءل تماما أمام الخطر الرئيسى الذى يهدد استقلال الكلمة . أما وقد قررنا أن الكلمة فى أساسها وحدة من وحدات المعنى ، فمن الطبيعى أن ينصب هذا التهديد على جانبها الحيوى ، وهو وظيفتها من حيث المعنى والدلالة . إنها هذه الخاصة بالذات هى التى يتطرق إليها الشك إذا نظرنا إليها فى ضوء نظرية السياق .

---

(٣٠) ترجمة المثال الأول هى : إننى أدرس إقتراحك ، وأما الثانى فترجمته : إذا أخذنا فى الاعتبار أنه فقير . . . . والصيغة considering فى المثال الأول كلمة كاملة وهى واقعة موقع الخبر . ولكنها أداة فى المثال الثانى ، إذ هى واقعة موقع الظرف أو نحوه ، والجملة لم تتم بعد ولا تزال بحاجة إلى ما يكملها ، وقد نبهنا إلى هذا المعنى بوضع نقط فى آخر التركيب ، ومن هذا القبيل فى اللغة العربية اسم الفاعل الذى يجوز عده من باب الأسماء أو ما نسميه نحن (بالإسميات) (nominals) أو من باب الأفعال أو ما نطلق عليه (الفعليات) (verbais) والمسألة كلها تتوقف على السياق . فهو من الإسميات إذا أضيف إلى الاسم بعده ولكنه من الفعليات إذا نصب للمفعول . وقد اجتمعت الحالتان فى قوله :

الشاتمى عرضى ولم أشتمهما والناذرين إذا لم القهما دمى . (المترجم) .

وكلمة (السياق) context قد استعملت حديثاً فى عدة معان مختلفة . والمعنى الوحيد الذى يهم مشكلتنا فى الحقيقة هو معناها التقليدى أى : « النظم اللفظى للكلمة وموقعها من ذلك النظم » ، بأوسع معانى هذه العبارة . إن السياق على هذا التفسير ينبغى أن يشمل — لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب — بل والقطعة كلها والكتاب كله ، كما ينبغى أن يشمل — بوجه من الوجوه — كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات . والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذى تنطق فيه الكلمة لها هى الأخرى أهميتها البالغة فى هذا الشأن . أما أن هذه العوامل جميعها لها تأثيرها المباشر على المعنى الدقيق للكلمات ، فهذا أمر لم يعارض فيه أحد معارضة جدية ، وقد كان من المستطاع التخلص من الاقتباسات والترجمات والتفسيرات الكثيرة الخاطئة ، لو كان هذا المبدأ قد روعى بدقة واطراد أكثر ، ولكن مشايعى نظرية السياق يذهبون إلى أبعد من هذا وكثيراً ما يرددون القول بأن الكلمات لا معنى لها على الإطلاق خارج مكانها فى النظم . يقول القائل :

« عند ما أستعمل كلمة يكون معناها هو المعنى الذى أختاره لها فقط ، لا أكثر ولا أقل » .

ولو تأملنا الأمر قليلا لظهر لنا أن هذه مبالغة ضخمة ، وتبسيط كبير للأمور. إن الذين ينادون بهذه الآراء ينسون الفرق الأساسى بين الكلام واللغة . وهذا الفرق يتمثل فى أن السياقات إنما تكون فى المواقف الفعلية للكلام . وغنى عن البيان حينئذ أن معانى الكلمات المخزونة فى أذهان المتكلمين والسامعين لا تحظى بالدقة والتحديد إلا حين تضمها التراكيب الحقيقة المنطوقة . ولكن هل هذا يعنى أن الكلمات المفردة لا معنى لها على الاطلاق ؟ كيف تصنف المعاجم إذا لم يكن لهذه الكلمات معان ؟ إننا لا ننكر أن كثيراً من الكلمات يعتريها الغموض الشديد وأن ألوانها المعنوية غالباً ما تكون مائعة وغير محددة تحديداً دقيقاً ، ولكن هذه الكلمات مع ذلك لا بد أن يكون لها معنى أو عدة معان مركزية ثابتة ، هذه القضية قضية مسلم بها على وجه العموم ، ولكن عدم وضوح الفرق بين الكلام واللغة قد عاق كثيراً من العلماء عن منح الكلمات المفردة نصيبها من الاستقلال الذى تستحقه .

إننا إذا تخلصنا من هذه الآراء المتطرفة أمكننا أن ندرك تأثير السياق على المعنى إدراكاً صحيحاً . وهذا التأثير الذى نشير إليه تأثير ذو أهمية قصوى ومتعدد الجوانب أيضاً . وإذا كان لنا أن نبدأ بأبسط حالات هذا التأثير أمكننا أن نبتكر صورة متدرجة من الأمثلة التى توضح الدور الحيوى المتزايد الذى يلعبه السياق فى تحديد المعنى . على أن المشكلات المتنوعة التى أثيرت فى السطور التالية سوف نتناولها بالدراسة فى الباب الثانى من هذا الكتاب . أما هنا فنحن مهتمون بتأثير السياق فقط .

١ ـــ المعنى العاطفى :

السياق وحده هو الذى يوضح لنا ما إذا كانت الكلمة ينبغى أن تؤخذ على أنها تعبير موضوعى صرف ، أو أنها قصد بها ـــ أساساً ـــ التعبير عن العواطف والانفعالات وإلى إثارة هذه العواطف والانفعالات . ويتضح هذا بصفة خاصة فى مجموعة معينة من الكلمات نحو « حرية وعدل » التى قد تشحن فى كثير من الأحيان بمضمونات عاطفية ، بل إن بعض الكلمات المستعملة فى الحياة اليومية العادية قد يكتسب نغمة عاطفية قوية غير متوقعة فى المواقف الانفعالية . مثال ذلك كلمة « جدار » فى هذه القطعة من « حلم ليلة فى منتصف الصيف » :

وأنت أيها الجدار ! أيها الجدار الحلو الجميل !
أنت الذى تحول بين بيت أبيها وبيتى
أنت أيها الجدار ! أيها الجدار الحلو الجميل !
ألا تتصدع من أجل فألمحها بعينى !
شكراً لك أيها الجدار المهذب : رعاك الله من أجل هذا الصنيع
لا ! أنت أيها الجدار اللئيم الذى لا أرى من خلاله رحمة
لعنة الله على كل حجر فيك ، لقد خدعتنى !

وهكذا نرى أن السياق وحده هو الذى يساعدنا على إدراك التبادل بين المعانى الموضوعية والمعانى العاطفية والانفعالية .

٢ — منطقة المعنى :

من المقرر أن مجـــال الكلمة قابل للتغير فى كثير من الأحيان . فالكلمة « انجليزى » Linguistic . حين تؤخذ على أنها مصطلح لغوى علم يكون مجال إستعمالها أوسع بكثير مما يكون لها حين ننظر إليها على أنها مصطلح (قومى) . أى حين توضع فى مقابلة إيرلندى . وويلزى وسكوتلاندى . والسياق وحده هو الذى يعين حدود هذه الكلمة فى أى موقف معين . وكلمة man حين تقابل بكلمة animal (حيوان) تشمل النوع الإنسانى كله . ولكنها تعنى نصف هذا النوع فقط حين تقابل بكلمة Woman (امرأة) .

٣ — تناوب المعنى :

وليس هذا فقط . بل إن الكلمات ذات المعانى المركزية الثابتة إلى حد ما لها هى الأخرى صورة مختلفة فى التطبيق والاستعمال . فالسياق وحده هو الذى يستطيع أن يبين لنا ما إذا كانت الكلمة (قريب) مثـــلا تعنى قرابة الرحم أو القرب فى المسافة [٣١] .

٤ — الغموض :

كثير من كلماتنا له أكثر من معنى . غير أن المألوف هو استعمال معنى واحد فقط من هذه المعانى فى السياق المعين . فالفعل (أدرك) مثلا ، إذا انتزع من مكانه فى

(٣١) لم نترجم المثال الإنجليزى الذى أتى به المؤلف هنا ، لأن ترجمته لا تساعد القارىء العربى على الفهم . ولذا آثرنا ذكر ما يناظره فى اللغة العربيـــة حتى يتضح المقصود وقد سلكنا هذا المسلك فى عدد من الأمثلة المنتشرة هنا وهناك فى الكتاب ولكنا قصرنا ذلك على حالات معينة . كأن تكون أمثلة المؤلف صعبة الإدراك عسيرة التذوق بالنسبة للقارىء العربى ، أو كأن يكون التمثيل من اللغة العربية أوضح وأقرب إلى الفهم . وإنه لمن السهل على القارىء أن يدرك هذه الحالات التى سلكنا فيها هذا المسلك، على أنا سوف نشير إلى ما يحتاج منها إلى التنبيه (المترجم)

النظم يصبح غامضاً غير محدد المعنى : هل معناه (لحق به) أو (عاصره) أو أنه يعنى (رأى) أو (بلغ) ؟ [٣٢] إن التركيب الحقيق المنطوق بالفعل هو وحده الذى يمكنه أن يجيب عن هذا السؤال .

٥ — المشترك اللفظى :

إذا تصادف أن اتفقت كلمتان أو أكثر فى أصواتها إتفاقا تامافإن مثل هذه الكلمات لا يكون لها معنى البتة دون السياق الذى تقع فيه . فى حالة الفعل (أدرك) الذى ذكرناه سابقاً كان هناك على الأقل قدر ما من أصل مشترك بين المعانى المختلفة ولكن إتفاق الاصوات فى حالة الفعل see و sea فى العبارة the bishhp's see و the sea إنما هو مجرد صدفة . والسياق هو وحده الذى يستطيع أن يكشف لنا عن المقصود من هذه الكلمات الثلاث [٣٣] .

---

(٣٢) الفعل (أدرك) بمعانيه الأربعه المذكورة ليس ترجمة لمثال المؤلف . وقد آثرناه عليه — وإن كان يقابله فى بعض الوجوه — لأنه أشمل منه وأقرب إلى الفهم . ويمكن توضيح هذه المعانى الأربعة بالأمثلة الآتية : مشى حتى أدركه (لحق به) . عاش حتى أدرك زمانه (عاصره) ، أدرك ببصره (رأى) وأدرك الغلام أو الثمر (بلغ) (المترجم) .

(٣٣) لم نحاول ترجمة هذه الكلمات الثلاث ، لأن من الضرورى الاحتفاظ بأصواتها ، إذ هى أساس المناقشة فى القضية الخاصة بالمشترك اللفظى . ويتضح من كلام المؤلف أن المشترك اللفظى عنده homonymy يتضمن وجود أكثر من كلمة فالكلمة see الأولى — ومعناها (يرى) كلمة مستقلة : و see فى العبارة the bishop's see كلمة أخرى . ومعناها (أبرشيه الأسقف أو عرشه) . و Sea بمعنى (بحر) كلمة ثالثة . وهذا هو الرأى عند أولمان بالرغم من أن الأمثلة الثلاثة جميعاً تنطق بصورة واحدة وكذلك الحال عنده فى كل أمثلة المشترك اللفظى . ولهذا آثرنا الإحتفاظ بالأمثلة الانجليزية لأنها تتمشى مع هذا الرأى الذى [illegible]

وهكذا نرى أن الصورة المتدرجة التى وضحناها بالأمثلة السابقة قد بينت أن كل كلماتنا تقريباً تحتاج على الأقل إلى بعض الإيضاح المستمد من السياق الحقيقى ، سواء أكان هذا السياق لفظياً أم غير لفظى . وربما كانت الحقائق الاضافية المستمدة من السياق مقصورة فى بعض الاحايين على تحديد الصور الاسلوبية للكلمة . ولكنها مع ذلك تعد ضرورية فى تفسير المشترك اللفظى .

إن نظرية السياق — إذا طبقت بحكمة — تمثل حجر الاساس فى علم المعنى وقد قادت بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة فى هذا الشأن . إنها مثلا قد أحدثت ثورة فى طرق التحليل الادبى . ومكنت الدراسة التاريخية للمعنى من الاستناد إلى أسس حديثة أكثر ثباتاً . كما أنها قدمت لنا وسائل فنية حديثة لتحديد معانى الكلمات : تلك الوسائل التى ظهرت أول الامر على يد الاستاذين أوجدن وريتشاردز والتى أوردنا لها ملخصاً فى الفصل الاخير من هذا الكتاب ، وفوق هذا كله ، قد وضعت لنا نظرية السياق مقاييس لشرح الكلمات وتوضيحها عن طريق التمسك بما سماه الاستاذ فيرث : (ترتيب الحقائق فى سلسلة من السياقات: أى سياقات ، كل واحد منها ينضوى تحت سياق آخر ، ولكل واحد منها وظيفة لنفسه . وهو عضو فى سياق أكبر وفى كل السياقات الاخرى ، وله مكانه الخاص فيما يمكن أن نسميه سياق الثقـــافة) . والحق أن هذا المنهج طموح إلى درجة لا نستطيع معها فى كثير من الاحايين إلى تحقيق جانب واحد منه فقط ولكنه مع ذلك يمدنا بمعايير تمكننا من الحكم على النتائج الحقيقية حكما صحيحاً .

الباحث . ولم نشأ أن نمثل هنا بأمثلة من اللغة العربية لأن المفهوم من كلام العرب بوجه عام هو أن المشترك اللفظى يتحقق فى كلمة واحدة . فنحو (عين) مثلا قد تعنى (الباصرة) أو (الجاسوس) أو (الذهب) الخ . ومع ذلك فهى عندهم كلمة واحدة أو لفظ واحد اختلف معناه والحق أن قضية وحدة الكلمة أو تعددها فى المشترك اللفظى فى اللغة العربية قضية جديرة بالبحث والدراسة . ونأمل أن نأتى فيها برأينا الخاص فى بحوث مقبلة إن شاء الله . وعلى كل حال فأمثلة المشترك اللفظى فى اللغة العربية هى الأخرى بحاجة شديدة إلى السياق لفهم معانيها المختلفة شأنها فى ذلك شأن المشترك اللفظى فى اللغة الإنجليزية وفى غيرها من اللغات (المترجم) .

الفصل الخامس

المعـــنى

المعنى هو المشكلة الجوهرية فى علم اللغة . وهو أيضاً يمثل نقطة التقابل بين ثلاثة أنواع من « علم المعنى » Somantics ، حيث يهيء هذا التقابل فرصة التعاون بين هذه الأنواع الثلاثة على خير وجه[٣٤] ، غير أنه من المؤسف حقاً — وربما لا مفر من ذلك — أن يحول بيننا وبين تعرف هذه المشكلة ذلك الغموض الشنيع المتزايد للألفاظ ، وعلى رأسها لفظ المعنى نفسه ، وقد تناول هذا الموضوع عدد من النظريات والآراء الدقيقة وغير الدقيقة على السواء ، واستخدمت فى دراسته مجموعة ضخمة جداً من المصطلحات المتضاربة المتداخلة ، حتى إن المعنى كاد يفقد أهميته وصلاحيته للدراسة ، كما أن عدداً غير قليل من الدراسين قدتعمدوا إخراجه من بحوثهم وقد قام الأستاذان أوجدن وريتشاردز Ogden and Richards — اللذان خصصا كتاباً كاملا لمعالجة معنى « المعنى » — بتجميع ما لا يقل عن ستة عشر تعريفاً للمعنى ، أو قل اثنين وعشرين تعريفاً ، إذا أخذنا فى الحسبان ما أورداه من تقسيمات جزئية . وهذا مثال حى للاضطراب الناتج عن الاستعمال غير الواعى للمصطلحات المجردة تجريداً بالغاً .

ومن الواجب على أيه حال ألا نسمح للكلمات بأن تحجب أبصارنا عن حقيقة الاشياء التى تكمن خلفها . وإنه لمن العبث بصفة خاصة أن نسمح بذلك

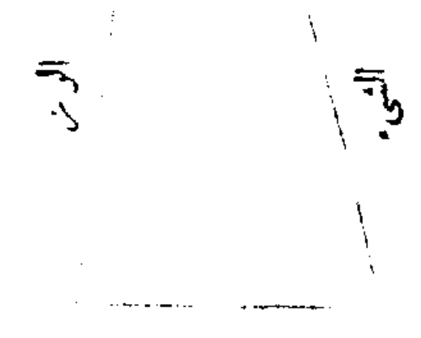
---

(٣٤) أنواع علم المعنى الثلاثة التى يشير إليها المؤلف هى : علم المعنى اللغوى Linquistic Semantics وعلم المعنى الفلسفى Philosophical Semantics وعلم المعنى العام General Semantics . ووظيفة هذه الأنواع الثلاثة هى دراسة المعنى ومشكلاته ولكن من زوايا مختلفة (انظر مقدمة المؤلف ص ١٣ — ١٤) (المترجم) .

حين تكون هذه الأشياء نفسها هى الكلمات . أى حين نضطر إلى استعمال اللغة لتتكلم عن نفسها . وأحسن طريقة للتخلص من هذه الأخطاء هى أن نركز اهتمامنا على الجوانب الأساسية فى الموضوع ، أو بعبارة أخرى ، يجب أن نحاول إبراز العوامل الرئيسية التى تتضمنها أية عملية من عمليات وضع الرموز ، فإذا ما أبرزت هــــذه العوامل وعينت أماكنها المخصصة لها فإن أى نظام من نظم تسمية الأشياء سوف يؤدى وظيفته متى حددناه تحديداً واضحاً وطبقناه باطراد .

ويمكننا أن نعتمد فى دراستنا هنا على ذلك التحليل العميق الذى قام به الاستاذان أوجدن وريتشاردز ، والذى يتمثل فى مثلثهما الأساسى « المشهور basie triangle يرى الأستاذان أن هناك ثلاثة عوامل تتضمنها أية عــــلاقة رمزية . العامل الاول : الرمز نفسه the symbol ، وهو فى حالتنا هذه عبارة عن الكلمة المنطوقة المكونة من سلسلة من الأصوات المرتبة ترتيباً معيناً ، ككلمة « منضدة » مثلا . والعامل الثانى : المحتوى العقلى الذى يحضر فى ذهن السامع حينما يسمع كلمة « منضدة » . وهذا المحتوى العقلى قد يكون صورة بصرية ، أو صورة مهزوزة ، أو حتى مجرد عملية من عمليات الربط الذهنى ، طبقاً للحالة المعينة . وهذا ما سماه هذان العالمان « بالفكرة » thought أو « الربط الذهنى » refereuce وهناك أخيراً الشىء نفسه الذى ارتبط ذهنياً بشىء آخر ، وهذا الشىء قد سماه « المرتبط ذهنيا » refernt . وقد وضحت العلاقة الحاصلة بين هذه المصطلحات الثلاثة بصورة مثلث ، وهكذا :

الفكرة أو الربط الذهنى



علاقة مفترضة

والنقطة الجوهرية فى الرسم البيانى — الذى قد بسطناه هنا إلى حد ما — هى أنه ليست هناك علاقة مباشرة بين الكلمات والأشياء . ومن ثم وضعت النقط لتدل على « علاقة مفترضة » ، إذ لا يوجد طريق مباشر قصير بين الكلمات وبين الأشياء التى تدل عليها هذه الكلمات : فالدوره يجب أن تبدأ عن طريق الفكرة أو الرمز الذهنى ، أى عن طريق المحتوى العقلى الذى تستدعيه الكلمة والذى يرتبط بالشىء . ولقد كانت هذه الصورة معروفة بالفعل لدى فلاسفة العصور الوسطى . ولقد صاغها روبرت براونتج Robert Browining صياغة شعرية .

يستطيع الفن أن ينبىء عن الحقيقة .

فلا شك أن الأفكار تتولد عن الأشياء بطريق غير مباشر .

كما أنه ليس محالا وجود الفكرة دون الاعتماد على الكلمة .

ويرجع الفضل فى ذلك على كل حال إلى أوجدن وريتشاردز اللذين جعلا هذه النقطة مدار بحثهما ، واللذين عبرا عنها برسم بيانى نال قدراً كبيراً من النجاح فيما جاء بعد ذلك من بحوث خاصة بهذا الموضوع .

وفى استطاعتنا الآن أن نبدأ فى تبسيط هذا المنهج وفى تعديله وفقاً لحاجتنا فى البحث . من الممكن أولا أن نتخلص من الشىء نهائياً ، إذ أن دارس اللغة إنما تهمه الكلمات لا الأشياء . وقد اتضح لنا من الشكل البيانى نفسه أنه لا توجد علاقة مباشرة بين الطرفين . والعلاقة الحقيقية الوحيدة التى تربط الشىء بأن طرف آخر فى المثلث إنما هى العلاقة الموجود بينه وبين الفكرة على أن طبيعة الارتباط بين الواقع (أى الشىء) وبين صورته المنعكسه فى أذهاننا إنما هى مشكلة تخص عالم النفس أو الفيلسوف . أما اللغوى فليس فى مقدوره أن يأخذ طرفا فى هذه المسألة الجدلية ، وليس مطلوباً منه ذلك أيضاً . كل ما يستطيع أن يعمله اللغوى هو أن يركز اهتمامه على الجانب الأيسر من المثلث . أى على الخط الذى يربط الرمز بالفكرة .

ونستطيع بعد ذلك أن نبسط المصطلحات نفسها وأن نجعلها ذات صبغة لغوية صرفة . ولعل أبسط طريقة فى ذلك هى أن نستعمل مصطلحين بالذات من جملة

المصطلحات المتعددة التي يمكن أن تتداويتق هذا المقام وتناسبه . هذان الاصطلاحان هما (اللفظ) بدلا من (رمز) و (المدلول) بدلا من (فكرة) أو (ارتباط ذهني) . وسوف نعرف (اللفظ) حينئذ بأنه الصيغة الخارجية للكلمة وأما (المدلول) فهو الفكرة التي يستدعيها اللفظ .

أما وقد بسطنا مصطلحاتنا وضيقنا دائرة بحثنا ، فإنه من الممكن أن تدرس العلاقة الحاصلة بين هذين المصطلحين الرئيسيين دراسة دقيقة فاحصة . إننا بمجرد أن نبدأ في هذه الدراسة . نلاحظ أن هذه العلاقة علاقة متبادلة . فليس اللفظ وحده هو الذي يستدعى المدلول ، بل أن المدلول أيضاً يمكن أن يستدعى اللفظ أنني حين أفكر في (منضدة) مثلا سوف أنطق الكلمة التي تدل عليها ، وإن سماعي لهذه الكلمة يجعلني أفكر في المنضدة . هذه العلاقة المتبادله . أو هذه القوة التي تربط اللفظ بالمدلول — أي الصيغة الخارجية للكلمة بالمحتوى الداخلي لها — هي أساس عملية وضع للرموز . وإنه من المناسب أن تميز هذه العلاقة بذلك الاصطلاح الذي يشيع استعماله أكثر من غيره في معظم البحوث الخاصه بهذه المشكلات . ومن الواضح أن هذا المصطلح هو المعنى . وعلى هذا سوف نعرف المعنى — طبقاً لأغراض هذا الكتاب — بأنه علاقة متبادلة بين اللفظ والمدلول : علاقة تمكن كل واحد منهما من استدعاء الآخر .

فالكلمات : لفظ ومدلول ومعنى قد بسطت لنا مشكلة المصطلحات اللازمة للتحليل إذ هي كلمات ذات تقاليد معروفة في مثل هذه الدراسات ، كما أن استعمالها في هذا المجال له فائدة أخرى . هي التخلص من فكرة الترادف بين كلمتى مدلول ومعنى ، ذلك الترادف الغامض إلى حد ما في الاستعمال العادى . ولكن يجب أن نؤكد القول بأن اختيار المصطلحات يخضع للحاجة العملية فقط ، وأن أى نظام من نظم تسمية الأشياء — ولو كان ذلك بوساطة الرموز المحضة — يمكن استخدامه بدلا من هذه المصطلحات . كما يجب أن يكون مفهوم جيداً أن التعريف الذى أوردناه هنا واحد فقط من تعريفات المعنى . وليس هو التعريف الوحيد له، فليس هناك تعريف وحيد لمثل هذه المصطلحات المعقدة يمكن قبوله على مستوى

طلى . إن كل منهج من مناهج البحث يختار عادة جانبا واحد معيناً من المشكلة التى يتصدى لها . ويستوى فى الصحة والقبول مع المناهج الأخـــرى التى تركز اهتمامها على جوانب مختلفة من المشكلة نفسها . إن تعريفنا السابق يجب أن يؤخذ على أنه مجرد رأى صالح للعمل به . ويبرهن على صلاحيتة ما يلقيه من أضواء على قضايا حقيقية (٣٥) .

---

(٣٥) يختلف اللغويون اختلافاً كبيراً فى تعريف المعنى وفى بيان المراد به . ويرجع هذا الخلاف إلى أسباب كثيرة . أهمها فى نظرنا اختلاف مناهج البحث فى اللغة عندهم . فمن هؤلاء اللغويين من نهج منهج العقليين أو النفسيين ومنهم سلك طريق السلوكين وآخرون اختاروا ما سمـــوه « المنهج اللغـوى » linguistic approach ويعد مؤلف هـذا الـكتاب — فى رأينا — من أنصار المدرسة العقلية أو النفسية ، بل إن ذلك هو ما صرح به بالفعل حيث قرر أنه اعتمد فى دراسته لمشكلة المعنى على بحوث الأستاذين أوجدن وريتشاردز فى المشكلة نفسها . ولا يخفى أن هذين العالمين من رجال علم النفس . ومن ثم نظراً إلى قضية المعنى من زاوية تتمشى مع مبادىء هذا العلم وأسس البحث فيه . ويظهر تأثر أولمـان بآراء النفسيين تأثرا واضحاً من ذلك التعريف الذى أورده للمعنى ومن استعماله لمصطلحات معينة مثل (الفكره) و (الصورة الذهنية) و (الربط الذهنى) الخ . وهذه مصطلحات أولى بعلم النفس منها بعلم اللغة ، بل هى غريبة عن هذا العلم الأخير ودخيلة عليه . والحق أن هذه المصطلحات ومدلولاتها لا يمكن أن تضيف جديداً إلى الدراسات اللغوية . بل على العكس من ذلك ، فهى قد تسىء إلى هذه الدراسات ، لأن استعمالها فى هذا المجال من شأنه أن يؤدى إلى الخلط فى مراحل البحث وفى نتائجه . أضف إلى ذلك أننا — نحن اللغويين — لا نعرف شيئاً أو نعرف قليلا عن الذهن ومحتوياته ، كما أننا لسنا مطالبين بمعرفة ما يجرى فيه ، وفى الحق أنه ليست لدينا المقدرة على هذه المعرفة . أما بلو مفيلد فيفسر المعنى اللغوى على أساس النظرية السلوكية التى تعتمد فى بحوثها على تصرفات الإنسان وسلوكه فى المواقف المختلفة مـــع الاهتمام بعنصرى الإثارة ورد الفعل أو الإستجابة . وهذا التفسير للمعنى يمكن الحكم عليه أيضاً بأنه تفسير ميكانيكى . إذ أنه يحلل سلوك الإنسان وفقاً للنظريات الميكانيكية فى علم النفس . والذى =

وقبل أن تختبر هذا التعريف بهذه الطريقة العملية ، يجـدر بنا أن نتناول بالبحث مشكلة إضافية لها صلة بهذا الموضوع . هناك نوع من الكلمات التى يبدو

دفع بلومفيلد إلى أن ينهج هذا المنهج هو ـ حسب رأيه ـ محاولة التخلص من آراء العقليين الذين يعتمدون فى دراستهم على الفكر أو الصور الذهنية للأشيـاء ، وعلى اعتبارها أساساً من الاسس المهمة فى تعريف المعنى اللغوى . وهو يعرف المعنى ـ بناء على ذلك ـ بأنه عبارة عن الموقف الذى ينطق فيه الحدث اللغوى المعين ، والاستجابة أو رد الفعل الذى يستدعيه هـذا الحدث فى نفس السامع . أو بعبارة أخرى ، المعنى اللغوى عند بلومفيـلد إن هو إلا الحوادث السابقة والتالية للكلام . والحوادث التالية هى المثيرات والدوافع التى تدفـع المتكلم إلى أن يتكلم ، والحوادث السابقة للكلام هى الاستجابة التى يبديها السامع ، سواء أكانت استجابة سلبية أم إيجابية . وهكذا يربط بلو مفيلد المعنى اللغوى بالموقف وهذا رأى مقبول ، ولـكن ليس من المقبول أن ننظر إلى هذا المعنى كما لو كان مجموعة من المثيرات والاستجابات الآلية . إذ لا يمكن تجريد الـكلام من العوامل الإنسانية ، كالدوافع والرغبات التى ينبىء عنها . فنحن إذن لا نوافق بلومفيلد على إهمال هذه العوامل عند دراسة المعنى ، بل يجب علينا أن نعترف بهـا وأن نشير إليها ولـكن فى أسلوب لغوى محض . هذا الأسـلوب اللغوى المحض هو ما سارت عليه المدرسة التى يرأسـها الأستاذ فيرث والتى ترى أن المعنى اللغوى هو مجموعة الخصائص والمميزات اللغوية للحدث المدروس . وهذه الخصائص لا تدرس دفعـة واحدة بل لابد من تناولها على مراحل أو مستويات مختلفة . والمعنى بهذا المفهوم شىء معقد ذو أجزاء أو عناصر مختلفة ، ووظيفة فروع علم اللغة مجتمعة بيان هذه العناصر وتحليلها . فبيان المعنى اللغوى لـكلمة (ولد) مثلا لا يتأتى إلا بدراسة هذه الـكلمة دراسة صوتية وصرفية ونحوية الخ . فجزء من معناها هو كونها مركبة من هذه الأصوات بالذات بهذه الطريقة بالذات . وهذا هو معناها الصوتى ، أما معناها الصرفى فهو كونها إسماً لا فعلا أو حرفاً وهذا جزء ثان من معنى هذه الـكلمة : ووظيفة علم النحو بيان الجزء الثالث من هذا المعنى العام ، وهـذا الجزء يتمثل فى خصائصها النحوية وهى جواز وقوعها فى مواقع معينة من الجملة وارتباطها ارتباطا معينا بغيرها مما قد يسبقها أو يلحقها من كلمات =

أنماط التحليل التي اخترناها لا يمكن تطبيقه عليها ». ومن هذه الكليات هي أسماء الأعلام Proper names فمن الواضح منذ زمن بعيد أن أسماء الأعلام لا « معنى » لها ، فالإنسان لا يمكنه أن يقول إنه « يفهم » العلم ، وإنما يستطيع فقط أن يقول إنه يعرف إلى من يشير هذا الاسم ، واسم من هو . ولقد جاء في العبارة المأثورة لجون ستيوارت مل John Stuart Mill أن أسماء الأعلام تنبيء ولكنها لا تمني : فهي تعين الأفراد وتدل على شخصياتهم . إنها تخبرك من هم حاملوها ، ولكنها لاتعطى أية معلومات خاصة بهم . إنها لاتعدو أن تكون علامات أو وسائل للتعرف على الشخصية ، ويمكن مقارنتها — من حيث الوظيفه — بخطوط الطباشير التي كان يصنعها لصوص ألف ليلة وليلة التعرف على ضحاياهم المقبلة من المنازل التي كانوا يرغبون في السطو عليها وهكذا نرى أن الاسم العادى Common noun يفقد معناه ويصبح شديد العقم في دلالته حينما يتحول إلى إسم علم . وعلى العكس من ذلك ، يصير اسم العلم غنى الدلالة والمعنى حين يستعمل استعمال الكلمة العادية . ولا ينال من صحة هذه الحقيقة أن تكون بعض أسماء الأعلام أكثر شيوعا من غيرها من الكلمات . فمن الثابت أن استعمال علم نحو (يحيى) مثلا يفوق بكثير جداً استعمال كلمة مثل (مشير) التي هي أغنى من سابقتها في الدلالة .

وتحول الكلمات من نوع إلى نوع آخر أمر كثير الحدوث في كلا الاتجاهين . فهناك عدد كبير من أسماء الألقاب لا يزال يوجد لكل واحد

= ويقوم المعجم ببيان جزء رابع من هذا المعنى وهو دلالتها على إنسان معين ذى سن معينة ، ثم يتولى « علم المعنى الاجتماعى » أو السمانتيك بيان العنصر الأخير من معناه ، ويتمثل هنا في جواز استعمال هذه الكلمة في سياقات متعددة كما في نحو : ياولد ؟ قاصداً بذلك مجرد النداء أو الزجر ، أو الإعجاب أو المعاكسة حسب المواقف المختلفة . وبهذه الطريقة نحصل على المعنى العام لكلمة (ولد) دون أن نلجأ إلى الاستعانة بعلوم أجنبية عن علم اللغة .

(المترجم)

منها صنو بين الأسماء العادية ، نحو « النجار » والحداد » « والجزار » (٣٦) . كما أن عكس ذلك وهو استعمال أسماء الأعلام كأسماء عادية كثير شـائع أيضاً ، من ذلك انتقال اسم المخترع أو المكان الاصلي للشيء إلى الشيء نفسه ، كما في هذه المجموعة البسيطة من الامثلة المشهورة في هذا الباب : سندوتش ، بلهارسيا ، ماكنتش (٣٧) . شرى وهي كلمة نطلق على نوع من الخمور وترجع إلى اسم المدينة الاسبانية xeres ؛ وبورت وهي مأخوذة من اسم المدينه البرتغالية Oporto .

وكذلك تعد الشخصيات التاريخية والروائية من المصادر الخصبة لمثل هذا الانتقال في الاستعمال . ومن أمثلة ذلك (حاتم) و (عنترة) ، والكلمة الاولى ترجع في الأصل إلى حاتم الطائي المشهور بالكرم ، وترجع الثانية إلى عنترة بن شداد الفارس الجاهـلي المعروف (٣٨) . ومن البديهي أن كلمة (قيصر) التي

---

(٣٦) لكل كلمة من هذه الكلمات الثلاث وأمثالها استعمالان معروفان الأول إستعمالها لقباً في مثل (محمد على النجار) حين تكون كلمه (النجار) لقب أسرة هذا الشخص والاستعمال الثاني حين نطلق على من حرفته النجارة فهي في هذه الحالة كلمة عادية وليست علماً أو لقباً (المترجم) .

(٣٧) لقد سمي السandوتش بأسم أحد النبلاء الانجليز ، وكانوا قد أحضروا له الطعام ذات ليلة في صورة (سندوتشات) حتى لاينقطع عن مواصلة بعض الألعاب التي كان يمارسها . والبلهارسيا أخذت إسمها من الدكتور بلهارز Bilharz مكتشف دودة هذا المرض . وماكنتش يطلق على المعطف المصنوع من القماش العـازل ، وقد سمي باسم مخترع هذا القماش وهو (تشارلز ماكنتش) Charles Maintosh (المترجم) .

(٣٨) آثرنا هنا التمثيل من اللغة العربية لأن في ذلك عوناً للقارىء على الفهم والتذوق، ونريد بالمثالين المذكورين أن نشير إلى إمكانية استعمال أسماء الاعلام المشهورة كلمات أو صفات عادية . من ذلك انتقال (حاتم) العلم المشهور إلى كل شخص يتصف بالكرم ، وانتقال (عنترة) إلى كل من يتصف بالشجاعة والفروسية ومن هذا القبيل أيضاً روميو ، جوليت ، طرزان وجيمس دين الخ . (المترجم)

تستعمل بمعنى امبراطور فى ألمانيا وروسيا ترجع فى الأصل إلى العلم (يوليوس قيصر) . وعلى هذا المنوال أصبح اسم Carolus — وهو الصيغة اللاتينية لاسم شالمان — المصطلح المستعمل بمعنى ملك فى كثير من لغات أوروبا الشرقية . ومما لاشك فيه أن قوة التعبير فى بعض أسماء الأعلام تساعد على شيوعها ، كما فى (شيشرون) الذى يرجع الفضل فيما ناله هذا الاسم من شعبية إلى ما يثيره اسم الخطيب المشهور من إيحاءات فى اللغة الإيطالية .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الكلمات لا تعيش منعزلة فى نظام اللغة ، ولكنها تندرج تحت أنواع شتى من المجموعات والتقسيمات التى يرتبط بعضها ببعض بوساطة شبكة من العلاقات المعقدة غير المستقرة المتوغلة فى الذاتية : علاقات بين الألفاظ وعلاقات بين المدلولات ، علاقات أساسها التشابه أو بعض الصلات الأخرى . وهذه العلاقات الرابطة إنما نشعر بها عن طريق آثارها ونتائجها . وسوف نرى فى الباب الثالث — حين نناقش تغير المعنى — كيف تقوم هذه العلاقات بوظائفها . ومجموع هذه الشباك المترابطة هو الثروة اللفظية للغة . ولسوف نتناول فى الفصول التالية بالدراسة تركيب هذه الثروة فى حالتيها الثابتة والمتحركة . وهنا سوف نعرف كيف تؤدى الكلمات وظائفها فى أبسط الظروف ، أى حين يكون هناك لفظ واحد ومدلول واحد ، وكيف أن هذا النموذج البسيط يصبح معقداً بسبب تعدد المعنى . وسيتلو ذلك استعراض للطرق التى يستطيع أن يسلكها المتكلم ليسد النقص فى ثروته اللفظية . وسوف يتضح لنا أن تغير المعنى كثيراً ما يلجأ إليه الإنسان فى حالة الضرورة .

أما النتائج المستخلصة من التحليل الذى نقوم به فسوف تطبق بدقة وإمعان على دراسة فاحصة للكلمات بوصفها وسائل للتعبير والسلوك الإنسانى وذلك فى الباب الختامى من هذا الكتاب .

الباب الثاني

المعنى والغموض

الفصل الأول

المعنى البسيط

قد عرفنا المعنى فى الفصل السابق بأنه علاقة متبادلة بين اللفظ والمدلول ، وهى علاقة مباشرة واضحة فى أبسط المواقف ، أى حين تكون بين لفظ واحد ومدلول واحد . أما فى المواقف التى تتصف بالتعقيد فإن هذه العلاقة تتضمن أكثر من لفظ وأكثر من مدلول . هناك إذن نموذجان أساسيان للمعنى اللغوى : معنى بسيط ومعنى متعدد .

ويتصف المعنى البسيط بمجموعة من الخصائص التى تتعلق باللفظ أو بالمدلول أو بهما معا . وأبرز هذه الخصائص تقليدية اللفظ وغموض المدلول وما يكتنف كلا منهما من العناصر العاطفية والانفعالية .

التقليدية (٣٩)

Conventionality

كثير من كلماتنا رموز تقليدية . ونحن نكتسب معانى هذه الكلمات فى طفولتنا المبكرة ولكن بطريق التعلم ، إذ لا يوجد فى اللفظ ما ينبىء عن المدلول . فبالإضافة إلى عـــدم وجود أية علاقة ظاهرة بين الكلمة

---

(٣٩) نعنى « بالتقليدية » هنا اتفاق الجماعة الإنسانية المعينة على الظواهر اللغوية بطريق العرف العام . وهى مرحلة تالية لمرحلة الابتكار أو التوليد الذى سيشير إليه المؤلف فيما بعد . ومعنى هذا أن عناصر اللغة تبدأ أولا بالابتكار أو التوليد الفردى الذى قد يكتب له النجاح فيما بعد ، فتعترف به الجماعة كلها وتتواضع على صحته ومن ثم يصبح جزءاً من النظام اللغوى . ومن الجائز أيضاً أن نستعمل هنا =

« منضدة » وبين ما تدل عليه . هناك شيئان يعارضان افتراض وجود أية صلة طبيعية بينهما مهما كانت هذه الصلة غامضة : الشيء الأول : يتمثل فى تنوع الكلمات واختلافها فى اللغات المختلفة ، والثانى يتبلور فى الحقائق التاريخية : فلو كانت معانى الكلمات كامنة فى أصواتها ، لما أمكن أن تتغير هذه الكلمات فى لفظها ومدلولها تغيراً يستحيل ربطه بالوضع الأصلى لها .

ومهما يكن الأمر . فليست كلمات اللغة كلها تقليدية صرفة ككلمة « منضدة » إن الكلمة « قهقه » مثلا كلمة معبرة ووصفية إلى حد ما بالصيغة نفسها ، والأصوات فيها دليل من دلائل المعنى ، وفى استطاعة الأجنبى الذى لا يعرف مدلول هذه الكلمة أن يخمن هذا المدلول تخمينا دقيقاً إلى حد ما ، على حين لا يمكنه البتة أن يخمن معنى كلمة « منضدة » من الصوت وحده . أضف إلى ذلك أن هذه الكلمة وأمثالها من الكلمات التى « تحاكى الأصوات » echo — words — كما هى التسمية المعروفة بها — هى فى الحقيقة كلمات متشابهة إلى حد بعيد فى لغات مختلفة : فالطائر المسمى « كوكو » cuckoo هو فى الفرنسية coucou وفى الألمانية kuckuck ، وفى المجنارية kakuk وفى الإغريقية القديمة kokkyx(٤٠) .

يتبين من هذا أن الثروة اللفظية للغة تتألف من مجموعتين عظيمتين : كلمات تقليدية عرفية conventional وكلمات مولدة بدافع الحاجة والضرورة motivated ويتم التوليد بثلاث صور رئيسية هى :

= المصطلح ، المواضعة أو التواضع ، ولكن بهذا المعنى الذى ذكرناه ، لا بالمعنى الذى أشار إليه ابن جنى فى خصائصه عند الكلام على أصل اللغة (ج ١ ص ٤٤) والذى يتلخص فى أن ألفاظ اللغة إنما يبتكرها الحكماء والعلماء بطريق التشاور فى شبه مؤتمرات أو مجامع لغوية ، إننا نرى أن مرحلة الابتكار مرحلة فردية تعقبها المرحلة الجماعية بالمعنى الذى أشرنا إليه (المترجم) .

(٤٠) كوكو اسم طائر معين بأوربا ، وقد اشتق اسمه من صوته بطريق التقليد والمحاكاة (المترجم) .

١ – التوليد الصوتى

وذلك كما فى (قهقه) و (تمايل) فنى الكلمة الأولى حدث تقليد صوت لصوت آخر ، وفى الثانية ترجمت الحركة ترجمة بيانية دقيقه بوسائل صوتية ، والمصطلح الذى يغلب إطلاقه فى حالة الكلمات التى من هذا النوع هو (محاكاة الأصوات) onomatopoeia :

٢ – التوليد النحوى

الكلمة (محترم) مثلا ليست تقليدية محضة ، ويستطيع أن يفهمها أى فرد يعرف كلا من الفعل (احترم) والميم المضمومة التى تكون إسم المفعول من الفعل الماضى المزيد ، كما فى نحو (معظم) و (مكرم) . إننا لا ننكر أن كلا من (احترم) والميم المضمومة عنصر تقليدى ، ولكن عملية التوليد النحوى تتمثل فى ضم هذين العنصرين بعضهما إلى بعض(٤١) . وما قلناه هنا ينطبق على التراكيب أيضا : فالكلمتان (ربة) و (بيت) كلمتان تقليديتان : ولكن التركيب (ربة بيت) يمكن أن يعد تركيبا مولداً بدافع الحاجة . وهكذا ترى أن جزءاً كبيراً جداً من الثروة اللفظية للغة يتكون بطريق التوليد بالصورة السابقة .

٣ – التوليد المعنوى

العبارة (عنق الزجاجة) مثلا حين تستعمل فى بعض المواقف المعينة ، سوف يفهمها فى الحال كل من يعرف أن « المنفذ الضيق للمرور » كثيراً ما يسمى بهذا الإسم . والذى يبعث على التوليد فى هذه الحالة هو الاستعمال المجازى ، أى أن هذا المنفذ الضيق أو العائق إنما سمى بعنق الزجاجة لأنه يشبهه . وقد يمتد بنا البحث فى هذه المسألة إلى أبعد من ذلك ، فنتساءل عما إذا كانت العبارة : « عنق الزجاجة»

(٤١) التمثيل هنا من صنعنا لا من صنع المؤلف ، انظر الملحوظة (٣١) (المترجم) .

عبارة مولدة أو أنها عرفية تقليدية . من الواضح أن هذا التركيب مولد ، نتج عن التشابه بين رقبة الإنسان والجزء الأعلى من الزجاجة . وإذا لم يكن بد من أن نتعمق فى البحث أكثر مما تقدم لنحدد ما إذا كانت الكلمة « رقبة » نفسها تقليدية أو ليست تقليدية ، فسوف نجد أنفسنا مضطرين إلى الإعتراف بأنها ليست مولدة والقاعدة هى أنه إذا لم يكن التوليـــد عن باعث صوتى فإن نقطة التحول فى التركيب المولد من الناحيتين النحوية والمعنوية لابد أن ترتد فى نهاية الأمر إلى بداية تقليدية .

ومن الخصائص المشتركة بين أنواع التوليد الثلاثة أن دوافعها ليست ثابتة . من الجائز مثلا أن تفقد الكلمات قوة المحاكاة والتقليد فيها ، فالكلمة اللاتينية pipionem كانت مولدة بطريق التقليد الصوتى ، ولكن الكلمة الانجليزية Pigeon المنحدرة عنها ليست كذلك (٤٢) . والكلمات المركبة والمشتقات قد يأتى عليها هى الأخرى زمن نشعر فيه بأنها ليست مولدة بدافع أو باعث ، فالكلمة الإنجليزية breakfast لم تعد تنطق : break — fast وليست أيضاً broke fast بصيغة الماضى (٤٣) .

---

(٤٢) كل من الكلمتين pigeon ؛ pipionem اسم للطائر المعروف بالحمام ولو تأملنا لأدركنا أن فى أصوات الكلمة اللاتينية نوعا من المحاكاة والتقليد لصوت هذا الطائر ، ذلك الصوت المعروف فى العربية (بالهديل) ، أما الكلمة الإنجليزية فلا تقليد فيها ولا محاكاة . ويمكن أن يمثل لهذه الحالة فى اللغة العربية بنحو قط وقطف ، فأصوات الكلمة الأولى تحكى صوت القط والقطع ، وأما الثانية — على القول بأنها ترجع فى الأصل إلى الكلمة الأولى — فقد فقدت هذه المحاكاة (المترجم) .

(٤٣) breakfast مكونة فى الأصل من كلمتين هما : الفعل break بمعنى (يقطع أو يكسر) fast بمعنى الإمساك عن الطعام . وبمرور الوقت تداخلت الكلمتان وكونتا كلمة واحدة (الفطور) حتى أصبحنا الآن لا نشعر بهـــذا التركيب مما يقوى ذلك أن الكلمة المركبة — وهى breakfast — لم تعد تنطق بطريقة توحى بتركيبها من كلمتين (المترجم) .

إن طريقة كتابتها فقط هى التى احتفظت بآثارها أصلها ، وقد يصبح الاستعمال المجازى قديماً بالياً بالتكرار المستمر بحيث لا نحس بأنه مجاز . وفى هذا المعنى جاء القول التقليدى بأن اللغة « قاموس من المجازات التى فقدت مجازيتها بالتدريج » فالمتكلم الحديث مثلا لايدرك وجود اية علاقة بين (خلق) بالمعنى المعروف ، كما فى نحو (خلق الله الخلق) وبين (خلق) فى نحو (خلق الخراز الأديم والخياط الثوب : قدره قبل القطع) وإنما يدرك هذه العلاقة أولئك اللغويون المتهمون بالبحث فى تاريخ الكلمات وأصولها . والذين يعرفون أن (خلق) الأولى كانت فى الأصل استعمالا مجازيا (لخلق) الثانية (٤٤) .

وبالرغم من أن إدراك الباعث على توليد الكلمات قد يكون واضحا فى كثير من الحالات ، فالغالب أن يعتمد هذا الإدراك على عوامل متعمقة فى الذاتية ، كاعتماده على طبع كل من المتكلم والسامع وعلى درجة إحساسهما وثقافتهما العامة ، بل وعلى مزاجهما كذلك ، كما يعتمد على طبيعة السياق وخصائصه . فالكلمات « الباهتة » الخالية من الإشعاع والإيحاء خلوا تاما فى السياقات العملية المحزنة ، ربما تكشف فجأة عن مصادر غير متوقعة من الإيحاء وقوة التعبير فى المواقف

---

(٤٤) انظر الزمخشرى : أساس البلاغة (مادة خلق) . ومما جاء فى المعنى الثانى أيضاً قول زهير :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى أى ولأنت تقطع ما قدرت وبعض القوم يقدر ولا يقطع .

والمراد : إنك تنفذ وتمضى ما ابتدأت به من الأمور . ومثله قول الحجاج فى خطبته بالكوفة . (وإنى والله ما أقول إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فريت) أى ما قدرت شيئاً وقضيت به إلا نفذته وأنجزته ومن الواضح أن المثال المذكور فى المتن هنا إنما هو من عندنا وقد آثرناه على مثال المؤلف لأنه أقرب فى الفهم إلى القارىء العربى ، وكذلك المثال فى شطرة امرىء القيس الآتية بعد (المترجم) .

الانفعالية والشاعرية . وقد يجدد الشعراء فى الصور القديمة للمعانى ويعيدون إليها الحياة التى فقدتها بالتدريج ، وذلك بالرجوع بهـــا إلى أصولها التاريخية الأولى . فعندما يقول الشاعر الحديث :

طويل اللسان فصيح البيـان .....

تبرز العبارة (طويل اللسان) فجأة ويتضح معناها القديم وضوحا لا خفاء فيه ، وهذا المعنى القديم هو الوصف بالّلسَن والبلاغة (٤٥) ويظهر ذلك بصورة أوضح عندما يعمد الشعراء إلى استغلال إمكانيات الأصوات وقدرتها على الإيحاء بالمعنى ومحاكاته ، فالملاحظ أن المعنى دائماً يعظم شأنه ويرقى إذا ما صاحبته المؤثرات الصوتية التوقيعية الخالصة . فشطرة امرىء القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا ...

بما تحتوى من كلمات قصار ، ذات مقاطع قصيرة وحركات قصيرة وأصوات الراء المشددة المكررة ـــ هذه الشطرة بهذه الخصائص الصوتية جديرة أن تخلق جوا موسيقياً خاصا ، وصورة صوتية معينة قادرة عـــلى الإيحاء بتلك الصورة التى تخيلها الشاعر وعبر عنها . وهى وصف الحصان بسرعة الجرى والركض فنى كل من الصورتين نشاط وحركة وكروفر .

وفى أماكن أخرى كثيرة قد تستغل الأصوات الموحية بمعانيها أو المحاكية للاحداث المعبر عنها استغلالا يقصد به إلى إحداث التأثير الدرامى كما فى البيت التالى من رواية « أندروماك » Andromaque لراسين Racine حيث يسمع « أورست » Orestes لحيح الأفاعى فى الهواء ، وقد أصابته لوثة من الجنون فيصيح : Pour qui sont ces serpents qui sifflent sur vos tetes
(لأجل من هذه الأفاعى التى تفح فوق رءوسكم ؟) .

---

(٤٥) هذا هو المعنى القديم لهذه العبارة ، أما الآن فهى ـ كما هو معروف ـ تستعمل فى اللغة الدارجة بمعنى السلاطة والبذاءة (المترجم) .

وقد اشتمل البيت — كما ترى — على مجموعة من أصوات الـ s التى تشبه صفير الأفاعى (٤٦).

---

(٤٦) من الوسائل التى تعرض لها اللغويون فى القديم والحديث مسألة العلاقة بين الألفاظ ومعانيها ، وإلى أى حد يمكن استغلال أصوات هذه الألفاظ فى الإيحاء بالمعنى ومحاكاته ، قصداً إلى تقويته أو تقريبه وتوضيحه، واستغلال أصوات اللغة فى هـــذا الغرض له صور كثيرة ، أظهرها وأشهرها صورتان اثنتان وهما ما تعرض لهما المؤلف فى هذا المقام . الصورة الأولى تتمثل فى الكلمات ذات الأصوات التى هى بمثابة الصدى والمحاكاة المباشرة لأصوات المدلولات أو المعانى وهذه الصورة تعرف فى الدراسات اللغوية « بمحاكاة الأصوات » onomatopoeia وقد تناولها بالدراسة كثير من اللغويين عند الكلام على أصـــل اللغة الإنسانية ونشأتها ، حيث يرى هؤلاء — أو أكثرهم — أن كلمات اللغة الإنسانية الأولى قد ابتكرت بطريق تقليد أصوات الطبيعة ومحاكاتها . ومن ذلك ما رواه ابن جنى فى الخصائص (جـ ١ ، ص ٤٦ — ٤٧ . طبعة دار الكتب) من أن بعض اللغويين يرى (ان أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح وحنين الرعـــد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبى ، ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد) . ومهما يكن الرأى فى صحة هذا الكلام أو عدم صحته ، فإن المشاهد الملموس هو أن كل لغة من اللغات الحالية تحتوى على عدد معين من الألفاظ . التى تحاكى أصواتها أصوات المدلول أو الشىء المعبر عنه بهـــذه الألفاظ مثال ذلك فى اللغة العربية : فهفه ، وقعقع لصوت السيف وقرقر لصوت البطن وقوقأ لصوت الدجاج الخ . وأكثر ما تكون هذه الصورة فى الكلمات المفردة لا فى العبارات والجمل . ولكن استعمال مثل هذه الكلمات فى العبارات والجمل من شأنه أن يمنح التركيب كله سمات صوتية معينة وأن يخلق جوا موسيقياً خاصاً يوحى بالصورة المـــراد التعبير عنها ويجعلها قريبة ملموسة ، من ذلك قول الشاعر : —

جرت الخـــيل فقالت حبطقطق حبطقطق =

وقد كانت هذه المصادر وأمثالها موضوع تعليقات كثيرة صريحة لعدد من الكتاب . من ذلك قول بوب Pope : (إن المعنى يجب أن يكون صـــدى

= وقول البحترى يصف ذئباً يعض أنيابه ويقضقضها من شدة الجوع .

يقضقض عصلا فى أسرتها الردى كقضقضة المقرور أرعده البرد

وقول الشاعر الكبير الأستاذ على الجندى :

وقلب تقضقضه الذكريا ت كما قضقض الظبية القسور

وقد تشتمل العبارة أو الجملة على عدد من الكلمات تحتوى كل واحدة منها على صوت أو أكثر يشبه أو يحاكى صوت المدلول أو الشىء الذى يتناوله الكلام ، وذلك كما فى هذا المثال الأخير الذى اقتبسه المؤلف من رواية أندروماك لراسين .

هذه الأمثلة الأخيرة التى استعملت فيها الكلمات المحاكية أو المقلدة لأصوات المدلول تقربنا من الصورة الثانية من الصور التى تستغل فيها الأصوات للإيحاء بالمعنى أو تجسيمه أو تقريبه إلى الذهن . وهذه الصورة الثانية — بعكس سابقتها — لا تعتمد على الكلمات المفردة ، وإنما تعتمد أكثر ما تعتمد على التراكيب ، حيث يعمد الكاتب أو الشاعر إلى إيراد جملة أو عبارة مؤلفة من كلمات ذات صفات صوتية معينة ، ومرتبة ترتيباً موسيقياً خاصاً ، بحيث تنقل السامع إلى الصورة المراد التعبير عنها وتجعله يعيش فيها أو تنقل إليه هذه الصورة وتجعلها بين يديه قريبة منه . ولا يشترط فى الكلمات هنا أن تكون محاكية أو مقلدة لأصوات المدلول أو الأحداث الجارية فى تلك الصورة : وإنما يشترط فى الجملة كلها أن تصاغ صياغة لفظية وموسيقية تناسب المعنى — قوة وضعفا — وتوائم الأحداث الجارية فى الموقف بأجمعه . فوظيفة التراكيب فى هذه الحالة إنما هى الإيماء إلى المعنى أو الإيحاء به ، وليست وظيفتها — ولا وظيفة مفرداتها — التقليد الصوتى أو المحاكاة الصوتية المباشرة . ومن أمثلة هذه الصورة شطرة إمرىء القيس السابقة ، ويمكن أن يمثل لها كذلك بقول العماد الأصفهانى مبشراً بفتح عكا : « جالت خيوله ، وسالت سيوله ، وطلعت فى سماء العجاج نجوم خرصانه ، وقلعت قلاع

للصوت » ويقول كيتس keats فى قصيدته « أغنية إلى بلبل » :

= تلك الجبال جبال فرسانة ، وحفرت حوافر الصلادم أصلاب الصلاب الصلاد ، وفضحت بإعراب الحماحم صواهل الجياد العراب » . ومن هذا القبيل أيضاً بعض فقرات خطبة الحجاج بالكوفة ، وأظهرها فى هذا الباب تلك الأبيات التى ذكرها فى ثنايا هذه الخطبة كقوله :

هذا أوان الشد فاشتدى زيم قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعى إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم

وقوله :

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عرد مثل ذراع البكر أو أشد

وقد أشار ابن جنى فى خصائصه إلى هذه الصورة الثانية بكلام جميل يدل على العمق والتذوق . يقول (ص ١٦٢ — ١٦٣ ، ج ٢) : إنهم « قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبها وتقديم ما يضاهى أول الحديث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسيط ما يضاهى أوسطة سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب . وذلك كقولهم : بحث ، فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض والحاء لصلحها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت فى الأرض ، والثاء للنفث والبث التراب » . غير أن ابن جنى — كما هو ملحوظ — قد ركز عنايته على الكلمات المفردة ، لا على الجمل والعبارات ، كما أنه بالغ إلى حد ما فى التماس العلاقة بين الصوتية والأحداث المعبر عنها بهذه الأصوات . وموضوع العلاقة بين الألفاظ ومعانيها قد تناوله أيضاً بوجه من الوجوه أو بصورة من الصور عدد من اللغويين المحدثين ، منهم الدكتور إبراهيم أنيس فى كتابه : « دلالة الألفاظ » والأستاذ محمد المبارك فى كتابيه « فقه اللغة ، وخصائص العربية » ولكن مع اختلاف بينهما فى المنهج وفى النتائج التى توصل إليها كل منهما (المترجم) .

(٤٧) Ferlönr, The very word is like a bell.
To call me back from that to my sole self.

وقد تؤدى شدة التأثر بالباعث الصوتى على توليد الكلمات أو الأصوات إلى ما يكاد يكون إعتقاداً غامضا فى وجود مطابقة خفية بين الصوت والمعنى . ولقد ابتدعت ب عدة نظم دقيقة ترمى إلى بيان القيمة التعبيرية الذاتية المتصلة بالأصوات المختلفة . وأشهر هذه النظم ذلك النظام الذى وضعه العالم الرمزى الفرنسى رمبو Rimbaud والذى ربط فيه كل صوت من أصوات اللين بلون معين ، فالحركة a عنده سوداء ، و e بيضاء ، و i حمراء ، و u خضراء ، و o زرقاء . ولقد اكتشف حينئذ أن الحروف التى ترمز إلى هذه الحركات كانت ملونة بهذه الألوان نفسها فى كتاب تعليم الهجاء الذى ألفه رمبو لمرحلة الطفولة المبكرة . فليس من العجيب حينئذ أن تنتهى بعض النظريات، التى تؤمن بأن للأصوات ألوانا ، إلى نتائج مختلفة تمام الاختلاف ، طبقاً لاختلاف العوامـــل الذاتية التى تتأثر بها . بل إن بعض الشعراء قد حاولوا ربط الصورة الكتابية للكلمة بمدلولها . ومن هذا القبيل ما رواه كاتب فرنسى حديث من أن الكلمة locomotive إن هى إلا وصف لصورة القطار وشكله ، كاملا بمدخنته وعجلاته .

وهذا التكلف فى التفسير ليس إلا مثلا متطرفا للميل الطبيعى فى الإنسان إلى البحث عن الأسباب والبواعث لا أسباب ولا بواعث ظاهرة . أما خارج ميدان الأصوات فهذا الميل يعبر عن نفسه فى صورة تلك الغريزة المعروفة بغريزة حب البحث عن أصول الكلمات والربط بينها etymologizing rstinct وكثير من المتكلمين العاديين يتخذون هـــذا اللون من البحث هواية لهم .وبالرغم من

---

(٤٧) يقصد الشاعر أن أصوات كلمة . forlonr نفسها (ومعناها : أيها التعس الضائع !) تشبه أو تحاكى أصوات الأجراس ، فهى ترن فى أذنه وترده عن الطائر المخاطب إلى ذات نفسه (المترجم) .

أن النتائج التى يتوصل إليها هؤلاء الهواة قد تختلف فى بعض الأحايين عما يصل إليه المتخصصون ، فإن نتائج الهواة هى التى تستقر وتثبت فى نظام اللغة .

غير أنه فى حالات كثيرة قد يخاطر الناس ويلقون بتفسيرات خاطئة فى هذا الشأن . والعادة أن تؤخذ هذه التفسيرات على أنها من قبيل التحليل « الشعبى » للكلمات popular etymology or folk-etymology ، بالرغم من أنها ليست مقصورة بحال من الأحوال على عامة الناس . والأمثلة على هذا النوع من التفسير المرفوض كثيرة مشهورة . والقاعدة هى أن الكلمات النادرة الوقوع أو الكلمات الأجنبية هى التى تتعرض بصفة خاصة لسوء الفهم وللربط الخاطىء ببعض مفردات اللغة القومية . وهاك مثلا أو مثالين على ذلك : الكلمة beifry بمعنى « برج الناقوس » ترجع فى أصلها إلى الكلمة الفرنسية القديمة beifroi (فى الفرنسية الحديثة effrei) . وهى كلمة جرمانية قديمة مركبة معناها « البرج يحتمى به » ويرجع السبب فى وجود حرف اللام فيها وكذا السبب فى معناها الحديث إلى افتراض وجود علاقة وهمية بينها وبين كلمة bell بمعنى « ناقوس » والتركيب pressgang [٤٨] لم يكن له أول الأمر علاقة بكلمة press بمعنى « إلزام وإجبار » ، إذ أن الجزء الأول من هذا التركيب يرجع إلى الكلمة الفرنسية القديمة prest (فى الفرنسية الحديثة prest (فى الفرنسية الحديثة pret بمعنى « عربون ») أو بعبارة أخرى ، المبلغ الذى كان يدفع مقدماً للجنود أو البحارة عند تسجيل أسمائهم استعداداً للتجنيد . ولكن تحرير كلمة prest إلى press جاء كما يقول البروفسور ويكلى — نتيجة طبيعية لارتباط عملية تسجيل المجندين بعنصر الضغط والإكراه . فهاتان كلمتان — إحداهما محلية الأخرى أجنبية — تداخلت إحداهما فى الأخرى وكان من نتيجة ذلك أن حصل اندماج بينهما فى الصيغة والمعنى . وأحدث من هذا ما أساء الفرنسيون فهمه من التعبيرات الإنجليزية ، كما حـــدث فى التعبير country dance ، إذ توهموا أن الكلمة الأولى منه هى counter ومن ثم

(٤٨) هذا التركيب معناه : جماعة من البحارة كانت لها سلطة إجبار الناس على الالتحاق بالأسطول « المترجم » .

جاء التركيب الفرنسى contre-dause (٤٩) كما أن الفرنسيين أيضاً قد عجزوا عن فهم العبارة الإنجليزية the game of Aunt Sally (٥٠) فرسموها بالحروف الفرنسية هكذا Jeu di l'ane sale ومعناها حينئذ « لعبة الحمار الملح » ؛ وفى بعض الحالات الأخرى ، قد يتم تحليل الكلمات البسيطة على أنها مشتقات ، فيستنبط لها أصل خيالى على طريقة الاشتقاق المعكوس ، كما فى حال الصفة البسيطة lazy التى توهم أنها مشتقة من فعل لم يكن موجوداً فى الأصل هو to laze (away) وقد أدى هذا إلى ظهور هذا الفعل الذى انتزع واشتق من هذه الصفة وكان المفروض أن يحدث العكس (٥١) .

---

(٤٩) العبارة country dance معناها « الرقص الريفى » ، أما الكلمة counter فمعناها « مضاد » أو « مقابل » والتعبير الفرنسى contre-dause يطلق على « رقصة معينة تؤدى فى شبه مربع ويشترك فيها ثمانية أشخاص فى أربع مجموعات » وهكذا نرى أن المعنى الفرنسى يختلف إختلافاً كبيراً عن المعنى الإنجليزى نتيجة لسوء فهم الفرنسيين للعبارة الإنجليزية « المترجم » .

(٥٠) the game of Aunt Sally إسم لعبة إنجليزية توجد فى مدينة الملاهى ، وهى عبارة عن « دمية يثبت فى فمها غليون يستعمل هـــدفاً للرماية » (المترجم) .

(٥١) وتوضيح ذلك هو أن الصفة Lazy صفة بسيطة جامدة وليست مشتقة ، ولكن الناس — لظنهم أن كل صفة يجب أن تكون مشتقة — قد افترضوا لها أصلا هو الفعل to laze . وهذا الأصل نفسه قد انتزعوه من الصفة على طريقة الاشتقاق المعكوس back formation ، وسمى هـــذا الاشتقاق اشتقاقاً معكوساً لأن القاعدة — كما هو معروف — هى أن تشتق من الفعل ، ولكن الذى حدث فى مثالنا هذا هو العكس إذ اشتق الفعل من الصفة (المترجم) .

مثل هذا السلوك فى التفسير اللغوى قد يحدث أيضاً فى ميدان المعنى . من ذلك مثلا أن الناس قد يربطون ربطا وهمياً بين معانى الكلمات المتشابهة أو المتماثلة فى اللفظ . فالكلمتان ear بمعنى أذن الإنسان و ear بمعنى « سنبلة القمح » لا علاقة بينهما من الناحية التاريخية : الكلمة الأولى فى اللغة اللاتينية هى auris والثانية acus و aceris ، وكل ما بين هاتين الكلمتين من توافق فى اللغة الإنجليزية لايعدو الناحية الشكلية ، ولكن غريزة حب البحث فى أصول الكلمات وعما قد يكون بينهما من علاقات لم تقنع بهذه الحقيقة ، فهذه الغريزة قد دفعت بالناس إلى اكتشاف وجه شبه — فى الشكل والوظيفة — بين أذن الإنسان وبين سنبلة القمح spike of corn ، ومن ثم فسروا الكلمة ear بالمعنى الأخير على أنها استعمال مجازى للمعنى الأول . وقد اعتمدوا فى تحليلهم هذا على الواقع الملموس من إطلاق أسماء كثير من أعضاء الإنسان على الجمادات ، كما فى نحو « رجل المنضدة » ، لسان البحر » ، « عنق الزجاجة » ألخ ومهما يكن من أمر ، فإن المرجع النهائى فى هذه الأمور كلها إنما هو المتكلم ، أو قل إنما هى الجماعة اللغوية . فإذا كان هناك شعور عام بوجود علاقة بين شيئين فالعلاقة إذن موجودة بالفعل وتصبح هذه العلاقة — تلقائيا — حقيقة من حقائق اللغة ، بقطع النظر عما إذا كان لها أساس تاريخى أولا .

أضف إلى ذلك أن هناك خلافا فى الرأى بين علماء اللغة المحترفين أنفسهم حول الأهمية التى يمكن أن نعلقها على تقليدية الكلمات أو توليد فى تركيب اللغة : فبعض هؤلاء العلماء يميل إلى تأكيد أهمية التقليدية مع التقليل من شأن التوليد فى هذا المضمار . وهؤلاء يتفقون مع ما تقوله « جرليت » على لسان شيكسبير :

ماذا فى اللفظ ! إن ما نسميه وردة سوف يحتفظ برائحته الزكية .

فيما لو سميناه باسم آخر(٥٢) .

---

(٥٢) المعنى الذى يريد أن يصل إليه المؤلف من إيراد هذه العبارة هو أن اللفظ — على رأى هذا الفريق من العلماء — لايدل على المعنى بذاته . فاللفظ « وردة » مثلا إنما دل على هذه الزهرة المعينة لا لوجود علاقة طبيعية أو ذاتية بينهما أو لأن أصواته تنبىء عن هذه العلاقة ، بل لأن العرف والتقليد جريا =

وهناك آخرون — منهم الأستاذ يسبرسن Jesperson — يرون أن التوليد عن طريق المحاكاة والتقليد بواسطة الصوت له دور ذو أهمية وحيوية باللغة . ولقد جميع يسبرسن مجموعة ضخمة من الشواهد ليدلل بها على أن الحركة (i) قد هيئت بصفة خاصة للتعبير عن الصغر والقلة ، كما في الأمثلة الآتية وفى أمثلة أخرى كثيرة :

little, wee, tiny, teeny, slim, kid, chit. imp, slip, pigmy, midge bit, whit etc.

وفى الفرنسية Petit والايطالية **piccolo** والمنغارية kis والإغريقية القديمة mikros ، وكلها تعنى « قليل أو صغير » أو نحو ذلك (٥٣) .

= على ربط هذا اللفظ بهذا المدلول فقط ، ويؤيد ذلك - كما تقول جوليت - أننا لو سمينا الوردة بلفظ آخر لظلت هذه الزهرة طيبة الرائحة ولا يغير من طبيعتها وخصائصها تغيير الإسم الذى تسمى به (المترجم) .

(٥٣) الحركة (i) تقابل حركة الكسر فى اللغة العربية فى غير مواقع التفخيم والكلام كله منصب هنا على النطق ، فلا عبرة بالكتابة فى هذا المجال إطلاقاً . فكلمة wee مثلا تنطق هكذا : **wii** بكسرة طويلة ، والحركة المعنية فى tiny هى الحركة الأخيرة الموسومة فى الخط بحرف y ، لا الحركة الأولى لأنها لا تنطق بالكسرة ، ويمكن تصويره الكلمة من ناحية النطق هكذا : taini . وفى teeny كسرتان الأولى طويلة والثانية - المرسومة بحرف y - قصيرة tiini ، وفى pigmy كسرتان قصيرتان ، وقد رمز إلى الأولى بالحركة (i) وإلى الثانية بالحرف y . بقى أن نشير هنا إلى أن بعض علماء اللغة العربية - وعلى رأس المحدثين منهم الدكتور ابراهيم أنيس - يذهبون إلى ما يشبه رأى يسبرسن من ربط الكسرة بالصغر والقلة . يقول الدكتور أنيس (دلالة الألفاظ ص٦٦): قد ترتبط الألفاظ بالدلالات فى بعض الحالات النفسية كالكلمات التى تعبر عن الغضب أو النفور والكره ، كما قد ترتبط بحجم الأشياء أو أبعادها . فقط لوحظ أن الكسرة وما يتفرع عنها من ياء المد ترمز فى كثير من اللغات إلى صغر الحجم أو قرب المسافة . ففى العربية مثلا نجد أن الياء هى علامة التصغير وأن الكسرة =

ومهما يكن لهذه الأمثلة من وقع وتأثير ، فإنه من الصعب أن نصل إلى رأى قاطع فى مثل هذه الافتراضات ، كما أنه من الممكن أن نورد أمثلة تشذ عن هذه القاعدة كما فى الكلمتين big - small اللتين يجب أن يكون معناهما عكس ما تعارفنا عليه فيما لو أخذنا بنظرية يسبرسن (٥٤) . ومع ذلك فإن الخيال الخلاق لكل من الطفل والبالغ حين ينسج على منوال التقليد والمحاكاة فيولد كلمات ذات نماذج معينة ، يدل على أن هناك قوى مبهمة تعمل عملها فى هذا التوليد . غاية الأمر أنه من الصعب تحديد هذه القوى أو إخضاعها للتقعيد . وهذه القوى يدل عليها أيضا ذلك الدور الذى تلعبه مثل هذه الكلمات المولدة فى التعبيرات الأدبية الفنية والانفعالية . ومن أمثلة هذا التوليد تلك الكلمات التى تبدأ بالأصوات - Si و Sn - فى اللغة الإنجليزية ، كما فى نحو : sniff, sniggr, snip, snivel, siek و stick slide, sline, slippery, slope, etc

---

= علامة التأنيث ، . وانظر أيضاً ص ٨٢ من المرجع نفسه ، وص ٨١ من كتاب « اللهجات العربية » للدكتور أنيس أيضا . أما نحن فنرى ما يراه مؤلف الكتاب الذى بين أيدينا من أن هذه الأمثلة ونحوها لا يمكن أن تستخلص منها قواعد عامة مطردة ، وكل ما حدث هو وقوع هذه الظاهرة فى عدد محدود من الأمثلة التى لاتنهض دليلا قاطعاً على صحة ما افترضه هؤلاء الباحثون . ومع ذلك فهذه ملاحظات لها قيمتها وأهميتها ، إذ هى تثير فينا الرغبة فى البحث والاستقصاء لعلنا نصل فى النهاية إلى نتائج علمية دقيقة فى هذا الشأن (المترجم) .

(٥٤) الكلمة big معناها « ضخم أو كبير » و small « معناها « صغير أو قليل » وهذا التفسير ينقض نظرية يسبرسن التى تربط الحركة « i » بالصغر والقلة . لو كانت هذه النظرية صحيحة أو مطردة لوجب أن تكون معانى هاتين الكلمتين عكس ما قررنا وبخاصة معنى big ، لأنها تشتمل على الحركة « i » (المترجم) .

(٥٥) يريد المؤلف بهذه الأمثلة أن يوضح رأيه السابق وهو أن إنكاره وجود ارتباط بين بعض الأصوات وبعض المدلولات أو الحوادث لايعنى عدم وجود هذا الارتباط نهائيا . إنه ينكر أن يكون الارتباط ارتباطا كاملا =

ولقد وردت إلينا تخمينات وافتراضات شتى ـ علمية وغير علمية ـ منذ أيام الإغريق القدماء تتعلق بأصل اللغة ونشأتها ، وقد ركزت بعض هذه الافتراضات

مطردا ، بحيث نحصل منه على قواعد عامة يمكن الاعتماد عليها ، ولكن هذا لا يمنع أن تكون هناك أمثلة يتحقق فيها هذا الارتباط بوجه من الوجوه أو بصورة من الصور ، كما في الأمثلة التي ذكرها . ففي كل كلمة من هذه الأمثلة — بمجموعتيها — نوع من الارتباط بين أصواتها وبين الحدث المعبر عنه ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ، نلاحظ أن معاني كل مجموعة منها معان متشابهة ، بل متماثلة أحيانا . ويرجع هذا — كما يفهم من كلام المؤلف — إلى أن أصحاب هذه اللغة قد نسجوا في توليد الكلمات على منوال واحد من حيث بدء هذه الكلمات بأصوات معينة — هي sn ، sl — ليدلوا بها على معـــان أو أحداث لها صفات متقاربة أو متشابهة ، تأكيدا للتقابل أو الارتباط بين الأصوات والمعاني أو المدلولات . ولعل في ذكر معاني هذه الكلمات ما يؤكد هذه الفكرة. معاني كلمات المجموعة الأولى — هي من اليسار إلى اليمين — (١) يصدر صوتا يشبه صوت الاستنشاق للتهكم والاحتقار . (٢) يضحك ضحكا مكتوما ، تهكما وسخرية . (٣) يقص الثوب بالمقص بسرعة وفجأة (٤) يبكي بصوت يشبه صوت الأطفال في البكاء أو ما يعبر عنه « بيشتهق » وقد يكون معناها أيضا « سحب المخاط إلى الداخل » أو « يشن » باللغة الدارجة . ومعاني المجموعة الثانية بالترتيب نفسه هي : (١) زلق «ومنه ذلق اللسان بمعنى smooth - tongued »(٢) زلق أيضاً نحو طريق زلق أو مزحلق ، (٣) طين لزج (٤) زلق أو مزحلق (٥) منحدر أو « مدحرج » . وهذه الحالة — وهي النسج على منوال واحد من حيث بدء الكلمات بأصوات موحدة للدلالة على معان أو أحداث ذات صفات متقاربة أو متشابهة — قد أشار إليها الأستاذ فيرث وسماها « الوظيفة الفوستيتيكية للأصوات Phonaesthetic function » ويعني بها الإيحاء « بوجود علاقات واضحة بين الكلمات المبدوءة بأصوات متجانسة وبعض الخصائص أو السمات العامة المميزة لبعض المقامات اللغوية وما يجري فيها من أحداث » . أنظر . فيرث : دراسات في علم اللغة . ص ٤٤ وما بعدها (المترجم) .

كل اهتمامها على رمزية الأصوات ، ويرى أصحاب النظرية المعروفة بنظرية bow — wow أن الكلمات كانت فى الأصل تقليداً لأصوات الطبيعة . كما هى حالها الآن فى لغة الأطفال . أما النظرية المسماة بنظرية pooh — pooh فقد تتبعت الكلمات حتى أوصلتها إلى الصرخات والأصوات الانفعالية ، بينما تفترض نظرية ding — dang وجود علاقة خفية بين الصوت والمعنى . وقد حاول بعض الباحثين — كالسير ريتشارد باجيت Sit Richeard Paget — ارجاع الكلام الإنسانى إلى الاشارات والإيماءات وربطه بها ، بالرغم من أن هؤلاء الباحثين لايزالون يميلون إلى الاعتقاد بأن العامل الأول فى نشأة اللغة إنما هو الحاجة إلى التعبير والإفصاح عن الذات . ولم يقتصر الأمر على هذه الافتراضات بل لقد سبقت إلينا آراء أخرى كثيرة تقابل النظريات السابقة . ولكن بالرغم من هذا كله ، ليس فى استطاعتنا أن نصل إلى نتائج نهائيه فى هذا الشأن . إننا — أولا وقبل كل شيء — لانعرف ما إذا كانت اللغة الإنسانية قد ظهرت فى مكان واحد أو فى أماكن متعددة على وجه الأرض ، كما أنه ليس من المنتظر أن نحصل على شواهد تدل دلالة مباشرة على ما قد حدث بالفعل منذ نصف مليون سنة أو ما يقرب من هذا التاريخ . ولذلك كان لزاما علينا أن نطبق — بمنتهى الحيطة والحذر — تلك النتائج التى توصلت إليها الدراسات الخاصة باللغات البدائية ، ودراسات علم اللغة المقارن وعلم الأجناس البشرية وعلم نفس الطفل والحيوان ومع ذلك قد يكون تخميننا تخمينا صادقا إذا افترضنا أن حاجة الانسان إلى التعبير عن نفسه والافصاح عنها لابد أنها قد لعبت دورا مهما فى عملية خلق اللغة ، بالرغم من أن الدافع الأول إلى هذا الخلق قد يكون ناتجا عن الحاجة إلى الاتصال والتبادل الاجتماعيين . إن المشكلة الحقيقية فى هذا الموضوع هى المرحلة الواقعة بين توليد الكلمات وابتكارها بدافع الحاجة وبين صيرورة هذه الكلمات عرفية تقليدية . هذه المرحلة لاتزال تنتظر الكثير من التوضيح والتفسير .

الغموض

كثير من الكلمات لها معان محددة تحديداً واضحاً ، فبعضها يدل دلالة قاطعه على أشياء أو صفات أو أحداث معينة . وبعض آخر — بالرغم من ندرته

واتصافه بالتجريد — عبارة عن مصطلحات علمية أو فنية ذات مفهومات دقيقة وهناك مجموعة ثالثة تنتمى كلماتها إلى بعض الوحدات أو القطاعات الكبيرة من الثروة اللفظية ، كافة المصطلحات أو أى نظام آخر من نظم تسمية الأشياء ، حيث تعمل كل واحدة منها على تحديد مجال أختها ، أو بعبارة أخرى ، حيث تتلاءم أعضاء هذه الوحدات ملاءمة تحديد وظيفة كل منها وقيمتها داخل هذا الاطار العام . هذه المجموعات الثلاث سوف نعرض لها بمزيد من القول فى الفصل الأول من الباب الأخير .

وهناك من جهة أخرى جزء كبير من الثروة اللفظية يمثل الجانب المعقد من المشكلة ، حيث تكون المدلولات غامضة وغير محددة فى أكثر الأحوال . وإذا ما اشتمل المدلول على عنصر مرئى فإن هذا العنصر عادة لايعدو أن يكون مجرد تخطيط إجمالى لهذا المدلول ، بل إننا حين نحاول أن « نستدعى » الصورة الذهنية لمنضدة مثلا لن نحصل — على أحسن الفروض — إلا على هيكل عام استخلص استخلاصاً من المناضد المتنوعة التى قابلناها أو وقعت تحت خبرتنا . أما حجم هذه المنضدة ولونها والمادة التى صنعت منها — بل وكذلك شكلها — فالسياق وحده هو الكفيل بتحديد هذه الأشياء وتوضيحها . وإذا ما انتقلنا إلى مجال المدركات العامة والأمور المجردة فإن كل عنصر مرئى سوف يختفى ويزول نهائياً ، ويحل محله ما قد اصطلحنا على تسميته بجرد « عملية من عمليات الربط الذهنى » والظاهر أن الكلمات وحدها هى التى تمنح — فى كثير من الحالات — هذه المدركات العامة وتلك الأمور المجردة نوعا من الوجود المادى . بدليل أننا نستطيع أن نتكلم بكل سهولة عن الجمال كما لو كان نوعا من المادة أو سائلا من السوائل التى تعد الأشياء الجميلة أوعية لها ظروفاً . فليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة إذن إذا اختلفت معانى هـــذه الأمور والمدركات أو تداخلت فى المعانى أو تضاربت إلى حد بعيد . إنه لا أمل فى وجود التفكير المجرد المطلق بدون التعرف على تأثير اللغة . بل إنه من المشكوك فيه — كما سنرى فيما بعد — ما إذا كان من المستطاع أن يتحقق أى نوع من التفكير أو أن يخرج إلى حيز الوجود بدون كلمات . وهذه القضية يعبر عنها الأستاذ سبيرمان Speaarman بقوله : « يبدو أن الاستقرار الذى نعهده فى معانى الأمور المجردة والمدركات العامة يكاد ينحصر

سهيه فى حقيقة واحدة ، تلك هى أن هذه الأمور والمدركات إنما يعبر عنها وتصاغ فى لغة تقليدية متفق عليها (وبخاصة اللغة المكتوبة) . فهى فى ذلك تشبه السبائك المنصهرة تصب فى قوالب صك النقود ، ثم — بعد مرورها فى عملية الإعداد المناسبة من سحب وطرق وضغط — تصدر عملة رسمية صالحة للتداول العام .

وعلى فرض أننا استطعنا أن نعين لب المعنى وجوهره بصورة لا يتطرق إليها شك ، فإن حدود هذا المعنى سوف تظل غامضة ومائعة ، مع احتمال وجود حالات كثيرة من التداخل بين هذه الحدود . ولنا أن نتساءل مثلا : هل هناك حدود فاصلة فصلا تاما بين « الردى » و « الهلاك » أو بين « الغنى » و « الثراء » ؟ إن المدلول فى نظر الفكر الحديث عبارة عن مجموعة من الدوائر أو المناطق المتحدة المركز المختلفة الحدود ، أى أن المعنى الأساسى للكلمات محدود ومعين بصفة عامة ، ولكن الجوانب الخارجية لهذا المعنى غامضة وغير ثابتة ، وهى فى أساسها جوانب عامة وغير محدودة ، وفى حاجة إلى مزيد من التوضيح المستمد من السياق والمقام .

وهناك عوامل إضافية مختلفة من شأنها أن تعقد هذا الموضوع . من ذلك مثلا أن بعض الكلمات قد تدل على أشياء ليست مألوفة لدى غالبية المتكلمين . فسكان المدن مثلا قد لا تكون لديهم إلا فكرة غامضة جدا عن المعنى الدقيق لبعض أسماء النباتات . وفى حالات أخرى قد يستحيل علينا أن نعزل الشىء عن غيره أو أن نميزه من ذلك الغير تمييزاً دقيقاً ، كما فى حالة الألوان مثلا ، فهذه الألوان يتداخل بعضها فى بعض بصورة تدريجية بحيث يصبح الفصل بينها أو تقسيمها إلى أنواع أو مجموعات أمراً مصطنعاً ومتكلفاً إلى حد بعيد(٥٦) . وأهم من هذا كله أن أكثر الأشياء تحديداً ووضوحاً قد يكون له جوانب أو وجوه عدة . غير أن وجها أو جانباً واحداً منها فقط هو الذى يناسب متكلما بعينه أو موقفا بالذات. فالكلمة « منزل » مثلا — ومدلولها الأساسى محل سكن الإنسان أو إقامته — تعنى شيئاً معينا بالنسبة للمهندس المعمارى . وشيئاً آخر لدى البناء ، ولها كذلك

(٥٦) أنظر الفصل الأول من الباب الرابع (المؤلف) .

معى يختلف عن هذين المعنيين عند سمسار المساكن وعملائه . لا تنكر أن هذه الجوانب كلها ما هى إلا ألوان أو ظلال بسيطة للمعنى ، أو ما هى إلا بمجرد اختلاف استعمال الكلمات وتطبيقها ، ولكنها مع ذلك قد تصبح بداية الطريق إلى تطورات غامضة ومتشعبة إلى حد كبير .

إن غموض المدلول وعدم وجود حدود دقيقة ثابتة لهذا المدلول قد تناولهما نقاد اللغة بالمدح تارة وبالذم أخرى . يتساءل القديس « أوجستين » Augustine « ما الزمن إذن ؟ إذا لم يسألنى أحد فإننى أعرف ، ولو سئلت وحاولت أن أجيب فإننى لا أعرف » . فالحكم إذن بأن اللفظ يدل على معناه دلالة دقيقة إنما هو حكم اضطرارى مؤقت ، وليس حكما يمثل الحقيقة فى شىء . وقد بات من المقرر أن من الأهداف الكبرى لعلم المعنى العام general semantics توجيه حملة لا هوادة فيها ضد كل الأمور المتوية والأفكار المجردة التى تؤدى إلى الزيف والتضليل .

أما وقد تبين لنا قصور الكلمات عن أن تكون وسائل للتبادل اللغوى بصورة منطقية محكمة ، فقد كان من المتوقع أن يكون لها على الأقل بعض المزايا الفنية التى تعوض هذا النقص . ولكن الآراء فى هذه الحالة أيضاً تختلف طبقاً للمذاهب الجمالية . فبيرون Byron مثلا دائم الشكوى من خلو كلماته من الروعة والبهجة .

يا ليت كلماتى كانت ألوانا ، حتى تستطيع تموجاتها أن تحدد الفكرة أو أن تومىء بها .

فى حين أن مدارس أخرى — وبخاصة المدارس الرمزية — ترحب بالانبهام الذى يحيط بالكلمات ، وتعلق أهمية كبرى على الكنايات والقوى الإيحائية فيها . وفى تصريح شعرى يتضمن رأى هذه المدرسة ، يعلن بول فيرلين Paul Verlaine فى جرأة وصراحة .

Rien du plus cher que chanson grise
On l'indecis ou Precis sejoint

(لا شيء أجمل من الأغنية السكرى حيث يختلط اللا محدود بالمحدود) .

وهناك فى مجال الشعر تختلف الآراء فيما إذا كان أساسه الموسيقى الخالصة أو وضوح الفكرة ودقتها . كما هى النظرة المثالية التقليدية . ومن البديهى أن هذه القضايا ليست من ميادين الدراسات اللغوية . ولكن يجب ألا ننسى أنها متفرعة عن مشكلة المعنى .

المعنى العاطفى

اللغة — كما رأينا — يمكن أن تؤدى وظيفتين رئيسيتين . قد تكون أداة للتعبير عن الحقائق والقضايا الموضوعية ، وفى هذه الحالة يكون هدفها مجرد توصيل الأفكار ونقلها ولكنها أيضاً قد تكون أيضاً ذات وظيفة عاطفية وديناميكية بصفة أساسية ، أى أن وظيفتها حينئذ هى التعبير عن العواطف والانفعالات وإثارة المشاعر والتأثير فى السلوك الإنسانى ، والواقع أن هذين الجانبين موجودان فى معظم أساليب الكلام ، ولكن بنسب تتفاوت من القضايا المجردة ذات الصبغة المنطقية الخالصة إلى الأصوات التعجبية والصرخات التعبيرية .

وقد تسهم كل جوانب اللغة فيما تحدثه الكلام من تأثير عاطفى أو انفعالى فالنبر والإيقاع والتنغيم واختيار الكلمات واللواحق ونظام ترتيب الكلمات ومواقعها فى الجمل والعبارات — هذه الأشياء كلها قد يكون لها نصيب فى إحداث هذا التأثير وهكذا تستطيع الكلمات أن تعبر عن العواطف والانفعالات بفضل المضمون العاطفى الذى تكتسبه فى بعض المواقف المعينة . وربما يكون المضمون قوياً إلى درجة يتسبب عنها اختفاء ذلك القدر الثابت من المعنى المنطقى اختفاءا تاماً ، بل إن هذا القدر يصبح هدفاً للسخرية والتسفيه ، كما يلاحظ ذلك فى بعض الاصطلاحات القابلة للاستغلال السيء والتى يطلقها السياسيون على خصومهم ومعارضيهم . ومن أمثلة ذلك « الديكتاتورية » و « الرجعية » وعدد آخر من الكلمات التى تنتهى باللاحقة ism ذات الشهرة البغيضة (٥٧) .

---

(٥٧) انظر ص (المترجم) .

وقد تتعدد مصادر العنصر العاطفى فى معنى الكلمة . فأحياناً يكون المعنى بطبيعته مثيراً للشعور والإحساسات القوية . من ذلك أن الكلمات التى تدل على القيم الخلقية نحو : حرية ، عدل ، حق ، والصفات التى تستعمل فى المدح أو القدح مثل : طيب ، جميل ، رقيق ، شنيع ، دنىء وحقير . كلها ألفاظ يصعب تخليصها أو تجريدها مما فيها من إيحاءات ذاتية عاطفية . وأحياناً أخرى ، قد يكون اللفظ نفسه بماله من وقع صوتى معين عاملا من عوامل التأثير العاطفى للمعنى ، فالمعروف أن بعض الأصوات وبعض التراكيب الصوتية ذات قوة تعبيرية عن المعنى وملاءمة لهذا المعنى بوجه خاص . وهذا هو معنى رمزية الأصوات التى نوقشت سابقاً فى هذا الفصل (٥٨) . ومع ذلك فمن المهم أن تعرف أن اللفظ بنفسه لا يكاد يعمل شيئاً فى هذا الشأن ، ومن الممكن أن نوضح هذه الحقيقة بدراسة عدد من أمثلة المشترك اللفظى : الفعل الإنجليزى to ring بمعنى « يرن » له قوة تعبيرية وإيحائية واضحة فى نحو a ringing voice « صوت رنان » ولكن ما يشترك معه فى اللفظ وهو a ring بمعنى « خاتم » ليست له هذه القوة ، إذ لا يوجد أى اشتراك فى الخصائص بين الصوت والمعنى فى هذه الحالة . كما أن اللفظ tolling فى العبارة the tolling of a bell أى « دق الجرس » لفظ يحتوى على عنصر التقليد الصوتى والإيحاء بالمعنى ، ولكن نظيره فى اللفظ فى : toll-bar بمعنى « بوابة تحصيل المكوس » ليست فيه هذه الخاصية . ومن هذا القبيل أيضاً : the pealing of bells و the peeling

---

(٥٨) أنظر ص ٧٦ — ٨١ (المترجم) .

(٥٩) الكلمتان pealing و peeling من باب المشترك اللفظى لاتحادهما فى النطق ، وإن اختلفت صورتهما الكتابية . والكلمة الأولى معناها « الرنين القوى للأجراس » ويرى المؤلف أن أصواتها توحى بمعناها إيحاء من نوع ما . أما الكلمة الثانية — وهى peling — فمعناها فى هذا السياق « تقشير البطاطس » وهذه لا إيحاء فى أصواتها ، وهذا يؤيد وجهة النظر القائلة بأن الأصوات أو الألفاظ لا تدل على المعانى بذواتها أو طبيعتها ، وإنما تدل عليها بطريق الربط بينها وبين خصائص هذه المعانى ومميزاتها (المترجم) .

of potatoes (٥٩) والأمثلة الفرنسية somber « معتم » و ombre « ظل » nombre « عدد » و decombes « أنقاض » ، كلها كلمات توحى بمعانيها أبلغ إيحاء وتستغل استغلالا واسع النطاق فى القوافى الشعرية . أما الكلمة concombre فقد كان من الممكن أن تكون أكثر تعبيراً عن معناها وأكثر إيحاء بهذا المعنى من الكلمات السابقة ، لولا أن هذا المعنى وهو « قثاء » قد حرمها من هذه الخاصة .

وهناك مصدر آخر مألوف من المصادر التى تثير فى النفس إحساسات خاصة بما تمدنا به من ألوان أو ظلال معنوية إضافية ، ويتمثل هذا المصدر فى قوة الكلمات على « الاستدعاء » فالملاحظ أن وقوع الكلمات فى نماذج معينة من السياقات يكسبها جواً خاصاً ويحيطها بملابسات تعين فى الحال على « استحضار » البيئة التى تنتمى إليها هذه الكلمات ، ومصداق ذلك أننا نرى المصطلحات الفنية أو المهنية أو العلمية يحمل فى ثناياها طابع الذين يستعملونها من المتخصصين : ومن الملاحظ كذلك أن مقاييس لغة الكتابة تختلف عن مقاييس الكلام الدارج ، ولهذا كان الخلط بين الأسلوبين مدعاة إلى الاضطراب والتنافر . واستعمال الكلمات المهجوره أو الأجنبية يوحى بالتفوق والامتياز أو التكلف والتعاظم على حسب ما تكون الحالة الخاصة ، وقد تزيد التعبيرات الدارجة واصطلاحات اللهجات العامية فى بهجة الأسلوب وحيويته إذا استعملت استعمالا لبقاً ، غير أن ذلك يحتاج إلى حس مرهف ، وإلى قـــدرة فائقة على ضبط النفس وكبح جماحها من الشطط وتجاوز الحدود . وأن الأسلوب يتضمن فكرة اختيار الأنسب من بين طرائق التعبير الممكنة التى تضعها اللغة بين يدى الكاتب أو المتكلم ، وإذا كان الاختيار من بين المترادفات المتحدة المعنى الموضوعى ، فهذا الاختيار بوجه خاص هو الذى يظهر مهارة الكاتب أو المتكلم وقدرته عـــلى تناول الظلال والألوان العاطفية والجمالية لهذا المعنى . وإن مثالا واحـــداً ليكفى لتوضيح هذه النقطة البديهية . أنه من الصعب مثلا أن نجد أى فرق من ناحـــية المعنى المنطقى الصرف بين الكلمات : Little, small, tiny, Wee, minute, microscopic infiniteimal ومع ذلك فهذه الكلمات نفسها لا تقبـــل التبادل فيما بينها فى الموقف الواحد أو السياق الواحد ، وإن جاز عليها قبول أى شىء آخر (٦٠)

(٦٠) المعنى التام لكل هذه الألفاظ هو . صغير أو قليل ، أو دقيق ، =

إن غموض المدلول والدور الذى تلعبه العناصر العاطفية يمقدان بنية أبسط وأوضح صورة من صور الجوانب التى يتكون منها المعنى ، ولقد اعتاد إردمان Erdmann — وهو باحث قديم فى الموضوع — أن يفرق بين ثلاثة جوانب للمعنى ، هى : (١) المعنى الأساسى أو المركزى (٢) المعنى التطبيقى أو السياقى (٣) المضمون العاطفى أو الانفعالى . أما خطة الدكتور ريتشاردز التى بسطها فى كتابه « النقد العملى » Practical Criticism فهى تفرق بين « المدلول » وبين « النغمة » ويقصد بها ، وجهة النظر إلى الشىء المتحدث عنه » و « الشعور » أى اشعور المتكلم نحو السامع ، و « القصد » هذه الخطط وأمثالها قد تكون ذات فائدة فى أنها ترشدنا إلى الجوانب المختلفة للمعنى ، ولكن يجب ألا نخدع بها فنحاول فصل هذه الجوانب أو عزلها بعضها عن بعض ، إذ أنها فى حقيقة الأمر غير قابلة للفصل أو العزل .

إن المصادر التى تمد المعنى بالعناصر العاطفية والانفعالية والتى نوقشت حتى الآن هى جزء لا يتجزأ من النظام اللغوى : فهى تفرض نفسها على الجماعة اللغوية كلما سنحت الفرصة لذلك . ويكون تأثيرها حينئذ تأثيراً عاما مطرداً إلى حد بعيد . ولكن هناك حالات أخرى فردية أكثر منها جماعية . فالظروف والملابسات الشخصية مثلا قد تكون هى العاملة فى تحديد نوع رد الفعل الذى يصدر من كل واحد منا تجاه الكلمات ، بل وتجاه أسماء الأعلام . ويستوى فى هذا أن يكون رد الفعل بالاستحسان أو الاستهجان . ونستطيع أن نلمس هذه الحالة فى أخبار الصحف . فهذه الأخبار تبين لنا كيف يكون تأثر الناس بظروفهم وحالاتهم الخاصة تأثراً قوياً ، وكيف أن هذا التأثر — الذى قد يكون بالرضا والاستحسان أو بالنفور والاشمئزاز — لايمكن تعليله أو توضيحه ، وذلك لارتباطه بعوامل شخصية ذاتية ، زد على ذلك ، أن الألوان العاطفية أو الانفعالية للمعنى قد تكون مقصورة على سياقات فردية ، كما يتضح ذلك من تلك الفقرة التى اقتبسها من رواية « حلم ليلة منتصف الصيف » ، والتى أوردناها فى الباب السابق من هذا

= ولكن كل لفظ منها له مع ذلك لون أو ظل خاص من المعنى الذى لا ينطبق على الألفاظ الأخرى (المترجم) .

الكتاب[٦١] ، أضف إلى ذلك أن الكلمات العادية الباهتة إلى أقصى حد قد تكتسب فجأة مضموناً عاطفيا قويا ، مضمونا يفوق عنه فى العادة ويبرز أهميته النبر والتنغيم .

والمعنى العاطفى كأى عنصر من عناصر النظام اللغوى معرض للتغيير وعدم الثبات . فالشعارات العصرية والنداءات المذهبية الخاصة مثلا كثيراً ماتفقد قوتها وتصبح جدباء عقيما فى مغزاها وتأثيرها وقد يكون ذلك راجعا إلى أن الظروف الأصلية التى انبثقت منها هذه الشعارات والنداءات قد فقدت فاعليتها وزال تأثيرها ، أو أنه قد حدث تلطيف فى درجة الانفعال والحماس المرتبطين بهذه النداءات والشعارات . ومن ثم لا يستطيع النداءان : « حكومة وطنية » و « الحقوق الانتخابية للمرأة » أن يثيرا الآن فى النفس ما قد أثاراه فى يوم من الأيام من الانفعالات الحادة والشعور القوى . وهناك عامل آخر من العوامل التى تسلب الكلمة أو العبارة قوتها وتأثيرها ، ويتمثل هذا العامل فيما يعرف « بقانون التضاؤل التدريجى » ، ذلك القانون الذى سوف نراه يقوم بدور كبير فى تغيير المعنى فى أحيان كثيرة . فالمجازات مثلا والمصطلحات البيئية الخاصة وأساليب المبالغة بل وأساليب حسن التعبير — كل هذه لابد أن تفقد ألوانها المعنوية الخاصة وأن تحرم من قوتها التعبيرية الإيحائية بكثرة التكرار والترداد ، ومن ثم تصبح هذه الصورة التعبيريه فى حاجة إلى تعزيز وتقوية دائمين ، وهذا كله لا بد أن يجعل الثروة اللفظية فى حركة مستمرة ، وبهذه الطريقة يبرز المعنى العاطفى بوصفه قوة من القوى الخطيرة ذات الأثر البالغ فى تاريخ اللغة .

---

(٦١) أنظر ص ٥٦ (المترجم) .

الفصل الثانى

المعنى المتعدد

المعنى المتعدد يتحقق فى صورتين إثنتين : فقد يرتبط عـــدد من الألفاظ بمدلول واحد أو العكس ، أى قد يكون الارتباط بين مدلولات عدة ولفظ واحد .

ا : مدلول واحد ـ ألفاظ عدة

المصطلح المألوف الذى يطلق عـــلى هذه الحالة هو الترادف synonymy والمترادفات هى ألفاظ متحدة المعنى وقابلة للتبادل فيما بينها فى أى سياق . والترادف التام ــ بالرغم من عدم استحالته ــ نادر الوقوع إلى درجة كبيرة ، فهو نوع من الكماليات التى لا تستطيع اللغة أن تجود بها فى سهولة ويسر . وإذا ما وقع هـذا الترادف التام ، فالعادة أن يكون ذلك لفترة قصيرة محدودة ، حيث إن الغموض الذى يعترى المـــدلول ، والألوان أو الظلال المعنوية ذات الصبغة العاطفية أو الانفعالية التى تحيط بهذا المدلول لا تلبث أن تعمل على تحطيمه وتقويض أركانه . وكذلك سرعان ما تظهر بالتدريج فروق معنوية دقيقة بين الألفاظ المترادفة ، بحيث كل لفظ منها مناسباً وملائماً للتعبير عن جانب واحـــد فقط من الجوانب المختلفة للمدلول الواحد . كما أننا سنلاحظ فى الوقت نفسه أن ما يرتبط بهـــذه الألفاظ من عناصر عاطفية وتعبيرية وإيحائية خاصة سوف تأخذ فى الظهور والنمو ممتدة فى خطوط متباعدة . وإنا لنلمس نتائج هذا التفريق بين المترادفات فيما لو قابلنا كل لفظ بنظيره فى المجموعة الآتية من الأمثلة :

السيف ـ الحسام ، الجلوس ـ القعود ، حلف ـ أقسم ، تلا ـ قرأ (٦٢) .

---

(٦٢) هذه أمثلة عربية ، وقد اخترناها بدلا من أمثلة المؤلف لقربها إلى =

بل أن هذه النتائج لتظهر لنا بصورة أوضح وأجلى إذا ما أخذنا فى الاعتبار سلسلة كاملة من الألفاظ المترادفة ، كتلك التى أوردناها فيما سبق للدلالة على «الشيء الصغير أو القليل[٦٣] » . وبالجملة سوف يتبين لنا أن معظم المترادفات ليست إلا أنصاف أو أشباه مترادفات ، وأنه لا يمكن استعمالها فى السياق الواحد ، أو الأسلوب الواحد دون تمييز بينها . كما سيتضح لنا أن مدلولات هذه المترادفات متشابكة ومتداخلة بعضها فى بعض . وفى نهاية المطاف سوف يتأكد لنا أن هذه الألفاظ لا يمكن التبادل بينها إلا فى حدود ضيقة فقط .

أما التأثير الذى تحدثه مقابلة المترادفات بعضها ببعض فيتضح جيداً من تلك الفقرة المقتبسة من رواية « كما تهواه » (الفصل الخامس — المنظر الأول) : « لذلك أيها الحقير الدنىء تجنب مصادقة هـــذه السيدة (وفى لغة السوقة والعوام : خليك بعيد عن طريق الست دى) ، والذى أعنيه باختصار : تجنب مصادقة هذه السيدة وإلا سوف تفنى أيها الحقير الدنىء أو — على أحسن

= ذهن القارىء العربى . والمراد بهذه الأمثلة بيان أن كل لفظ منها له لون معين من المعنى لا يوجد فى صاحبه : فالفرق بين السيف والحسام هو أن اللفظ الأول إسم والثانى روعيت فيه صفة من صفات السيف . وهناك كذلك فرق دقيق بين القعود والجلوس ، يقول السيوطى فى المزهر (ح ١ ص ٤٠٤ ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٨) : « إن القعود عن قيام والجلوس عن حالة دونها الجلوس » (أى من الاضطجاع) . وأما حلف وأقسم فالملاحظ أن الاتجاه فى القرآن الكريم هو استعمالهما فى سياقات مختلفة . فهو يستعمل حلف وما تفرع منها عند احتمال الحنث باليمين كقوله تعالى : «يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر» ، ولكنه يستعمل أقسم ومشتقاتها فى سياق التعظيم كقوله «فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم» . والفرق بين تلا وقرأ أن «تلا» أكثر ما تستعمل فى مواقف الإجلال والتعظيم ، بالإضافة إلى أنها تعنى «القراءة» بتنغيم معين ، ومن ثم كانت أكثر استعمالا من صاحبتها «قرأ» بالنسبة إلى قراءة القرآن الكريم (المترجم) .

(٦٣) أنظر ص ٩٤ (المترجم) [illegible] (٢٣)

الفروض — سوف تموت ، أو اعلم جيداً أنى سأقتلك سأطيح بك ، سأنقلك من عالم الأحياء إلى عالم الأموات » [٦٤] .

واللغة الإنجليزية لغة غنية بصفة خاصة بالمترادفات أو أشباه المترادفات بتعبير أدق . فهى قد فتحت الباب على مصراعيه للاقتراض من اللغة اللاتينية وما تفرع عنها من لغات[٦٥] ، وقد عملت بذلك على إثراء مصادر الترادف فيها إثراءاً واسعاً ، واكتسبت ألواناً من المعانى الدقيقة والدلالات المختلفة ، كما ظفرت بتنوع فى التعبير إلى درجة لم تصل إليها أية لغة أوربية أخرى . وما المقابلة المألوفة بين الكلمات اللاتينية والكلمات السكسونية إلا مثل بسيط من أمثلة هذه الظاهرة فى اللغة الإنجليزية ، كما فى نحو : [٦٦] begin — commence و deep — profound . وربما ترجع شهرة هذه المقابلة ونحوها إلى السير ولتر سكوت Sir Water Scott الذى أعاد إلى الوجود — فى رواية « إيفانهو » ivanhoe — تلك المعانى التى كانت سائدة فى القرن السابع عشر للكلمات الزوجية الآتية : —

---

(٦٤) التأثير الذى تحدثه هذه الفقرة هو التهديد والتخويف الذى يوحى به التأكيد المستفاد من استعمال المترادفات الكثيرة (المترجم) .

(٦٥) هذه لفتة طيبة من المؤلف قد يستفاد منها عند دراسة الترادف فى اللغة العربية . إننا نظن أن من أسباب غنى اللغة العربية فيما يسمى بالترادف اختلاف اللهجات ، فالمدلول الواحد قد يعبر عنه بلفظ فى لهجة وبآخر فى لهجة أخرى . ومن ثم من الممكن تخريج هذه المترادفات وردها إلى لهجاتها الأصلية ، وبذلك ينتفى وجود الترادف بالمعنى الدقيق ، إذ من شروط تحقق الترادف عندنا وحدة الصيغة اللغوية ، وتعدد اللهجات يعنى تعدد الصيغ (المترجم) .

(٦٦) الكلمة الأولى (من اليسار) فى كلا الحالتين سكسونية والثانية من أصل لاتينى . والمعنى العام لكل كلمتين منهما واحد ، فالكلمتان الأوليان (من اليسار أيضاً) معناهما « عميق » ، والأخريان معناهما « يبدأ » (المترجم) .

(٦٧) ox — beef, sheep. mutton, pig — Pork, calf — veal

وبهذه المقابلة استطاعت هـــذه الكلمات أن تعكس لنا عالمين مختلفين ، هما عالم الرعاة الإنجليز وعالم الطباخين الفرنسيين فى القرون الوسطى . وكثيرا مايقع التقابل بين المترادفات فى صور أكثر تعقيداً عما سبق ولكن فى تناسق وانسجام واضحين ، كما فى التقابل بين الكلمات الإنجليزية والفرنسية واللاتينية : —

(٦٨) ask — question — interrogate, holy — sacred — consecratep

ومن البديهى أنه لا يمكن التقليل من شأن الفائدة التى نجنيها من وجود مثل هذا الثراء فى أساليب التعبير التى يمكن التبادل فيما بينها . ولكن هذا يجب ألا يحجب أبصارنا عما فى الترادف من أخطار خفية . فإذا كانت الحكمة تحتم تجنب التكرار فإن مجرد التنويع فى الأسلوب باستعمال المترادفات قد يصبح تنويعاً مصطنعا لا روح فيه ، كما ظهر ذلك جليا فى بعض الاساليب الأدبية فى عصر الملكة اليزابيث وكما ظهر كذلك فيما بعد فى كتابات الدكتور جونسون Dr. Iohnson . وربما تكون هناك مسوغات لمثل هذا السلوك فى التعبير . ولكننا لا نجد أى عذ. أ.

---

(٦٧) الأمثلة المذكورة تشتمل على اربع مجموعات ، كل مجموعة مكونة من كلمتين تشيران إلى مدلول عام واحد ، غير أن كل واحدة منهما قد اختصت بجانب من المعنى لا تشاركها صاحبتها فيه . ويمكن أن يتبين لنا ذلك من الترجمة الآتية :

١ — ox = الثور ، beef لحم الثـــور ٢ — sheep = الغنم ، mutton = لحم الغنم (الضانى) ٣ — pig = خنزير ، pork لحم الخنزير ٤ — calf = عجل ، veal = لحم العجل (عجالى أو كندوز) . ومن الجدير بالذكر أن الكلمة الأولى (من اليسار) فى كل مجموعة كلمة انجليزية والثانية من أصل فرنسى (المترجم) .

(٦٨) الكلمات الثلاث فى كل مجموعة لها معنى عام واحد ، هو فى المجموعة الأولى (من اليسار) «يسأل» ، وفى الثانية «مقدس» . والكلمة الأولى فى كل مجموعة (من اليسار أيضا) انجليزية ، والثانية من أصل فرنسى والثالثة من أصل لاتينى (المترجم)

مسوغ لحشد المترادفات حشداً لا تدعو إليه الضرورة أو الحاجة ، كما هي الحال في أساليب الكتابة القانونية التي تتميز بهذه الخاصة . ولقد جمع « يسبرسن » مجموعة طريفة من أمثلة هـذا الحشد في كتابه « نمـو اللغة الانجليزية وبنيتها »
(Growth and Structure of the English Language)
كقول « سوينبرن » Swinburne : manifoid multiform flower (أزهار كثيرة الأنواع والأشكال) وقول « ميكاوبر » Micawber : « على حد علمي ومعرفتي ورأيي » (٦٩) . ولقد كانت هذه الأمثلة ونحوها سببا في صدور هـذا التعليق عن ديكنز Dickens : « إننا نتكلم عن استبداد الكلمات ، ولكننا نحن أيضاً نحب أن نستبد بها » . إنهـا الأساليب الخطابية والانفعالية بوجه خاص هي التي تستخدم فيهـا المترادفات إستخداما مسرفا ، رغبة في تقوية الفكرة وتأكيدها . يروى أن أحد الوزراء قد ذكر لسامعيه — في خطاب له أثناء الحرب — أنهم كانوا يقاتلون for liberty and freedom وكرر هـذه

---

(٦٩) اللغة العربية مليئة بالأمثلة التي يكثر فيها حشد المترادفات دون سبب ظاهر ، اللهم إلا الرغبة في إظهار البراعة اللفظية والتأنق في الأسلوب . وربما يظهر ذلك في قول الجاحظ يصف الكتاب : والكتاب هـو الجليس الذي لا يطريك ، والصديق الذي لا يقليك ، والرفيق الذي لا يملك ... والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق .

ويلحظ هذا بصورة أوضح في قـول ابن العميد من رسالته إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة : كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ، ويأس منك وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضي محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية . ولا جرم أني وقفت بين ميل إليك وميل عليك ، أقدم رجلا لصدك . وأؤخر أخـرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، فقد يعزب العقل ثم يثوب ، ويغرب اللب ثم يثوب ... » (المترجم) .

العبارة فى ثنايا كلامه ست مرات على الأقل ، كما لو كان المعنى الذى تحمله الكلمتان معاً (liberty, freedom) معنى أوسع بكثير وأشد وقعاً من المعنى الذى تحمله أية واحدة منهما منفردة (٧٠) .

على أن المترادفات فى اللغة الإنجليزية من جهة أخرى ، قد تصبح ذات مزايا لغويه وأسلوبية لا حصر لها إذا استغلت بمهارة ولباقة ، إذ أنه فى استطاعتنا أن نستغلها فى الدلالة على ألوان المعنى وظلاله المختلفة . فالكلمة ذات الأصل اللاتينى مثلا أنسب وأقرب إلى لغة الكتب من الكلمة السكسونيه ، كما يظهر ذلك من التقابل بين Forgetfulness, oblivion ، بالرغم من أنها قد تكون أحيانا أقل من صاحبتها فى هذا الشأن ، كما فى : deed, action وقد تكون الكلمة ذات الأصل اللاتينى أيضاً أكثر تحديداً وتخصيصاً للمعنى كما فى science حين تقابل بالكلمة السكسونية knowledge ، أو أعمق فى التجريد والتعميم مثل amity حين تقاس بالكلمه cordial, friendship إذا قورنت بصاحبتها hearty (٧١)

---

(٧٠) الكلمتان liberty, freedom معناهما واحد وهو « حريه » ، فمعنى العبارة إذن هو : « كانوا يقاتلون من أجل الحرية » ، واستعمال الكلمتين معا قصد به إلى تقوية المعنى وتأكيده . كما ذكر المؤلف (المترجم) .

(٧١) كل كلمتين متقابلتين من هذه الأمثلة الخمسة لها معنى عام واحد ، ولكن لكل واحدة منهما — بالإضافه إلى ذلك — لونا أو ظلا معينا من المعنى لا يوجد فى صاحبتها ، كما قرر المؤلف . والمعنى العام لكل كلمتين من هذه الأمثلة بالترتيب الوارد فى المتن هو : (١) نسيان ، (٢) عمل ، (٣) علم . والحق أن المعنى الشائع لكلمه konwledge هو « معرفه » بخلاف soiecen التى تطلق على كل « علم ذى صفه تخصصه » ، (٤) صداقه ، (٥) قلبيا أو من القلب . ومن الواضح أن الكلمه الأولى « من اليمين فى كل مثال هى من أصل لا تينى والثانيه سكسونيه (المترجم) .

وأحيانا تكون الكلمات اللاتينية خالية من الدلالات غير المحبوبة التى قد توجد فيما ينافسها من كلمات سكسونية ، ومثال ذلك Popal - popish (٧٢) ، بل إن الكلمات اللاتينية قد تكون وسيلة من وسائل تلطيف المعانى ذات الوقع السيء على النفس ، كما يظهر ذلك فى استعمال quietns بدلا من death (٧٣) فى رواية هملت .

أضف إلى ذلك أن المترادفات فى حالات الضرورة قد يكون لها دور أكثر من هنا أهمية وخطورة فى نظام التعامل باللغة . فإذا ما تطرق الغموض مثلا إلى كلمة من الكلمات بحيث تصبح غير وافية بالغرض ، فالغالب أن نلجأ إلى كلمة أخرى مرادفة لها كى تسد هذا النقص . ولكى نستطيع أن نفهم مثل هذه الحالة فهما تاما ، نرى لزاما علينا أن نعرض أولا للنوع الثانى من المعنى المتعدد (٧٤) .

---

(٧٢) كل من هاتين الكلمتين صفة منسوبة إلى كلمة pope « البابا » ومعناها بابوى . غير أن الكلمة الأولى « من اثنين » وهى اللاتينية خالية من المغزى غير الحميد الذى تفيده الكلمة الثانية « المترجم » .

(٧٣) الكلمتان معناهما « موت » ومعنى الكلمة quietus وهى اللاتينية أخف فى الوقع من الثانية ، ومن هذا القبيل فى العربية « رحل » بدلا من كلمة « مات » (المترجم) .

(٧٤) الحق أن المؤلف قد عالج موضوع الترادف علاجا جيداً ، ونرى ـــ تتميا للفائدة ـــ أن نشير هنا فى إيجاز إلى آراء علماء اللغة العربية وغيرهم فى هذه القضية ، رأينا أن نرسم منهجاً مبسطا لتناول الموضوع من جديد .

لقد صال علماء العربية فى القديم وجالوا فى هذا الباب ، وأعطوه عناية فائقة ، حتى إن بعضهم قد وضع فيه كتبا مستقلة . ولهؤلاء العلماء آراء مختلفة فى معنى الترادف وفى إمكانية وقوعه أو عدم إمكانية ذلك . ويمكن إرجاع كل ما أتى به هؤلاء اللغويون فى هذا الباب إلى أربعة آراء :

=

= الرأى الأول :

يرى بعض علماء العربية أن الترادف بمعناه المطلق غير موجود . ومفهوم هذا الكلام أنهم يؤمنون بوجود المترادفات بمعنى عام ويخرجون ماورد منها بقيد من القيود . هذا القيد عند هؤلاء هو أن بعض الكلمات المترادفة لها معان جزئية دقيقة أو ألوان من المعانى التى لا توجد فى البعض الآخر ، من أصحاب هذا المذهب ابن فارس وابن الأعرابى وثعلب . وقد ورد فى كلامهم ما يؤيد هذا صراحة . من ذلك أن ابن فارس بعد أن ذكر عدداً من المترادفات يتبعها بعبارته المشهورة: « على مذهبنا فى أن فى كل واحد منها ما ليس فى صاحبتها من معنى وفائدة » . أى أنه يؤمن بالترادف ولكن على أساس أن لكل كلمة لونا معينا من المعنى أوعلى الأقل فائدة أو وظيفة خاصة فى الاستعمال . ومثل هذا ما ورد عن ابن الأعرابى فى هذا الشأن . يقول ابن الأعرابى : « كل حرفين وضعتهما العرب على معنى ، فى كل واحد منهما معنى ليس فى صاحبه . ربما عرفنا ، فأخبرنا به وربما غمض علينا ، فلم نلزم العرب جهله » ؟ ومعناه أن الفروق فى الدلالة بين المترادفات موجودة بالفعل ، وإذا غمضت علينا ولم نعرفها فلا يلزم أن يكون العرب القدامى جاهلين بها . أى إنهم كانوا يدركون هذه الفروق فى رأيه .

أما ابن دستورية فهو يتفق مع هذا الرأى فى أحد أقواله ، حيث يفهم من كلام له رواه بعض العلماء أنه يجيز الترادف بالقيد السابق : أى أن يكون لكل لفظ معنى جزئى خاص ، وهو بالإضافة إلى ذلك له تخريج آخر بالنسبة للمترادفات، فهو يعترف بوقوعها ولكنه يرجع الكلمات المختلفة إلى لهجات مختلفة ويؤيد هذا التخريج الأخير ما روى عنه أنه قال : « ولا يكون فعل وأفعل بمعنى واحد ، كما لم يكونا على بناء واحد إلا أن يكونا من لغتين مختلفين » .

الرأى الثانى :

وينكر البعض وجود الترادف إنكارا تاما . ويروى أن أبا على الفارسى شيخ جنى من أنصار هذا المذهب . روى السيوطى فى المزهر عن ابن الأعرابى ، =

= قال . وكنا بمجلس سيف الدولة بحلب وفي الحضرة جماعة من العلماء ، منهم ابن خالويه . فقال ابن خالويه : إني أحفظ للسيف خمسين اسماً ، فتبسم أبو علي وقال : أما أنا فلا أحفظ له إلا اسماً واحداً هو السيف . فقال ابن خالويه : وأين المهند . الصمصام وكذا وكذا ؟ فقال أبو علي : هذه صفات » .

ومفهوم هذا الكلام أن هذه الصفات لها معان مستقلة ومختلفة عن معنى اسم السيف نفسه ومن ثم لا ترادف بينها جميعاً .

الرأي الثالث :

يرى أصحاب هذا الرأي أن الترادف واقع بالفعل ويقع على مر الأيام والأزمان وهم يؤمنون بوقوعه مطلقاً ولا يحاولون تخريج أمثلة أو تأويلها كما ذهبت الآراء الأخرى . وإلى هذا الرأي ذهب كثير من النحويين واللغويين . ويعيب ابن دستوريه على هؤلاء القوم ، ذاكراً أنهم جهلوا حقيقة الأمر وأنهم تأولوا على العرب مالا يجوز . فهو يرى أن الفروق في الدلالات بين المترادفات كان يعرفها العرب الأول ويدركونها بسليقتهم وطبيعتهم السليمة ، ولكن هؤلاء القوم القائلين بوقوع الترادف لم يستطيعوا فهم هذه الفروق وإدراكها ، فظنوا أن الكلمات متحدة المعنى ونسبوا ذلك إلى العرب . وهذا خلاف الواقع على ما يرى ابن دستويه .

الرأي الرابع :

يرى جماعة العلماء أن ما يسمى بالترادف يمكن تقسيمه قسمين : قسم سمته هذه الجماعة بالترادف وعرفوه بأنه « إقامة لفظ مقام لفظ آخر في معنى عام واحد يجمعها جميعا » . وأمثلتهم على ذلك نحو : لم الشعث ورتق الفتق وأصلح الفاسد . وهذه الأمثلة تدلنا على أن المراد بالألفاظ في التعريف الذي ساقوه إنما هي العبارات والجمل ، لا الكلمات المفردة ، بدليل أنه لايمكن التناوب بينها في الجمل السابقة ، أما الجمل نفسها فممكن ذلك فيها . ويؤخذ من كلامهم أيضا أن الترادف عندهم يقابل ما يمكن أن يسمى عندنا بالجمل التفسيرية أو البيانية . =

أما القسم الثانى فيسمونه بالمتوارد وذلك يتحقق حين تضع أكثر من اسم للذات الواحدة والشيء الواحد ، كان تسمى الأسد بالسبع والهزبر والليث وكأن تسمى السيف بالمهند والصمصام الخ . . وواضح من هذه الأمثلة أن ما يسمى بالمتوارد عندهم يقابل بالترادف عند غيرهم .

هذه خلاصة آراء العرب فى القديم فيما يختص بالترادف . أما فى الحديث فقد تعرض له بعض اللغويين والدارسين منهم الأستاذ على الجارم والدكتور ابراهيم أنيس .

تعرض الأستاذ الجارم لهذا الموضوع فى المجمع اللغوى سنه ١٩٣٥ فى مقال مسهب مفصل أتى فيه بكل الآراء السابقة للعرب القدامى . ثم حاول بعد هذا أن يأتى برأيه الخاص فى الموضوع . ومن رأيه أن الترادف موجرد ، غير أن أمثلته ليست كثيرة بالصورة التى زعمها بعض العرب . وفى رأيه أن المنكرين للترادف فى العربية مبالغون ، كما أن المثبتين له أيضا مبالغون . أما مبالغة المنكرين فتظهر فى ورود أمثلة حقيقية من المترادفات . فلا داعى إذن إلى إنكارها . أما المثبتون للترادف فقد بالغوا — فى نظره — لأنهم أتوا بأمثلة يمكن تخريجها على وجه من الوجوه أو يمكن إخراجها من هذا الباب نهائياً أما من حيث التخريج فإن هناك أمثلة لا حصر لها يمكن تأويلها على اختلاف فى المعنى الدقيق أو اختلاف اللهجات . أما من حيث الإخراج فهناك عدد آخر من الأمثلة التى ليست من الترادف البتة ، ومع ذلك يذكرها المثبتون على أنها مترادفات ، من ذلك نحو كمح الدابة وكبحها . فهذا المثال ذكره البعض على أنه من الترادف ، ولكن الأستاذ الجارم يرى أن المثال لم يشتمل على كلمتين مختلفتين وإنما اشتمل على كلمة واحدة فى الأصل والمعنى . فهى كلمة واحدة (هى كمح أو كبح) وكل ما حدث هو نوع من التطور الصوتى فى تركيبها (بقلب الميم باء أو العكس) ، ويؤكد ذلك شدة القرب — من الناحية الصوتية — بين الميم والباء .

وينصحنا الأستاذ الجارم فى نهاية بحثه بأن الواجب الاول على دارسى الترادف

أن يقوموا ببحث دقيق لمعانى الكلمات المظنون أنها من الترادف ، فقد نجد أنها ليست منه . وقد طبق فعلا هذا المنهج على عدد من الأمثلة . قام الأستاذ الجارم بدراسة دقيقة للمترادفات التى أطلقت على العمل وعددها خمسمائة وثمانون ، فوصل من دراسته إلى أن المترادفات الحقيقية من هذه الأسماء لا تزيد عن ثلاثة أو أربعة ، أما الكلمات الباقية فهى صفات ذات معان مستقلة ومن ثم لا تعد ترادفا فى نظره .

أما الدكتور أنيس . فقد بدأ — كما فعل الجارم — باستعراض آراء العرب المختلفة فى ذلك . وخلص من ذلك برأيه الخاص وهو « الحق أن الترادف موجود » واستدل على قضيته هذه بعدد من الأمثلة ، نذكر منها اثنين بوجه خاص لأهميتهما فى هذا المقام .

المثال الأول هو ما روى أن النبى عليه السلام وقعت من يده السكين وكان معه أبو هريرة ، فقال له ناولنى السكين يا أبا هريرة فلم يجب ، فقال النبى مرة أخرى : ناولنى السكين ، فلم يجب ثم التفت أبو هريرة وقال : المدية تريد ؟ قال النبى : نعم .

أما المثال الثانى فهو ما روى أن رجلا من عرب الشمال ذهب إلى أحد ملوك اليمن وكان الملك فوق السطح ، فأطلع الرجل إليه — فقال له الملك « ثب » (أى اقعد) فوثب الرجل من على فتكسر . فقال الملك : ما بصاحبكم ؟ فقالوا إنه لا يعرف الحميرية . فقال الملك : من ظفر حمر (أى من دخل ظفار فليتكلم اللغة الحميريه) .

يقول الدكتور أنيس : ولقد دخلت الكلمة العربية من وقت هذه القصة وأصبحت ترادف « قعد » . وإن نظرة دقيقة فى هذه الأمثلة لتدلنا على شىء مهم فيما يتعلق برأى الدكتور أنيس فى الترادف . هذه الأمثلة توضح بما لا يدع مجالا للشك أنه حين يعترف بوقوع الترادف يهمل إهمالا تاما ما قد يكون بين

الكلمات من اختلاف اللهجات ، ومعناه أنه ينظر إلى الترادف فى اللغة العربية بوجه عام ، أى فى اللغة المشتركة بقطع النظر عن الفروق الناشئة عن اختلاف اللهجات ، وهذه وجهة نظر لها ما يبررها ما دام ذلك يوافق المنهج الذى يتبعه الدارس .

وللدكتور أنيس نظرة أخرى فى هذا الباب . فهو يفرق بين النظرة التاريخية والنظرة الوصفية فى دراسة الترادف (وفى غيره بالطبع) . وهو بهذا يحاول أن يفسر رأى المنكرين من العرب للترادف ورأى المثبتين له ، فيقول إن المنكرين للترادف قد نظروا إليه من الزاوية التاريخية ، حيث إن هذه الكلمات فى القديم كانت لها معان مختلفة ومن ثم لا ترادف بالمعنى الحقيقى ، أما المثبتون له فقد نظروا إليه من الناحية الوصفية الخاصة بفترة معينة : وفى هذه الفترة المعينة (ولتكن الوقت الحاضر) قد تلاشت هذه الفروق فى المعانى بين الكلمات وتنوسيت ، وعلى ذلك فالترادف موجود .

ونحن مع موافقتنا الكاملة للدكتور انيس فى وجوب التفريق بين الناحية التاريخية والناحية الوصفية ، لا نستطيع أن نوافقه على أن كل أمثلة الترادف فى الوقت الحاضر (أو فى أية فترة معينة فى العربية) قد ضاعت فروق المعنى بينها أو تناساها الناس . قد يجوز هذا فى بعض الأمثلة . ولكن البعض الآخر — فى — رأيى لا يزال يحتفظ بالفروق الدقيقة الجزئية فى المعنى . على أن إثبات هذا أو إنكاره يستوجب دراسة إحصائية شاملة وبحثا دقيقا فى معانى المترادفات وهذا ما نوصى به فى هذا الشأن .

ويرى الدكتور أنيس — كما يرى الأستاذ الجارم — أن بعض العرب أوردوا أمثلة فى الترادف هى فى الواقع وحقيقة الأمر ليست منه فى شىء ، من ذلك نحو : فلح الأرض وقلبها ، رأيته عن كثب وعن كثم ، وبدأ وبدع . فالرأى عنده أن كل مثال من هذه ليس مكونا من كلمتين مترادفتين ، وإنما يحتوى على كلمة واحدة ، وكل ما حدث هو تغيير صوتى بسيط التطور .

— ونحن نقول قد يكون صحيحا . ولكن من المحتمل أن يدل الخلاف الصوتى على خلاف فى المعنى ولكنا لا ندرك هذا الخلاف ، والقواميس وحدها ليست مرجعاً كافياً فى هذا الشأن . إنما النصوص العربية فى مصادرها الأولى هى التى يمكن أن تمدنا بالحقيقة . كما أنه من المحتمل أن تكون هذه الفروق الصوتية راجعة إلى اختلاف اللهجات . وقد اعترف الدكتور أنيس نفسه بهذا فى مقام آخر ، ومثل لذلك بحتى وعتى . وعلى كل حال فقد أتى الدكتور أنيس بجديد فى هذا الباب ، وأثار فينا الرغبة فى البحث والتقصى لمعرفة حقيقته هذا الموضوع الشائك .

ولقد تعرض لهذا الموضوع جماعة من العلماء فى الغرب . من هؤلاء أولمان مؤلف هذا الكتاب ، ولقد أوضح رأيه فى المتن كما رأيت ، وهو رأى سديد مقبول .

أما بلو مفيلد فلا يعترف بالترادف من أول الأمر ، حيث يرى أنه « إذا اختلفت الصيغ صوتياً وجب اختلافها فى المعنى » وعلى هـــذا فلا ترادف عنده ويوافقه على ذلك فيرث . وعدم اعتراف فيرث بالترادف يتمشى مع مذهبه الخاص بالمعنى اللغوى . فالمعنى اللغوى عنده عبارة عن مجموعة الخصائص والمميزات اللغوية للكلمة أو العبارة أو الجملة . ومن الطبيعى أن تكون المميزات الصوتية إحدى هذه المميزات والخصائص ، فإذا اختلفت من كلمة إلى أخرى) كما هو الحال فى المترادفات) وجب اختلاف الكلمتين فى المعنى أيضاً ، النتيجه الحتميه لهذا هى عدم وجود الترادف .

أما رأينا فى هذا الموضوع كله فيمكن تلخيصه فى السطور التاليه :

يجب أن يعلم الناس أن هذا الاختلاف الكبير وهذا الإضطراب الظاهر فى هذه المسألة إنما يرجع إلى سببين رئيسيين : أولهما عدم الاتفاق بين الدارسين على المقصود بالترادف ، بل إن بعضهم لم يكلف نفسه مؤنة تعريفه أو حتى الإشارة إلى تعريف أورده غيره . أما السبب الثانى فهو اختلاف وجهات النظر أو اختلاف المناهج بين الدارسين : إذا استقر لنا ذلك وجب علينا بادىء ذى بدء التخلص من هذين السببين وذلك عن طريق توضيحهما وبيان المقصود منهما —

— ومن ثم نخلص بنتيجة واضحة قد تتفق فى النهاية أو لا تتفق مع ما ورد عن غيرنا من العلماء ، غير أن هذا الاتفاق لايعنى اتفاقنا فى كل شىء . فإن هناك اختلافا فى المنهج والاختلاف فى المنهج يعنى اختلافاً كبيراً ، لأن الاتفاق فى النتائج حينئذ يكون بطريق الصدفة وهو اتفاق إن حصل فى نقطة قد لا تحدث فى أخرى وهكذا .

أما من حيث التعريف فإننا نختار التعريف الذى ذكره أولمان فيما تقدم ، وهو : « المترادفات ألفاظ متحدة المعنى وقابلة للتبادل فيما بينها فى أى سياق » وأما من حيث المنهج فإننا نختار المنهج الوصفى ، ومعناه أن نقوم بدارسة ظاهرة الترادف دراسة شاملة إحصائية عن طريق وصف الحاصل الموجود فى فترة معينة من الزمن بقطع النظر عن السابق واللاحق . وليس معنى هذا أننا ننكر أهمية الدراسة التاريخية ، فالدراسة التاريخية لها قيمتها ومنزلتها الخاصة غير أن لنا حرية الاختيار وقد اخترنا منهج الوصف .

والدراسة الوصفية فى البحوث اللغوية تعتمد على عوامل أساسية لا يمكن أن نسير بدونها . هذه العوامل هى : ١ — يجب أن نحدد بيئة الكلام المدروس ، هل الدراسة خاصة بلهجة عربية واحدة مثلا أو أنها عامة تشمل العربية بوجه عام ؟ للدارس أن يختار بشرط تحديد مايدرس . ٢ — تحديد الصيغة ، والمعروف أنه يوجد فى البيئة الواحدة عدة أساليب : أسلوب المثقفين مثلا وأسلوب العمال أو العامة الخ . ٣ — مراعاة الموقف والظروف والملابسات التى يقال فيها الكلام المدروس مع الاهتمام بوجه خاص بحال المتكلمين والسامعين والأشياء الموجودة فى الموقف .

على هذا الضوء السابق يمكن لنا أن ننظر فى الترادف . من الجائز جداً أن تتفق كلمتان أو أكثر فى المعنى وقد لاندرك الفرق بينهما ، غير أن هذا الفرق قد نشعر به حين نحاول أن نستبدل الكلمات بعضها ببعض فى المواقف المختلفة . ومن الجائز أيضا أن يصح التبادل فى بعض هذه المواقف ، ولكننا نشك فى جواز هذا التبادل فى أى موقف إذا نظرنا إلى الموضوع نظرة وصفية ، وهنا تدخل —

= أهمية العامل الثانى .

لنفرض أن الدراسة فى لهجة القاهرة . وربما نعثر فيها على كلمات متحدة المعنى وممكنة التبادل بينها فى أى موقف . ولكن بالاختبار الدقيق قد نجد إحدى الكلمات تنتمى إلى أسلوب المثقفين والأخرى إلى أسلوب العامة وحينئذ لا يكون التبادل تاما . وعلى فرض وجود الكلمتين فى أسلوب واحد أى أسلوب المثقفين فقط أو العوام فقط ، فسنجد بالدراسة أن إحدى الكلمتين أكثر استعمالا من الأخرى فى بعض الأغراض الأدبية أو الصور الكلامية ، فربما نجد أن إحداهما يكثر استعمالها فى الشعر والأخرى يكثر استعمالها فى النثر ، وهنا يكون التبادل غير تام أيضاً . وعلى فرض إمكانية التبادل بينهما فى كل الأغراض وكل الصور السابقة فسنجد — بالدراسة الدقيقة — أن إحدى الكلمتين يفضلها الناس فى مقام معين لأن شخصاً معيناً بذاته موجود فى هذا المقام والأخرى يفضل استعمالها فى مقام آخر . أى أن الاستعمال هنا قد يختلف باختلاف السامعين والمتكلمين . وهذه الحالة الأخيرة معروفة مشهورة . من ذلك أنه يجوز فى اللغة الانجليزية أن يقول الرجـــل لزوجته bye-bye ولكن لا يجوز للمرءوس أن يقول لرئيسه هذه العبارة وكذا لايجوز للطالب أن يستعملها مع أستاذه . أما ما يستعمله هذا المرءوس وهذا الطالب فى الموقف القابل لذلك فهو good — by التى تعد مرادفة للعبارة السابقة . ولا عبرة بما يقوله البعض من أن العبارتين أصلهما واحد ، فهذه نظرة تاريخية ، ونظرتنا الآن وصفية أى بحسب الآن . وهكذا إذا سرت بهذه الطريقة فستجد أن الترادف بالمعنى المذكور فوق غير موجود ، إنما هناك أنصاف أو أشباه ترادف فقط ، كما قال أولمان .

بقى أن نذكر لك شيئين مهمين . الأول : إذا نظرنا إلى الترادف نظرة عامة وبدون تحديد منهج معين فالترادف موجود ولا شك . الثانى : إذا نظرنا إلى الترادف فى اللغة العربية قديمها وحديثها دون تحديد الفترة فالترادف أيضا موجود ، ولكن من الجائز تخريج بعض الأمثلة أو إخراجها منه . وفى النهاية يجب أن يعلم القارىء أننا لا نقصد بمنهجنا هذا محاولة الوصول إلى مفروض —

ب : لفظ واحد ـ مدلولات عدة

هذا النوع ضربان ، ومن الممكن توضيحهما بالأمثلة خير توضيح إذا سمع إنسان ما كلمة operation ومعناها العـــام « عملية » — منزلة عن السياق الذى تستعمل فيه ، فليس هناك من سبيل لمعرفة ما إذا كان المقصود بها عملية جراحية أو عملية إستراتيجية أو صفقة تجارية ، ومع ذلك فإن كل متكلمى اللغة الانجليزية يشعرون بأنها كلمة واحدة فقط ، بالرغم من أن مدلولاتها قد تطورت وتباعدت بعضها عن بعض فى خطوط متفرقة وليس كذلك الحال فى a page boy بمعنى « ساع أو بواب » و the page of a book بمعنى « صفحة كتاب » ، حيث إن اللفظ page هنا يمثل كلمتين مستقلتين ومنفصلتين بعضهما عن بعض بصورة واضحة ، غير أن هاتين الكلمتين قد اتفقتا فى الصيغة بمحض الصدفة (٧٥) .

هذان النوعان من الكلمات يجب أن نفرق بينهما إذا كان لنا أن نحصل على صورة أمينة لما يجرى بالفعل فى ذهن المتكلم ، وإنه لمن الطبيعى أن يكون المتكلم هو الحكم الوحد فى هذا الشأن ، فإذا كانت البيئة اللغوية الخاصة تشعر بأن اللفظين ينتميان إلى كلمتين مختلفين ، وجب علينا حينئذ أن نعـــدهما من باب المشترك

= بادىء ذى بدء : إننا لم نقصد إنـكار الترادف لذاته أو إثباته لذاته وإنما قصدنا رسم خطة محددة ، وما أتت به هذه الخطة من نتائج فهى مقبولة وصحيحة ، سواء أكانت النتيجة إثبات وقوع الترادف أم إنكار هذا الوقوع (المترجم) .

(٧٥) يمكن التمثيل لهذه الحالة من اللغة العربية بلفظة « عين » فمن معانيها « الباصرة » و « الذهب » وهما معنيان مختلفان ، ولا يشعر المتكلم الحالى (وربما القديم) بأية علاقة بينهما ، ولكننا مع ذلك قد آثرنا الاحتفاظ بالأمثلة الإنجليزية لأن المؤلف قد جزم بأن اللفظ page فى المثالين المذكورين يمثل كلمتين مختلفتين وليس كذلك الحال بالنسبة للفظ العربى « عين » ، حيث إنه طبقا للمشهور عن العرب ـ كلمة واحدة بالرغم من اختلاف مدلولاته ، أنظر أيضاً الملوحظة (٢٣) (المترجم) .

اللفظى homonymy ، أما إذا كانت الألفاظ تمثل كلمة واحدة فهى ليست من هذا الباب . ولا عبرة للأصل التاريخى للكلمات فى هذه الحالة . فقد يخبرنا الاشتقاقيون والباحثون فى الأصول التاريخية للكلمات أن flower بمعنى «زهرة» و flour بمعنى «دقيق» كانتا فى الأصل كلمة واحدة . وربما يعللون ذلك بأن fleur كانت تعنى «لب الحنطة» ، ومثل هذا المعنى أو ما يقرب منه ملحوظ فى نحو : The flower of the cnntry's manhood أى (صفوة رجال الأمة)[٧٦] هذا التفسير بالرغم من أنه قد يكون صحيحاً ليست له أهمية فى موضوعنا هذا ، لأن المتكلم العادى لا يدركه ولا يشعر به . ومن المقـــرر أن وصف أية حالة معينة من حالات اللغة يجب أن يكون دائماً بمعزل عن مسألة الرجوع إلى الأصول التاريخية أو إحياء هذه الأصول . كما أنه لا أمل لنا البتة فى الحصول على صورة حقيقية لنظام اللغة إلا إذا شعرنا بشعور المتكلم ووضعنا أنفسنا مـــكانه كما يقولون .

وأظننا الآن بحاجة إلى بعض المصطلحات الخاصة التى تساعدنا على التمييز بين هذين النوعين السابقين من الكلمات ، لقد جرت البحوث الضخمة الكثيرة التى تعرضت لهذا الموضوع على استعمال المصطلح (تعدد المعنى) polysemy للدلالة على الحالات التى تتعدد فيها مدلولات الكلمة الواحدة . أما بالنسبة الحالة الأخرى

---

(٧٦) يقصد المؤلف أن يقرر أن هؤلاء الاشتقاقيين قد يؤيدون رأيهم فى إرجاع flour, flower إلى أصل واحد باتحادهما فى المعنى فى الأصل وفى بعض السياقات الآن ، فالكلمة الثانية معناها الدقيق وهو (لب) القمح ، والكلمة الأولى تفيد هذا المعنى نفسه — ولو بطريق المجاز — أحياناً كما فى هذه العبارة . وهاتان الكلمتان — بالرغم من اختلاف صـــورتهما فى الكتابة — من باب المشترك اللفظى ، لاتحادهما فى النطق ، والعبرة دائماً — كما قررنا من قبل — إنما هى بالنطق لا للكتابة ، على أن الصورة الكتابية للكلمات قد يستعان بها هى الأخرى فى حل بعض المشكلات اللغوية ، غير أن المشكلة الحالية ليست واحـــدة منها (المترجم) .

فسوف نحتفظ بالمصطلح (المشترك اللفظى) homonymy ونطلقه على الكلمات المتعددة المعنى المتحدة الصيغة (٧٧).

(١) مدلولات عدة للكلمة الواحدة

إن قدرة الكلمة الواحدة على التعبير عن مدلولات متعددة إنما هى خاصة من الخواص الأساسية للكلام الإنسانى . وإن نظرة واحدة فى أى معجم من معجمات اللغة لتعطينا فكرة عن كثرة ورود هذه الظاهرة . وقد تعيش المدلولات القديمة جنبا إلى جنب مع المدلولات الجديدة ، وهذه ظاهرة ينفرد بها المعنى ولا يشاركه فيها الأصوات أو القواعد النحوية والصرفية . فإذا تغيرت قاعدة من قواعد النحو والصرف أو صوت من الأصوات فالعادة أن تطرح المرحلة السابقة جانباً وتحل محلها التغيرات الجديدة ، على أن هناك استثناءات لهذه القاعدة العامة ، كما يظهر ذلك فى نحو: brothren — brothers و dreamed — dreamt (٧٨) ، أما فى مجال المعنى فالاستثناء هو القاعدة . والآثار المترتبة على تعدد المعنى للكلمة الواحدة بالنسبة للثروة اللفظية للغة آثار بعيدة المدى . من ذلك مثلا أن وجود كلمة مستقلة لكل شيء من الأشياء التى قد نتناولها بالحديث من شأنه أن يفرض

---

(٧٧) الكلمة polysemy من أصل إغريقى: Poly (كثير أو متعدد) و semy (المعنى) = polysemy (تعدد المعنى) . والكلمة homonymy من أصل إغريقى أيضاً : homo أى (ذات أو نفس) و onoma (لفظ) ثم تطورت الكلمتان فى اللغة الإنجليزية وصارتا homonymy أى ، ذات اللفظ أو نفسه ، فى اللغة العربية (المترجم) .

(٧٨) فى كل من هذين المثالين صيغتان إحداهما ، وهى الأولى من اليمين فى المثالين ، قديمة والثانية حديثة . وقد عاشت الصيغتان جنباً إلى جنب على خلاف القاعدة العامة عند تغير الصيغ الصرفية ، بالرغم من اتحادهما فى المعنى وفى الوظيفة الصرفية . فالصيغتان الأوليان ، من اليمين ، معناهما ، إخوة ، والأخريان معناهما ، حلم ، (المترجم) .

حملا ثقيلا على الذاكرة الإنسانية . وسوف يكون حالنا حينئذ أسوأ من حال الرجل البدائى الذى قد توجد لديه كلمات خاصة للدلالة على المعانى الجزئية « كغسل نفسه » و « غسل رأسه » و « غسل شخصاً آخر » و « غسل رأس شخص آخر » و « غسل وجهه » و « غسل وجه شخص آخر » الخ فى حين أنه لا توجد لديه كلمة واحدة للدلالة على العملية العامة البسيطة وهى « مجرد الغسيل » إن اللغة فى استطاعتها أن تعبر عن الفكر المعددة بواسطة تلك الطريقة الحصيفة القادرة التى تتمثل فى تطويع الكلمات وتأهيلها للقيام بعدد من الوظائف المختلفة . وبفضل هذه الوسيلة تكتسب الكلمات نفسها نوعاً من المرونة والطواعيه ، فتظل قابلة للاستعمالات الجديدة من غير أن تفقد معانيها القديمة . أما الثمن الذى تقدمه الكلمات فى مقابل هذه المزايا كلها فيتمثل فى ذلك الخطر الجسيم : خطر الغموض ، على أن تعدد المعنى ليس بحال من الأحوال هو المصدر الوحيد للغموض ، وإن كان — بدون شك — أساساً من أسس توليد هذا الغموض ونموه .

وهناك طريقتان رئيسيتان تتبعهما الكلمات فى اكتساب معانيها المتعددة . الطريقة الأولى منهما يمكن توضيحها بالكلمة الانجليزية operatiom « عملية » خير توضيح . هذه الطريقة تبدأ بمجرد حدوث التغيير فى تطبيق الكلمات واستعمالها ، ثم يعقب ذلك شعور المتكلمين بالحاجة إلى الاختصار فى المواقف والسياقات التى يكثر فيها تكرار الكلمة تكراراً ملحوظاً ، ومن ثم يكتفون باستعمالها وحدها للدلالة على ما يريدون التعبير عنه . إنه ليس من الضرورى مثلا — بل لعله مما يوجب التندر أن تنص وأنت فى مستشفى على أن العملية المشار إليها فى الحديث هى عملية جراحية ، وأنها ليست عملية استراتيجية أو صفقة تجارية فى سوق الأوراق المالية . فإذا ما تبلورت الكلمة وتحدد معناها الجديد فى البيئة الفنية الخاصة . كان لابد لها فى الوقت المناسب من أن توسع فى حدود دائرتها الاجتماعية الخاصة ، حتى تصبح مقررة ثابتة فى الاستعمال اللغوى العام .

ويقابل هنا الطريق التدريجى البطىء إلى تعدد المعنى طريق آخر قصير ، يتحقق فى الاستعمال المجازى ، فالاستعمال مثلا كما فى نحو crane وظيفتها إلحاق مدلول جديد بمدلول قديم عن طريق العلاقة المباشرة بين المدلولين ، غير أن السمات المشتركة فقط هى التى يدركها المتكلم حين يتم الانتقال من المعنى القديم إلى المعنى الجديد . والمعتاد أن يعيش المعنى القديم جنباً إلى جنب مع المعنى الجديد ، فالطير المسمى crane سوف يظل يدعى بهذا الاسم ، بالرغم من أن اللفظ نفسه قد أطلق على تلك الآلة المعهودة التى تستعمل فى رفع الأحمال الثقيلة[٧٩] : ولقد ظهرت فى كثير من اللغات الأوربية استعارات تشبه مثالنا المذكور ، وهـذا يدل على الانتقال من معنى إلى آخر قد لا يكون ذاتياً أو تلقائيـاً فى جميع الحالات ، وإنما قد يكون راجعاً إلى التأثر بالصور أو النماذج الأجنبية .

والملاحظ أن شحنة المعنى التى تحملها بعض الكلمات شحنة تدعو إلى الدهشة حقاً ، وربما يظهر ذلك بوجه خاص فى بعض الأفعال الكثيرة الشيوع والذيوع مثل « يعمل ويقوم ويضع » الخ[٨٠] . وإنه لمما ينهض دليلا قاطعاً على أهمية السياق والمقام فى التبادل اللغوى أن الناس يستطيعون فى مثل هذه الظروف أن

---

(٧٩) الكلمة crane معناها الحقيق « طير الكركى » ، أما معناها المجازى فهو الآلة المذكورة وهى ما تعرف (بالرافعة) أو (الونش) باللغة الدارجة . ويمكن أن يمثل لهذه الحالة فى اللغة العربية بكلمة (أسد) التى تعنى الحيوان المعروف على طريق الحقيقة ، والتى تدل كذلك على (الانسان الشجاع) ولكن على سبيل الاستعارة (المترجم) .

(٨٠) كل كلمة من الكلمات لها معان كثيرة إلى حد ملحوظ . فمن معانى يعمل مثلا . يصنع (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب) ويؤثر (يعمل فيه عمل السحر) ويتصرف ويشتغل ويقوم بالعمل الخ . (المترجم) .

يتفاهموا فيما بينهم تفاهماً واضحاً صريحاً لا غموض فيه ، إن مقدرة الكلمات على أداء وظيفتها لا تتأثر بحال من الأحوال بعدد المعانى المختلفة التى قدر لها أن تحملها ، بدليل أن بعض هذه الكلمات تستطيع بالفعل أن تقوم بعشرات الوظائف فى سهولة ويسر .

ومن الجدير بالذكر أن الإنجليزية الأساسية ، Basic English التى وضعها الأستاذ أوجدن والتى تعد تجربة فى علم المعنى التطبيقى ، من شأنها أن تزيد فى شحنة المعانى التى يمكن أن تحملها الكلمات (٨١) . ولكن يجب أن نعلم من جهة أخرى ، أن الكلمة قد تصبح غامضة وغير صالحة للاستعمال بمجرد أن تكتسب دلالتين متعارضتين وغير متصلتين .

وقد ينشأ التعارض عندما يكون للكلمة الواحدة معنيان أو أكثر يصلح كل منهما للمواقف والسياقات التى يصلح لها المعنى الآخر . هذه النقطة قد يوضحها خير توضيح تاريخ الصفة الإنجليزية wan ، ذلك التاريخ الذى أعاده إلى الوجود حديثاً الأستاذ ، منر ، Mennor بجامعة « ييل » Yale ، لقد كانت هذه الكلمة حتى نهاية القرن السادس عشر تعنى « خافت الضوء أو مظلم » ، وعن طريق التغيير الطبيعى فى استعمالاتها اكتسبت معنى ثانوياً هو « دكنة الجروح وزرقتها وتغير لون الوجه بسبب المرض » . وبعد عام ١٣٠٠ ظهر المعنى الحديث لها وهو (شاحب الوجه) . وذلك بطريق الترابط العادى بين المعنيين . هذه التواريخ ذات مغزى كبير فى هذا الشأن ، إذ أنها تدل على أنه فى الفترة ما بين عامى ١٣٠٠ و ١٦٠٠ تقريباً ، كانت فى اللغة الإنجليزى صفة واحدة بمعنى « مظلم وشاحب اللون » معا وتدل أيضا على أنه قد كانت هناك حتما مواقف وسياقات صالحة لكلا المعنيين . أما الغموض الذى نتج عن هذه الحالة ، فقد حال دونه التخلص التدريجى من المعنى الأسبق فى الزمن . هذا المثال الذى ذكرناه، يعد مثالا نموذجيا لما

---

(٨١) أنظر الملحوظة (٤) (المترجم) .

يسمى « شحنة فوق الطاقة من المعانى overload of meaning » وهى تسمية متذللة إلى حد ما .

والعجيب فى الموضوع أن الإنسان لا يستطيع التنبؤ بما يحدثه المتكلمون من رد فعل إزاء هذه القضايا وأمثالها . ومن المعروف أن المعانى المتضادة للكلمة الواحدة قد تعيش جنبا إلى جنب لقرون طويله دون إحــداث أى إزعاج أو مضايقة ، فالكلمة اللاتينية attus مثلا قد يكون معناها « مرتفع ، أو منخفض وهذا مرجعه إلى الإدراك النسبى للمدى ، وهـــو إدراك تتحكم فيه وجهة نظر المتكلم . والكلمة sacer هى الأخرى قد يكون معناها مقدس ، أو ملعون ، وكذلك الشأن فى الكلمة الفرنسية الحديثة sacer (مقدس أو ملعون) والكلمه الإنجليزية biassed (مقدس أو ملعون) [٨٢] . ومع ذلك ، فاللغة — بالرغم من عدم مبالاتها بمثــل هذا التضاد فى المعنى — وقد تتأثر تأثراً بالغا بوجود الفروق الخفية الدقيقة بين المعانى . فالمعنيان المعروفان للصفة funny مثلا — وهما هزلى مضحك عجيب أو غريب الأطوار — قد أديا إلى ظهور هذه النكتة الأمريكية do you mean funny "ha ha" or funny "peculiar"

---

(٨٢) « التضاد » باب معروف مشهور فى اللغة العربية ومن أمثلته « الجون » ويطلق على الأسود والأبيض ، و « الجلل » الكبير والصغير . ومن الواضح أن المؤلف جعل « التضاد » من باب « تعدد المعنى » polysemyo أو ما تناوله بالمدرسة تحت العنوان الفرعى : مدلولات عدة للكلمة الواحدة ، ولم يجعله من باب المشترك اللفظى homonymy أو ما بحثه تحت العنوان : « كلمات عدة متحدة الصيغة » . ونحن لا نوافق المؤلف على هذا الصنيع . إن التضاد عندنا نوع من المشترك اللفظى وكل منهما لا يتحقق إلا فى كلمتين فأكثر لا فى الكلمة الواحدة ، وذلك على خلاف المشهور عن العرب فى هذا الباب . ونأمل أن نأتى ببحث مفصل فى هذا الموضوع فى المستقبل القريب إن شاء الله (المترجم) .

وهذا معناه أن صراعا بين المعنيين قد أخذ يظهر وينمو (٨٣) .

وقد ينشأ عن بعض السياقات العارضة حالات من الغموض ما كان ليتطرق إليها سوء الفهم فى الظروف العادية . وقد يؤخذ تاريخ الفعل الإنجليزى realise مثالا على ذلك . فهذا الفعل من معانيه (يحقق) و (يدرك الشىء ويتحقق منه) أما الفعل الذى يقابله فى اللغة الفرنسية وهو realiser فلم يكن له إلى عهد قريب إلا معنى واحد فقط هو (يحقق) ولكن التعاون الوثيق بين الحليفتين فى الحرب العالمية الأولى قد أدى إلى تسلل المعنى الثانوى للكلمة الإنجليزية — وهو يدرك ويتحقق — إلى اللغة الفرنسية تسللا بطيئاً . وقد كان ذلك مدعاة إلى ظهور مثل هذه الجملة العجيبة فى نشرة حربية آنذاك . (L'Etat — Major francais a p'einement realise les intention ennemies) ومن الواضح أن هذا معناه فى اللغة الفرنسية الصحيحة أن هيئة أركان الحرب الفرنسية قد (حققت) أغراض العدو على أتم وجه ! ! (٨٤) وليس هناك من فرق إلا فى الدرجة فقط بين هذا الخطأ الشنيع وبين العثرات المفرقة التى يقع فيها المترجمون الذين يخدعون

---

(٨٣) ترجمة العبارة هى : هل تعنى بالكلمة funny (مضحك) أو (عجيب) ؟ وتظهر النكتة هنا فى أمرين : فى التعبير عن (مضحك) بالأصوات (ha ha) التى هى تصوير صوتى للضحك ، وفى أن السامع ربما يعرف المقصود ولكنه يريد أن يفهم المتكلم بأن فى هذا الاستعمال نوعاً من التورية ، ومن ثم يسأله التوضيح على سبيل الدعابة . أما بيان ما يرمى إليه المؤلف فهو أن معانى الكلمة الواحدة قد يرق الفرق بينهما أحيانا إلى درجة يصعب معها التأكد من المعنى المقصود ، فكل واحد منها يصلح — أو يكاد يصلح — لبعض السياقات التى تصلح لها المعانى الأخرى . وهذا يفسر ما سماه المؤلف (الصراع بين المعانى) أى أن كل معنى منها يحاول أن يطغى على صاحبه ويستأثر بالاستعمال دونه (المترجم) .

(٨٤) تريد النشرة أن تقول أن هيئة أركان الحرب الفرنسية تدرك تماماً أغراض العدو . فكان من الضرورى إذن استعمال كلمة أخرى غير الفعل =

بالكلمات « ذات الصداقات المزيفة » ، أى الكلمات المتشابهة فى الصيغة المختلفة فى المعنى . فمن المعروف أن الكلمة الفرنسية spirituel معناها witty « حاضر البديهة » لا spiritual « روحى » وأن eventuel تعنى posaible « ممكن » لا eventual « عرضى » (٨٥) . ويحكى أن سيدة إنجليزية أخذت ذات مرة تنادى سيارة أجرة بباريس وتسأل السائق : (Etes — vous fiarce) إن هذه السيدة قد ضللها وجود معنيين للكلمة الإنجليزية engeged (٨٦) .

وهناك نوع آخر من الغموض الذى تقاومه اللغة بسرعة وحسزم . فربما لا يكون هناك صراع بين معانى الكلمة ، غير أن أحدهما قد يكون مستهجنا أو ذا مغزى سىء ، بحيث يتسبب فى عدم استعمال هذه الكلمة فى المعانى الأخرى

= realise الذى لم يكن قد اكتسب بعد معنى « يدرك » (وهو المعنى الذى تسلل إلى الفرنسية من الإنجليزية) اكتسابا يؤهله لاستعماله فى هذا المعنى وبخاصة فى مثل هذا السياق (المترجم) .

(٨٥) يشير المؤلف — كما هو واضح من سياق الكلام — إلى أن بعض المترجمين يخطئون فى ترجمة هذه الكلمات وأمثالها ، مخدوعين فى ذلك بالتشابه الصوتى بينهما . هذا هو ما قرره المؤلف ، ولكن الذى نعرفه هو أن كل كلمة من هاتين الكلمتين قد تفيد كلا المعنيين الإنجليزيين (المترجم) .

(٨٦) الكلمة الإنجليزية engaged لها معنيان هما : (خطيب بمعنى مخطوب) وثانيهما (مشغول) . أما الكلمة الفرنسية fiance فهى تتفق مع الكلمة الإنجليزية فى المعنى الأول فقط (وهو خطيبه) دون الثانى (وهو مشغول) . ولكن هذه السيدة الإنجليزية قد ظنت — خطأ — أن الكلمة الفرنسية fiance تفيد المعنى الثانى أيضاً (وهو مشغول) ، ومن ثم استعملتها فى العبارة المذكورة . ومن هنا جاء الخطأ فى التعبير ، إذ معناه حينئذ « هل أنت خطيب » ؟ فى حين أنها تريد أن تقول : (هل أنت مشغول) ؟ وهـذا ما يحتمه الموقف كما ترى (المترجم) .

الأقل منه فى الإساءة والاستهجان . ولقد قام الأستاذ « منر » Menner بدراسة استعمال الكلمة pervert « ضال » فى علم الكلام ، فوجد أنها لم تعد تستعمل هذه الأيام فى معنى spostate « مارق » ، لأن ورودها المتكرر فى عالم النفس التحليلى فى معرض الدلالة على الشذوذ الجنسى جعلها لا تليق بالأساليب الدينية . كذلك الحالة بالنسبة للكلمة undertaker فإنها منذ أن تخصصت فى معنى funeral undertaker « حانوتى » فقدت معانيها الأخرى التى لا يزال فى استطاعة الكلمة الأخرى underlaking أن تؤديها ، وهذه كلمة خالية من كل مغزى يشير إلى فكرة الموت .

وثم ضروب أخرى من الغموض أقل من سابقتها فى جذب الانتباه ولكنها أكثر منها خطراً . ونعنى بهذه الضروب تلك التى تتهدد كل الدراسات ذات الصفة التجريدية . كالعلوم السياسية والفلسفية والقانونية ، وكل ما يعرف بالعلوم الأدبية تقريباً . فهذه العلوم قد أخذت تظهر فيها وتنمو مجموعات ضخمة من المصطلحات المتضاربة أو المتداخلة . ولقد لمسنا نتائج ذلك بأنفسنا عند دراستنا للمعنى ، وبقطع النظر عما قد يكون هناك من المعانى غير المحددة أو المحددة تحديداً ناقصاً للمصطلحات ، فقد توجد معان محددة تحديداً تاماً ، ولكن لا يصح وقوع أحدهما فيما يقع فيه الآخر من سياقات ، فإذا لم ينص على المراد صراحة ، فليس هناك من وسيلة لمعرفة المعنى المقصود الذى استعمل فيه المصطلح فى السياق المعين وقد نعمل على علاج مثل هذه الحالة بطريقة أمريكية ذكية ، كأن نضيف بعض الكلمات التوضيحية فنقول مثلا فى المصطلح psycho - analysis : معناه عند فرويد Freud : (التحليل النفسى بالمعنى الذى قصده فرويد من هذا المصطلح) ، وهو معنى يختلف عما جرى عليه أدلر Adler أو ينج Jung مثلا . ولقد بذلت بعض الجهود من جهات علمية مختلفة فى سبيل الحد من تضخم المصطلحات وتعدد طرق استعمالها . فبدأت بعض الهيئات فى دراسة هذه القضية والعمل على توضيحها . كما صنفت قوائم بالمصطلحات التى تم الاتفاق عليها . غير أنه ليس هناك بالطبع أية وسيلة لفرض ما قد يتخذ من قرارات فى هذا الشأن . فالعاملون فى الحقل

العلمى سيجدون عندهم الميل دائماً — وهذا من حقهم — إلى استخدام المصطلحات المتفق عليها فى معان جديدة ، كما أنهم فى كثير من الأحوال سوف يعملون على ابتكار ألفاظ جديدة للدلالة على الأشياء المعروفة حق المعرفة . وهم بهذا السلوك يسهمون فى إيجاد مادة جديدة لفرعى المعنى المتعددة (٨٧) .

أما خارج المجالات العلمية فهذا الخلط فى استعمال الكلمات قد تكون له نتائج أشد خطورة . فاستعمال الكلمة الواحدة فى مدلولات مختلفة اختلافا كبيراً قد يوحى بالاتفاق بين المتكلمين ، حيث لا اتفاق فى الواقع . يحدثنا القديس أو جستين عن محادثة وقعت بين مسيحى ووثنى لم يكن بينهما اتفاق فى الهدف والقصد بالرغم من استعمالهما كلمه توهم بالاتفاق هى sains وذلك لأن الأخير كان يستعملها فى المعنى المادى لكلمة health (٨٨) بينما كان الأول يشير إلى الصحة النفسية وصفاء الروح . وإن الهوة الواسعة بين الشرق والغرب فى تفسير المصطلح ديمقراطية democrgcy الذى اشتمل عليه اتفاق يالتا بدون أية محاولة لتحديد معناه — ما هى إلا مثل واحد من الأمثلة الكثيرة التى تبعث على القلق فى الوقت الحاضر . كما أن الانحراف الطائش عن المعانى الحقيقة للكلمات لأغراض الدعاية ليس فى الواقع إلا خاصة من خواص الصراع الايديولوجى العنيف فى هذا القرن . وهذه الإنحرافات والتفسيرات الجديدة للمعانى — متخفية وراء كلمات تقليدية ، كلمات هى فى العادة غنية بمضمونها العاطفى والانفعالى — وقد يلقى بها

---

(٨٧) فرعا المعنى المتعدد اللذان يشير إليهما المولف هما ما أشير إليهما بالعنوانين : « مدلول واحد — ألفاظ عدة » و « لفظ واحد — مدلولات عدة » ويتحقق النوع الاول (وهو الترادف) فى الحالة الثانية التى أشار إليها المؤلف وذلك عندما تبتكر ألفاظ جديدة للدلالة على الأشياء المعروفه بالفعل . أما النوع الثانى فيتحقق فى الأولى وهى استعمال المصطلحات القديمة فى معان جديدة (المترجم) .

(٨٨) المعنى المادى لهذه الكلمة هو صحة البدن (المترجم) .

بدوره إلى لغة النشر والإعلام والدبلوماسية ، قصد إلى بلبلة أذهان الوسطاء من الناس . وهذا الاسلوب المضلل الخداع قد يؤدى إلى استغلال منظم لفكرة المعنى المتعدد ، ولكن هذا الاستغلال من الممكن مقاومته خير مقاومة بتدريب الملايين من قارئى الصحف ومستمعى الإذاعة على تفهم « علم المعنى والتعريف على مشكلاته » .

وفى كثير من الأحيان قد يؤخذ ما كان منقصة فى التفاهم اللغوى العادى على أنه ميزة فيما لو نظرنا إليه من وجهة نظر مخالفة فاستغلال الغموض كخاصة من خواص الأسلوب يكاد يكون قديما قدم الأب نفسه . ولقد كانت للاغريق نظرية دقيقة محكمة فى هذه القضايا وأمثالها وكذلك كان لشعراء التروبادور الإقليميين الذين يمثلون أول مدرسة للشعراء الغنائيين فى العصور الوسطى الذين كانوا ينظمون أشعارهم باللغة الدراجة . أما أكثر صور هذا الغموض سذاجة فهو التلاعب بالألفاظ punning . ويستطيع من شاء أن يستغل كلا من تعدد المعنى polyeemy والمشترك اللفظى homonymy أى فى استطاعته أن يتلاعب بالمعانى المختلفة للكلمة الواحدة ، كما يتلاعب بالكلمات المختلفة المتحدة الصيغة ، بالإضافة إلى استغلاله الغموض الذى يلازم ترتيب الكلمات وطرائق نظمها النحوى . ويعتمد كثير من الفكاهات والملح التى تجرى على ألسنة الناس فى الحياة اليومية على هذه المصادر التى تناولتها — كذلك — بحوث ذات مستويات عالية من الدقة فلقد قام الأستاذ و . امبسون W. Embson بتصنيفها وتحليلها فى كتابه القيم المسمى (سبعة أنماط للغموض Seven Types of Ambiguity) ، ولقد كان عصر الملكة اليزابيث أزهى عصور استغلال التلاعب بالألفاظ فى الأدب الإنجليزى (٨٩) .

---

(٨٩) قد تعد التورية فى البلاغة العربية نمطا راقيا من أنماط التلاعب بالكلمات على الوجهين اللذين أشار إليهما المؤلف ، وهما التلاعب بالمعانى المختلفة للكلمة الواحدة والتلاعب بالكلمات المختلفة المتحدة الصيغة . وقد يكون من =

(٢) كلمات عدة متحدة الصيغه

المشترك اللفظي حين يقارن بتعدد المعنى يمثل نقطة مهمة فى حياة اللغة . وهو محدود الوقوع والحدوث ولكن بصورة أكثر مما يظن الناس عادة . وهو تطور غير طبيعى فى اللغة ، وإذا جاز أن يعرض الفهم للخطر فى أى سياق ، كان هذا الخطر واضحاً إلى درجة تجعل من السهل مقاومته والتخلص منه . ومع ذلك لاتكاد توجد مشكلة أخرى من مشكلات المعنى نالت أكثر مما نال هو من عناية واهتمام فى السنوات الأخيرة . يكفى أن نعرف أن فرعاً جديداً تمام

= النوع الأول ما حدث بين الحجاج وأحد خصومه ، إذ قال له موعدا : لاحملنك على الأدهم (يريد القيد) فقال الرجل : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب (يريد الفرس) فقال الحجاج : ويلك إنه لحديد ، فرد الرجل : لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا .

ومن النوع الثانى نذكر المثالين التاليين :

يا سيدا حاز لطفا   له البرايا عبيـــد
أنت الحسين ولكن   جفـــاك فينا يزيد

فيزيد من المشترك اللفظى ، إذ قد يكون معناها هنا يزيد بن معاوية وقد يكون معناها يزداد . ومن هذا القبيل كذلك قوله :

نظرت إليها والسواك قد ارتوى   بريق علية للطرف منى باكى
تحدره من فوق در منضد   سناه لأنوار البروق يحاكى
فقلت وقلبى قد تقطع غيرة   أيا ليتنى قد كنت عود أراك
فقالت أما ترضى السواك؟ أجبتها   وحقك مالى حاجة بسواك

فسواك قد يكون معناها « غيرك » أو « السواك » المعروف (المترجم) .

الجدة قد أخذ يظهر إلى الوجود فى الدراسات اللغوية باسم ، علم المشترك اللفظى ، homonymics ، مستعملا فى منهجه أدق طريقة وأحسن أسلوب على ممكن لدى اللغويين ، ويتمثل ذلك فى إعتماده على الشواهد الموضوعية المستقاة من الأطالس اللغوية التى تسجل التوزيع الجغرافى للأصوات والكلمات والعناصر النحوية .

والمشترك اللفظى ينشأ عن مصدرين مختلفين ، أكثرهما وقوعاً اتفاق كلمتين مستقلتين أو أكثر فى الصيغة اتفاقا بطريق الصدفة . وعلى هذا ليس هنا أقل من أربع كلمات تمثلها الصيغة sound فى اللغة الإنجليزية . فهذه الكلمات الأربع بعد أن اشتقت من أصول مختلفة أخذت تقارب بعضها من بعض فى الصيغة حتى اتحدت وتماثلت . فالكلمة sound بمعنى healthy « صحيح البدن » كلمة جرمانية قديمة ، وهناك ما يقابلها بالفعل فى تلك اللغة وهى الكلمة gesund التى لا تزال تؤدى هذا المعنى نفسه . أما sound بمعنى صوت فإنها ترجع إلى الكلمة الفرنسية son ، وما العنصر d — إلا تطور متأخر الحدوث . و sound بمعنى ، سبر الغور ، امتداد للفعل الفرنسى sonder . وربما تكون هناك علاقة تاريخية بين هذه الكلمة الفرنسية وبين الكلمة sound الرابعة التى تعنى « مضيق الماء » والتى توجد فى لغات جرمانية متعددة .

وإذا كانت أكثر كلمات المشترك اللفظى تنشأ عن تطور الأصوات تطوراً ممتدا فى خطوط متقابلة بالتدريج ، فإن هناك كلمات أخرى تنشأ عن تطور مدلولات الكلمة الواحدة حين تمتد فى خطوط متباعدة إلى أن تنعدم العلاقة بينها ، وذلك كما فى flower flour (٩٠) . وأداة النفى الفرنسية pas تتحد هى الأخرى فى أصلها مع pas بمعنى خطوة . ولكن من ذا الذى يستطيع أن يدرك العلاقة بينهما فى عبارة مثل : pas un pas أى « ولا خطوة » ؟ على أن الحد الفاصل فى الحكم

---

(٩٠) flour معناها الآن (دقيق) و flower معناها (زهرة) ، ويفهم من كلام المؤلف أنهما كانتا فى الأصل كلمة واحدة ذات معنى عام واحد ثم تطور =

بالانفصال أو الاتصال ليس دائماً واضحاً وضوحاً تاماً . فالصيغتان metal . و mettle — اللتان يعدهما معجم اكسفورد كلمتين مستقلتين — ربما لا يزال كثير من الناس يعدونهما صورتين مختلفتين لاسم واحد . إننا لا ننكر أن طريقة كتابتهما كانت عاملا قوياً فى قطع الصلات التاريخية بينهما ، ولكن — بالرغم من ذلك — يورد لنا الأستاذ (ويكلى) Weekley اقتباسا من مسرحية يوليوس قيصر يشعر بخلاف ذاك .

(See, the their basest metal he not meved) (٩١)

ومن هذا الاقتباس يتبين لنا أن شيكسبير على الأقل كان يحس بالعلاقة التى بينهما .

والمشترك اللفظى العادى لا يعوق التفاهم اللغوى إلى درجة ملموسة . فالكلمات التى من هذا الباب قد تكون تابعة لأنواع مختلفة من الكلمات وذلك كأن يكون بعضها أسماء وبعضها أفعالا ، وأحيانا أخرى يعمل الاختلاف فى طريقة كتابتها على تقليل احتمال الخلط بينهما وأهم من هـــذا كله ، هناك صمام الأمان الذى يتمثل فى السياق ، فكثير من هـــذه الكلمات تنتمى إلى قطاعات مختلفة اختلافا

= استعمالها إلى أن أصبح لها معنيان مختلفان ، كما ظهرت لها صورتان فى الكتابة ومع ذلك فهما من باب المشترك اللفظى لاتفاقهما فى النطق ، كما قررنا ذلك من قبل . وهما أيضا كلمتان مختلفتان طبقا لوجهة نظر المتكلم الحالى بالرغم من احتمال رجوعها إلى أصل واحد . انظر أيضاً الملحوظة (٧٦) (المترجم) .

(٩١) metal و mettel من المشترك اللفظى لأنها تنطقان بصورة واحدة والأولى معناها (معدن) والثانية تعنى (البأس والجأش) . والرأى عند البعض أنهما صـــورتان كتابيتان مختلفتان لاسم واحد ، وبالرغم من أن اختلافهما فى الكتابة قد يوحى بقطع الصلة بينهما ، فهناك أمثلة تدل على أن الصلة كانت موجودة بالفعل ، كما فى الاقتباس المذكور . إذ قد استعملت metal فى معنى mettle (المترجم) .

تاماً من الثروة اللفظية ، وإنه كان من الصعب أن تتصور أى سياق يلائم معانى كلمتين (بله ما زاد عن اثنين) من كلمات المشترك اللفظى التى تنتمى إلى قطاعين مختلفين . وعلى هـــذا يظهر بطلان ما اقترحه الأستاذ (روبرت بردجز) Robert Bridages من أن الفعل الإنجليزى know مهدد بالغموض فى كل صيغة تقريباً ، لاشتراكه فى النطق مع غيره فى كل حالة . كما فى هذه الأمثلة :

Knows - nose know - no koew, new (٩٢)

ولكننا من ناحية أخرى ، نعترف بأنه لا يمكن التكهن إطلاقاً بعدد السياقات الممكنة وبطبيعة هذه السياقات . فقد يقع متصادم فجأة وبدون توقع بين الكلمات المنتمية إلى قطاعات مختلفة كل الإختلاف . وقد لاحـــظ يسبرسن بنفسه الخلط الذى وقع بين الـكلمتين sun, son حين سألت والدة طفلتها الصغيرة عما إذا كانت اللعبة التى تضمها بين ذراعيها هى (her son) فأسرعت الطفلة نحو الشباك وصاحت — مشيرة إلى السماء — (that is my sun) (٩٣) . غير أنه لا ضرر إطلاقاً من إهمال مثل هذه المواقف الشاذة فى سبيل أغراض التبادل اللغوى العادى.

وإذا أخذنا فى الحسبان الأعداد الممكنة من المجموعات الصوتية فى الثروة

---

(٩٢) كل كلمتين متقابلتين من هذه الأمثلة تتفقان فى النطق ، ومن هنا كان الحكم بأنهما من المشترك اللفظى ، بالرغم من اختلافهما فى الصورة الكتابية ، وبالرغم من انتماء كل كلمة منهما إلى قطاع مختلف من قطاعات الثروة اللفظية ، وربما يظهر ذلك من الترجمة التالية لهـــذه الأمثلة : (من اليسار إلى اليمين) (١) هو يعرف — أنف ، (٢) يعرف — أداة النفى ، (٣) عرف — جديد (المترجم) .

(٩٣) الكلمتان son بمعنى ، ابن ، و sun ، شمس ، من المشترك اللفظى لاتحادهما فى النطق . على أن الاختلاف فى طريقة كتابتهما قد يمنع الخلط بينهما ومع ذلك فقد يقع هذا الخلط أحياناً ، كما فى هذه الحالة ، فالأم تداعب طفلتها فتسألها هل اللعبــــة التى معها هى her son أى أبنها ، فتجيب الطفلة خطأ : that is my sun أى ، هذه شمسى . (المترجم) .

اللفظية فى لغة من اللغات لتبين لنا أن احتمال ظهور كلمتين من المشترك اللفظى فى مجال فكرى واحد احتمال يبدو بعيداً . ومع ذلك فوقوع مثل هذه الحالات ليس نادراً بحال من الأحوال ، وإذا ما وقعت نشأ عنها فى الحال الموقف (مرضى) pathological ، وكان من الضرورى حينئذ أن يقابل هذا الموقف بإجراءات سريعة حازمة ، والمثال النموذجى لهذا الإصطدام بين أفراد المشترك اللفظى هو الصراع بين الكلمتين : the cock (الديك) و the cat (القطة) فى منطقة معينة من جنوب شرقى فرنسا قد أدى التطور الصوتى فى الكلمتين إلى تماثلهما واتفاقهما فى الصيغة الصوتية . ومن البديهى أن هذا الوضع قد تسبب فى غموض لا يمكن احتماله ، وكان من الجائز أن يفسد الإدارة الناجحة للمزارع . على أن علاج هذه الحالة قد وجد بالفعل . فى هذه المنطقة التى تأثرت بهذه الظاهرة قد سمى (الديك) باسم آخر هو : (phesant) أو (sheriff) — (curat) وهذه تسمية حدثت فيما بعد . وهكذا نجد أن ما كان يستعمل فى الأصل مرادفا بقصد الفكاهة والدعاية كان من الضرورى الالتجاء إليه فى هذه الحالة ليسد به النقص (٩٤) أما فى غير هذه المنطقة فلم يقع هذا الإشتراك اللفظى ، ومن ثم لم تكن هناك حاجة إلى استبدال كلمة بأخرى .

وتقوم الجمعية اللغوية الآن بإعداد أطالس لغوية للجزر البريطانية ، والمتوقع أن هذه الأطالس سوف تمدنا عند الإنتهاء منها بمعلومات ذات شأن فيما يتعلق بالاصطدام بين مفردات المشترك اللفظى فى اللغة الإنجليزية ، وهى لغة معرضة لهذه الظاهرة بصفة خاصة ، بسبب وفرة الكلمات القصيرة فيها . وقد حدثت فى هذه الأثناء على كل حال دراسات أولية فى هذا الشأن بجامعة ييل . ومن الأمثلة

---

(٩٤) pheasent معناها (الديك) أيضا . أما sheriff فمعناها ممثل الملك أو الحاكم وهو ما يشبه (العمدة) عندنا و curate معناها (نائب الأسقف) . وهكذا نرى أن فى كل منهما معنى الرئاسة . ومن ثم جازت ترجمة كل منهما (بكبير القوم أو رئيسهم) . فإطلاقهما على الديك إذن إنما هو من باب التفكه ، لأن مظهر الديك بين الدجاج يشعر بالتفوق والرئاسة (المترجم) .

الطريقة للاصطدام المشار إليه ما يوجد بين الكلمتين queen - quean (٩٥) .
وكانت النتيجة أن تخلصت معظم اللهجات من الكلمة quean التى تعنى « وقحة أو سيئة السلوك أو فاجرة » . ولكن هذه الكلمة نفسها قدر لها أن تبقى فى مقاطعتى « سمرست » و « ديفون » ، حيث لم تتحد هاتان الكلمتان فى الصيغة الصوتية .
ولقد حدث تطور يشبه ذلك فى تاريخ الكلمتين : a near « كلوة » و an ear « أذن » . ومن الواضح أنه ليس من المستطاع تسمية عضوين مختلفين من أعضاء الإنسان باسمين متحدين فى النطق عندما تسبقهما أداة التنكير (٩٦) . ومن ثم حلت الكلمة kidney « كلوة » محل near فى معظم المناطق . أما فى المناطق الأخرى حيث بقيت هذه الكلمة الأخيرة ثابتة القدم فإن الكلمة ear هى التى اختفت واستعيض عنها بكلمة أخرى هى ing « أذن » وأوضح من هذا وأظهر فى هذا الباب الاصطدام بين gate « مدخل » و gate « شارع » . وقد ظهرت طريقتان تتبادلان فيما بينهما علاج هذه المشكلة . والطريقة الأولى هى طرح gate الثانية جانباً ، والطريقة الأخرى هى التفريق فى الصيغة الصوتية بينهما . وذلك بتحويل gate بمعنى «مدخل» إلى yate أو yett . أما الكلمة gait «طريقة المشى» التى تشترك مع الكلمتين السابقتين فى النطق فقــــد عدت طريقة كتابتها علامة مميزة لها .

وكما هو الشأن فى الصورة السابقة من صور المعنى المتعدد ، قد يؤدى ارتباط

---

(٩٥) الكلمتان من المشترك اللفظى لاتحادهما فى النطق فى معظم المناطق ، ومن ثم تخلصوا من quean خوفا من الخلط ، وبخاصة لفحش معانيها التى لا تليق بالكلمة الثانية التى تعنى « ملكة » (المترجم) .

(٩٦) a near و an ear من المشترك اللفظى فى هذه الحالة فقط (أى فى حالة وجود أداة التنكير وهى a فى المثال الأول ، an فى الثانى) لاتحادهما فى النطق حينئذ (المترجم) .

الكلمة بفكرة سيئة أو شيء غير مقبول إلى ظهور بعض الصعوبات (٨٧)، حتى ولو لم يكن هناك غموض حقيق . فني أمريكا مثلا ، طغت الكلمة donkey « حمار » على الكلمة ass « حمار » وحلت محلها ، بسبب التشابه الصوتى بين هذه الكلمة الأخيرة وبين كلمة يتحاشى الناس استعمالها هناك . وفى رأى الأستاذ ج . أور J. Orr المرجع البريطانى الأول فى المشترك اللفظى — أن الإحلال التدريجى لكلمة fly « ذبابة » مكان flee « ذبابة » قد يكون راجعاً إلى اتفاق الكلمة الأخيرة فى النطق مع flea « برغوث » ومن المقرر أن شعور المتكلمين نحو هذه المسائل ونحوها عامل رئيسى من عوامل « اللامساس » أو الحظر اللغوى الذى سوف يناقش فى الفصل الثالث من الباب الثالث (٩٨) .

وكثيراً ما يكون الغموض الناشىء عن المشترك اللفظى غموضا تافها أو سطحيا على الأقل ، ولكنه مع ذلك قد يكون ذا آثار خطيرة فى المواقف الانفعالية المتأزمة . ولقد تعرض المتلاعبون بمفردات المشترك اللفظى لعواقب وخيمة فى كثير من الأحيان بسبب خلوما تلاعبوا به من عنصر الفكاهة ، بل لقد دلت التجارب على أن الأبرياء قد يقعون فى مآزق حرجة أحياناً . كما حدث لامرأة طاعنة فى السن اقتيدت بعنف إلى محكمة الثورة بباريس بتهمة موالاة الملكية . إن هذه المرأة كانت تصيح فى الشارع بأنها تريد « ملكا » roi ، ومن حسن الحظ أنهم أدركوا فى الوقت المناسب أنها كانت تعنى a rouet « عجلة غزل » والذى سبب هذا الموقف الحرج هو وجود التشابه الصوتى بين هاتين الكلمتين فى اللغة الفرنسية آنذاك .

---

(٩٧) الصورة التى يشير إليها المؤلف هى تعدد معنى الكلمة الواحدة . فى هذه الحالة قد يكون أحد معانى الكلمة مرتبط بمغزى سيء أو قبيح ومن ثم يتسبب فى عدم استعمال هذه الكلمة فى المعانى الأخرى ، خوفا من الخلط والغموض . (والمترجم) .

(٩٨) انظر ص ١٧٤ وما بعدها (المترجم) .

ولقد أدى اكتشاف التصادم بين مفردات المشترك اللفظى الذى توصل إليه Gillicron — رئيس تحرير الأطلس اللغوى الفرنسى — إلى القاء ضوء لم يكن قط فى الحسبان على الحرب الضيقة بين الكلمات ، أى على النضال الدائم من أجل الحياة داخل الثروة اللفظية ، ومن الممكن ملاحظة هذا النضال بسهولة فى لهجات الريف ، تلك اللهجات التى تقل فى مستواها عن المستوى النموذجى للكلام ، ومما يزيد فى طابع هذا التوتر ويقويه ما تتعرض له الثروة اللفظية من أوهام فى تصريف الكلمات واشتقاقها ، ومن صراع بين المترادفات ، ومن شحن للكلمات بمعان كثيرة ، ومن غموض مختلف الأنواع ، إن هناك قوى للتوحيد وأخرى للتفريق لاتكف عن العمل ، ووراء الصورة الخارجية للثروة اللفظية التى تتسم فى ظاهرها بالسكون والهدوء ، وهذا السكون سكون خادع فيما لو نظرنا إليه من زاوية أخرى ، إن ظروف الحياة المتغيرة تفرض على اللغة أن توافيها بحاجاتها دائما وأبدا ، فالأشياء المستحدثة لابد لها من وسائل لغوية جديدة للتعبير عنها ، وكذلك الأفكار القديمة هى الأخرى بحاجة إلى مثل هذه الوسائل حين يتناولها الفهم تناولا حديثا . وكل هذا يعنى أن صورة الثروة اللفظية التى تبدو فى ظاهرها استاتيكية ساكنة لابد أن تتمها وتكملها صورة أخرى لثروة لفظية ديناميكية متحركة .



الباب الثالث

حركية الثروة اللفظية

الفصل الأول

المصادر الخلاقة

هناك أربع طرق يستطيع أن يسلكها المتكلم حين تدعو الحاجة إلى سد النقص في الثروة اللفظية للغة . فني إمكانه أن يبتكر كلمات جديدة ، أو أن يلجأ إلى إحدى السبل المعروفة في صوغ الكلمات ، أو أن يقترض كلمات من لغة أخرى ، أو أن يغير في معاني الكلمات الموجودة بالفعل .

الابتكار

من النادر أن تخلق الكلمات من لاشيء . وقد يبدوا لأول وهلة أن بعض المصطلحات العلمية والفنية والتجارية قد ابتكرت بهذه الطريقة ، ولكنا لو أنعمنا النظر لوجدنا أنها تولدت عن أصل ما من الأصول . ومن الأمثلة التقليدية التي تساق للتدليل على الابتكار في ميدان العلوم المصطلح gas « جاز » الذي ينسب إلى الفيزيائي الهولندي فان هلمونت Van Helmont الذي كان يعيش في القرن السابع عشر ، ومع ذلك فهذا العالم نفسه يعترف في مذكراته بأن صورة الكلمة chaos « هيولى » كانت حاضرة في ذهنه عندما بدأ يفكر في المصطلح الجديد . ومها يكن الأصل المباشر لكلمة kodak « كوداك » فإن نجاحها العريض في الاستعمال إنما يرجع دون شك إلى وجود صوتي الكاف اللذين يعبران عن طقطقه الآلة المعروفة بهذا الاسم .

والحق أن تقليد الأصوات ومحاكاتها هو المصدر الضخم لابتكار الكلمات . فبمجرد أن يتحدد الإطار العام لهذه العملية — عملية التقليد والمحاكاة — يصبح من السهل أن نأتي بمادة جديدة قابلة للزيادة على نطاق واسع . ومن ذلك مثلا :

أنه فى استطاعتنا دائما أن نضيف عناصر جديدة إلى الكلمات المبدوءة بالأصوات — si و sn — التى نوقشت فيما مضى (٩٩) . وربما تظل بعض المبتكرات الجديدة مقصورة على الاستعمال الفردى الذى ظهرت فيه أول ماظهرت وقد ينتشر بعضها فى مناطق محدودة ، وقد ينتقل بعض آخر مع الكلام إلى اللغة (١٠٠) . غير أن دخول هذا البعض الأخير فى اللغة سوف لايتعدى الحدود الجانبية للنظام اللغوى ، ونعنى بهذه الحدود تلك المنطقة الغامضة التى تنتمى إليها الأصوات التعجبية ونحوها . أما أعظم هذه المبتكرات حظا فسوف تجتاز هذه المراحل الشاقة وتنفذ إلى داخل الثروة اللفظية نفسها . ومن الجائز حينئذ أن نفقد بالتدريج كل أثر من آثار أصولها التى أمدتها بقوة التعبير والتقليد ، وفترة الحضانة مصدر خصب للابتكارات المولدة عن تقليد الأصوات والعوامل الانفعالية . وهذا هو السبب فى أن العناصر التى ترجع فى أصلها إلى لغة الطفل تتشابه تشابهاً بيناً فى اللغة العامة بمختلف أساليبها ، كما هو الشأن فى الكلمات العادية المحاكية لأصوات الطبيعة . واللهجات الطبقية أو البيئة الخاصة — مع ما تتميز به من اهتمام بالعناصر الفكاهية والألوان الانفعالية التعبيرية القوية والبعد المتعمد عن اللغة النموذجية — غنية هى الأخرى بمثل هذه الابتكارات . وهذه هى الحال أيضا فى اللهجات الدارجة التى ليست متقيدة بالتقاليد التى تحكم مستويات الكلام الأكثر ميلا إلى المحافظة .

ومهما تكن أهمية هذه المصادر فإنه من الصعب علينا أن نسد النقص الذى لا يكف عن الظهور فى الكلام الإنسانى دائماً وأبدا . وإن مجال هذه المصادر

---

(٩٩) الكلمات التى يشير إليها المؤلف تحتوى على عنصر التقليد والمحاكاة للمدلول أو الأحداث المعبر عنها ، وكل مجموعة من هذه الكلمات تمثل إطارا عاما لعملية من عمليات التقليد الصوتى ومن الممكن أن ننسج على منوالها فنبتكر أمثلة لاحصر لها من هذا القبيل . أنظر ص ٨٦ (المترجم) .

(١٠٠) انظر ص ٢٢ ومابعدها ، لمعرفة الفرق بين الكلام واللغة (المترجم) .

بمجـــال ضيق ، تـكاد تـكون محصورة فى الكلمات المولدة عن طريق الانطباعات الحسية والكلمات ذات الألوان العاطفية أو الصبغة الفـكاهية لذلك كان من الضرورى وجود طرق أخرى أكثر تنوعا ودقة لمقابلة حاجة التقدم الفنى والعقلى فى الحياة وأسهل هذه الطرق وأوضحها إستغلال المـادة الموجودة بالفعل فى خلق كلمات جديدة .

صوغ الـكلمات

Word — Formation

التركيب **composition** والاشتقاق **derivation** هما الطريقتان المتفق على صحتهما فى صوغ الـكلمات . وهناك طرق أخرى لا ترقى إلى هذا المستوى من القبول ومن أكثرها وقوعا المزج **blending** والمماثلة بين الكلمات بطريق الربط الزائف بينها **populare etymology**

— التركيب :

تنشأ الـكلمات المركبة كلما ضمت كلمتان مستقلتان بعضهما إلى بعض لتكوين كلمة جديدة . وهناك حالات بين بين ، وهى ما يكون الضم فيها غير مستقر ، حتى إننا لنتردد فى الحـكم على حقيقة الجزأين فى الـكتابة . فلقد تساءل الناس مثلا عما إذا كانت **stone wall** كلمة مركبة أو أنها مجرد ارتباط متكرر الوقوع لكلمتين منفصلتين . على أن وجود الصيغة **stonewalling** فى لغة الـكواكب والسياسة قد يؤخذ دليلا على أن العبارة السابقة قد قطعت شوطاً بعيداً فى طريق التركيب ، غير أن العبارة النهائية لم تتم بعد . وحين تتم ، سوف توجد ـ كما هى العادة ـ دلائل خارجية وداخلية على أن التركيب قد وقع بالفعل ، كما هى الحال فى الكلمة **blackbird** التى لا تطلق على كل طائر أسود ، وإنمـا تطلق على نوع معين من الطيور . إن الإدماج الذى حدث بين طرفيها قد دل عليه فى النطق إخضاع الجزأين

لنبر واحد ونطقهما مغامرة واحدة دون فاصل (١٠١) . وهذه هي المرحلة العادية للمركبات الحقيقية المولدة ، حيث يرتبط الجزءان إرتباطاً قوياً ، ولكن من غير أن يقضى ذلك على ذاتيتهما . وتتحقق المرحلة الثانية عندما يبدأ الإدماج بينهما في القضاء على ذاتيتهما الصوتية كما في نحو : breakfast . وقد يتأثر المعنى وقواعد النحو بهذا التغير الذى يصيب الاستقلال الصوتى لعنصر الكلمة المركبة ، ولكن النظام العتيق للكتابة عندنا لا يساير هذا التغير ، ومن ثم يحتفظ ببعض الآثار التى تدل على الأصل الذى تولدت عنه الكلمات المركبة (١٠٢) . على أن هذه الآثار نفسها قد تختفى هى الأخرى فى النهاية ، وبذلك تصبح الكلمة المركبة وحدة تتجزأ . فمن ذا الذى يدرك الآن أصل الكلمة iord أو أصل ما يقابلها وهى lady ؟ إن الكلمة الأولى تركيب قديم من :

ward — loaf « خباز » والثانية ترجع فى الأصل إلى loaf — dough « عجانة »

---

(١٠١) blackbird مكونة فى الأصل من : black بمعنى (أسود) و bird بمعنى (طائر) . أى أن المعنى الأصلى قبل أن يتم التركيب هو (طائر أسود) . فعدم إطلاقها الآن على كل طائر أسود إذن يعنى أنها قد ذهبت فى طريق التركيب إلى حد بعيد . ويدل على ذلك خضوعها للقوانين الصوتية الخاصة بالكلمات المفردة كما قرر المؤلف ، ومن ذلك أن فيها نبرا واحـــد وموقعه الجزء الأول . أما قبل أن يتم التركيب فقد كان هناك نبر مستقل لكل جزء من جزأيها (المترجم) .

(١٠٢) breakfasf مكونة فى الأصل من : breaK (يكسر أو يقطع) والحركة فيها حركة مركبة كتلك التى فى نحو day أو ما تسمى diphthong وترسم صوتيا (ei) و fast بمعنى (إمساك) . وحركتها تشبه الفتحة الطويلة فى نحو (نار) العربية . أما بعد التركيب فقد فقد العنصران شيئاً مهما من ذاتيتهما الصوتية : فالحركة فى الجزء الأول وهو (break) أصبحت تشبه الحركة فى نحو red (أحمر) والحركة فى tast تحولت إلى ما يشبه الفتحة القصيرة المرققه فى اللغة العربية . أضف

٣ ـ الاشتقاق

تشتمل اللغة على عدد ضخم من العناصر الصرفية التى تساعد على تكوين كلمات جديدة من كلمات أو أصول موجود بالفعل . وهـــذه العناصر إما سوابق prefixes كما فى نحو re read أو لواحق suffixes كما فى read er . وقد تحتوى بعض اللغات على عناصر أخرى فى صلب الكلمة أو ما يسمى « بالأحشاء » infexes (١٠٣) . وبهذه الطريقة نستطيع أن نصوغ الأسماء والأفعال من الأسماء والأفعال ، ومن ثم نحصل على أربعة نماذج رئيسية للاشتقاق . وفى اللغة الإنجليزية بالإضافة إلى ذلك إستعداد كبير للاشتقاق الضمنى ، فقد تتحول الكلمات فيها من قسم إلى آخر من أقسام الكلمة دون أن يدل على ذلك دليل خارجى كما فى نحو :
to break a break to know — to be in the know etc. (١٠٤)
وهذا الأسلوب الاشتقاق يؤدى إلى ظهور نوع عجيب من الكلمات المشتركة فى

= إلى ذلك خضوع الكلمة لنبر واحد يقع على الجزء الأول منها . وقد تأثر المعنى بهذا التغيير الصوتى ، إذ صار معنى الكلمة المركبة « إفطار » كما تأثرت قواعد النحو أيضاً ، فالكلمة بعد التركيب إسم ، وليس كذلك الحال فى الأصل ، إذا الجزء الأول وهو break فعل والجزء الثانى وهو fast اسم . وعلى كل حال فلا زلنا ندرك أصل هذه الكلمة ونحس به بفضل طريقة الكتابة التى احتفظت بآثار هذا الأصل (المترجم) .

(١٠٣) قد سبقنا إلى استعمال المصطلح « أحشاء » الزميل الدكتور تمام حسان ومثال ذلك فى العربية الألف فى نحو ، « قاتل » أما السوابق فمثالا حروف « أنيت » التى تدخل فى أول الفعل المضارع ، ويمثل اللواحق بالضمائر المتصلة التى تلحق آخر الفعل الماضى (المترجم) .

(١٠٤) break الأولى (من اليسار) فعل والثانية اسم . و break الأولى (من اليسار أيضاً) فعل والثانية إسم . وهكذا نرى أن الكلمة الواحدة قد تكون =

اللفظ المختلفة فى الوظيفة النحوية فى اللغة ، كما رأينا فى حال الصيغة round التى تنتمى إلى خمسة أقسام مختلفة للكلمة (١٠٥) . ومن الطبيعى ألا يترتب على ذلك أى خلط أو غموض ، حيث إن السياق فى الجملة سوف يرشدنا إلى المقصود بوضوح.

والمعروف أن كثيراً من اللواحق فى اللغة الإنجليزية كانت فى الأصل كلمات مستقلة . لكن تكرر ظهور هذه الكلمات فى المواقع الثانية فى كلمات مركبة كثيرة ، أخذت تفقد ذاتيتها بالتدريج ، حتى آلت إلى مجرد عناصر صرفية قابلة للدخول فى أية أمثلة جديدة بالطريقة ذاتها . هذه العملية تعرف « باللصق » agglutinsithn أو « الوصل والضم » ، وهى عملية لها كذلك دور مهم فى تصريف الكلمات فاللاحقة dom – فى نحو wisdom ، حكمة ، و Charistendom ، المسيحية ، هى هى الكلمة doom ، وكلاهما مشتق من الفعل to do . واللاحقتان head — فى نحو Godhead ، ألوهية ، و hood فى maidenhood ، عذرية ، كان لهما فى يوم من الأيام معنى kind ، نوع ، (١٠٦) التى لا يزال ملحوظاً فى الكلمة المركبة : mankind ، النوع الإنسانى ، . ولقد استنفدت بعض هذه اللواحق القديمة طاقتها

= فعلا وقد تكون اسماً بدون وجود ما يدل على ذلك من سوابق أو لواحق أو أحشاء . وعندنا ما يشبه ذلك فى اللغة العربية . فصيغة اسم الفاعل قد تكون اسماً وقد تكون فعلا ، والسياق هو الذى يحدد المقصود (المترجم) .

(١٠٥) أنظر ص ٥٤ حيث قرر المؤلف أن round فى اللغة الإنجليزية قد تكون اسماً أو فعلا أو صفة أو ظرفا أو حرف جر . والاشتقاق الضمنى الذى أشار إليه المؤلف يوجد أيضاً فى اللغة العربية ، وإن كان ذلك على نطاق ضيق . فاسم الفاعل قد يكون من باب الأسماء (أو ما نسميه نحن ، بالإسميات) أو من باب الأفعال (أو ما نسميه بالفعليات) (المترجم) .

(١٠٦) الذى يرمى إليه المؤلف هو أن إفادة هاتين اللاحقتين لمعنى الكلمة kind دليل على استقلالها فى الأصل (المترجم).

وفاعليتها ، بينما لا يزال البعض الآخر خصباً كما كان من قبل . فلا يزال فى استطاعتنا أن نصوغ من الصفات ظروفاً جديدة لا حصر لها بإضافة اللاحقة ly التى ترجع — مع صاحبتها like — فى نحو godlike «ربانى» — إلى الكلمة الإنجليزية القديمة lic «جثة» التى لا يزال أثرها باقياً فى نحو lich — gate (١٠٧) . واللاحقة الفرنسية mont — التى تقابل ly — تنحدر عن اللاتينية : ments, mens بمعنى «عقل» ولا يزال هذا الأصل واضحاً فى الكلمة mentel (عقلى) (١٠٨) .

وتستطيع بعض اللغات أن تكون كلمات ضخمة شنيعة بوساطة تكديس اللواحق والنهايات الصرفية بعضها فوق بعض . من هذه اللغات — وهى ما تعرف باللغات «اللصقية» agglutinative languages — اللغة الهنغارية التى تحتوى على كلمات لا يكاد يستطيع اللسان النطق بها ، كتلك الكلمة التى تتكون من ثلاثة عشر مقطعاً : legeslegmegvesztegethcterlenebbaknek

٣ - المزج :

وقد لا يستطيع المتكلم أن يفصل بين كلمتين وردتا إلى ذهنه دفعة واحدة ، وربما تداخل الكلمتان فيما بينهما تداخلا تاما . والنتيجة الطبيعية لمثل هذه الزلة

---

(١٠٧) lich — gate معناها (مدخل المدفن حيث تنتظر الجثة وصول رجل الدين) . ومن الواضح أن إرجاع اللاحقتين — ly و like — إلى الكلمة lic يعنى أنهما تعرضتا لتطوير كبير فى الصوت والمعنى . ومثال صوغ الظروف من الصفات بإضافة great — ly (عظيم) ، greatly : (بدرجة عظيمة) (المترجم) .

(١٠٨) يعنى المؤلف هنا أيضاً أن اللاحقة الفرنسية ment — كانت هى الأخرى كلمة مستقلة ، ويتبين صوغ الظروف من الصفات بإضافة هذه اللاحقة من المثال التالى : grand (عظيم) ، grandment (بدرجة عظيمة) (المترجم)

وجود كلمة هى خليط من عناصر مختلفة ، أو صيرورة الكلمتين كلمة واحدة عن طريق المزج بينهما ، contamiuation ، أو تكوين كلمة صناعية مشتملة على مزيج من أصوات كلمتين أخريين وجامعة لمعنيهما " a "portmantean Word .

وأكثر الكلمات التى تكون بهذه الطريقة ذات عمر قصير ، غير أن قدراً غير يسير منها قد يكتب له البقاء فيستقر فى اللغة ككلمات جديدة . من ذلك الكلمة tlush التى تتكون عناصرها من الكلمتين flash و blush والتى تمثلها بصورة ذكية عادلة . ومن هذا القبيل أيضاً brunch التى تتكون من : breakfast — lunch وبهذه الطريقة نفسها قد كونت بعض الكلمات العادية فى اللغة ، فالكلمة الانجليزية render (ويقابلها فى الفرنسية render) مأخوذة من نقطة التقابل بين الكلمتين اللاتينيتين : prendere (يأخذ) و rendere (يعطى) .

وبالرغم من أن الكلمات المكونة بطريق المزج ليست ذات شأن كبير فى عملية الابتكار اللغوى ، فلها مع ذلك جوانب أخرى مهمة . من ذلك مثلا أن علماء التحليل النفسى قد حاولوا تفسيرها على أنها أدلة كاشفة عن اللاشعور ، وفى سبيل تأييد هذه النظرية ، استغل فرويد المادة اللغوية استغلالا تاماً فى بحثه : psycho — pathLogy of Everyday Life وقد اهتم بهذه المشكلة كذلك علماء النقد الأدبى منذ أن عمد عدد من الكتاب البريطانيين والأجانب على السواء إلى تكوين الكلمات عن طريق المزج كخاصة من خواص الأسلوب . ولقد استطاع (لويس كارول) Lewis Carroll — بحساسيته المرهفة إزاء المعانى — أن يظفر بما يرمى إليه من تأثيرات هزلية بطريق المزج بين الكلمات ، كما يبدو ذلك فى رواية (من خلال المـــرآة) Through the Loking-gless . وقد نجح (جيمس جويس) James Joyce منذ ذلك الحين فى تطوير منهج فنى متقن ، أساسه أن الكلمات يجب أن تعبر عن فكر عدة فى آن واحد ، شأنها فى ذلك شأن الاوتار الموسيقية تصدر نغمات عدة فى صوت واحد .

٤ – المماثلة بين الكلمات عن طريق الربط الزائف

قد لاحظنا الدور الذى تقوم به هذه الطريقة فى موضع الكلمات عند مناقشة (التوايد) motivation (١٠٩) . ومحتوى الثروة التى نحصل عليها من هذه السبيل مع الكلمات المكونة بطريق المزج ، فهى مثلها فى أنها تتولد عن الأخطاء وفى أن بعضها ينبذ ويطرح جانباً بعد بيان وجه الصحة فيه ، غير أن بعضها قد يتسرب إلى الثروة اللفظية.

وهناك طريقة ثانوية فى صوغ الكلمات أصبحت تلعب دوراً متزايد الأهمية فى عاداتنا اللغوية ، فلقد أدت سرعة الحياة الحديثة ، كما أدى التأثر بأساليب التعبير فى اللغات الدارجة واللهجات الطبقية الخاصة ، إلى ظهور عدد ضخم من الكلمات المجزوءة clipped words مثل : mathslab الخ (١١٠) ومن الحالات القصوى فى هذا المضمار الاكتفاء بالحروف الأولى من الكلمات وبعض الطرق الأخرى للاختصار . وهذه الأساليب الأخيرة ، على كل حال ، لا تتضمن ابتكاراً جديدا ولكنها تزيد فقط فى أعداد الكلمات الموجودة بالفعل ، مع منحها مذاقاً جديد وجعلها أقرب وآلف إلى النفس وأبعد ما تكون عن الصيغة الرسمية . وهذا يصدق ولو لم يكن هناك أى لون أو مغزى لهجى خاص . فمن المؤكد أن R. A. F. و Royel Air Force (١١١) تنبئان عن شىء واحد ولكن بطريقة مختلفة ،

---

(١٠٩) انظر ص ٧٢ — ٨٤ (المترجم) .

(١١٠) lab اختصار الكلمة laboratory بمعنى (معمل) و maths اختصار الكلمة mathematics ومعناها العلوم الرياضية (المترجم) .

(١١١) هذه العبارة معناها (السلاح الجوى الملكى) وقد يكتفى أحياناً بالحرف الأول من كل كلمة من كلماتها فيشار إليها بالطريقة التى ذكرها المؤلف أى R. A. F. . وقد بدأ هذا التقليد يظهر فى اللغة العربية حديثاً ، كما فى نحو ج.ع.م للدلالة على الجمهورية العربية المتحدة (المترجم) .

فالمدلول واحد ، ولكن بواعث الاستعمال والخصائص الأسلوبية مختلفة تمام الاختلاف .

الاقتراض

قد يلجأ المتكلم إلى أسهل الطرق وأقربها أحيانا حين يواجه بالنقص أو القصور في الثروة اللفظية ، أى أنه ربما يعمد إلى اقتراض الكلمات التي يحتاجها من لغات أخرى بدلا من أن يبذل أي مجهود إبداعي في الحصول على ما يريده . وهناك ثلاثة مصادر رئيسية يستطيع أن يستمد منها حاجته ، وهذه المصادر هى : اللغات الأجنبية ، واللهجات المحلية ، والاصطلاحات الفنية أو المهنية الخاصة ، وفي استطاعته فوق ذلك أن يسلك أحد طريقين : فهو إما أن ينقل الكلمات بصورها كما هى من استعمال خاص إلى آخر ، وإما أن يترجمها إلى لغته القومية : وتسمى الطريقة الأولى « اقتراض الكلمات » والثانية (الاقتراض بطريق الترجمة) .

(١) الاقتراض الأجنبي

عندما تنقل الأفكار أو النظم أو الأشياء من بلد أجنبي إلى آخر ، فلا أقل من أن يوجد في البلد الآخر ميل شديد إلى اقتراض الوسائل التعبيرية التي تدل عليها كذلك ، ولقد استوردت اللغة الإنجليزية الآلاف المؤلفة من الكلمات بهذه الطريقة . وهذه الكلمات تمثل رواسب التأثير الثقافي الضخم الذى شكل التاريخ البريطاني . فالاستعمار الروماني والدور الذى لعبه السلتيون في حياتنا وانتشار المسيحية والدور الذى قام به قراصنة الشمال والفتح النورماندى والفترة الطويلة للحكم اللاتيني والفرنسي وتأثير عهد النهضة وعهد إحياء العلوم الإنسانية والتوسع الاستعمارى والاتصال الحديث بمعظم اللغات والحضارات المختلفة في كل بقاع الأرض — وهذه الأحداث كلها قد انعكست انعكاساً صادقاً في المادة اللغوية التى وردت في أعقابها . وإذا ما ترتبت هذه المادة المقترضة ترتيباً تاريخيا حسب الوقائع المختلفة . وإذا ما وزعت على مجالات الفكر التى تنتمى إليها ، فلسوف

نظهر بصورة واضحة دقيقة لمراحل تكوين حضارة عريقة ، وعلى أن هذه الصور لا بد لها من صورة أخرى تكملها ، ونعنى بها تأثير اللغة الإنجليزية فى اللغات الاجنبية المختلفة . وهذا التأثير — على كل حال — لم يبدأ إلا فى وقت متأخر نسبياً فى التاريخ الاوربى . إذ لم يكن هناك اقتراض جوهرى من هـــذه اللغة حتى أواخر القرن السابع عشر . ثم حدث أن استقر الفرنسيون البروتستانت فى هذا البلد عـــلى أثر طردهم من بلادهم ، نتيجة لنقض لويس الرابع عشر ميثاقهم المعروف (بميثاق الأمان) ، وبدءوا يمثلون حلقة الاتصال بين بريطانيا وفرنسا ولم يمض وقت طويل حتى استطاع التقدم الضخم فى التفكير الفلسفى والسياسى البريطانى — تسانده التيارات الأدبية الجديدة — أن يخلق فى فرنسا جوا حقيقياً من الهوس بحب الإنجليز والتعلق بعاداتهم Auglomania ، هى نزعة كان فولتير أحد خواريها الأوائل ، ولقد انتشر تقليد حب الإنجليز فى فرنسا بسرعة مذهلة حتى إن أصوات الاحتجاج قد ارتفعت فى الخل مع كل جانب لمقوماته ، بل إنه مسرحية خاصة قد كتبت فى الموضوع نفسه . ومنذ عصر نابليون حـــتى الآن والتأثير الانجليزى والأمريكى يتدفق بلا توقف إلى اللغة الفرنسية واللغات الأخرى فى القارة الأوربية ، بفضل الاتصال التجارى والاجتماعى والرياضى بصفة خاصة .

وبالرغم من أن الكلمات المقترضة لم تحظ كلها بالقومية الكاملة فى أوطانها الجديدة ، فقد امتص بعضها بعضاً امتصاصاً كاملا ، بحيث لم يبق هناك أى أثر من آثار أصوله الأجنبية . فمن ذا يظن أن atreet كلمة لاتينية أو take أو call و they و them (١٢٢) كلمات اسكندناوية ؟ وليس هذا فقط بل إن بعض الكلمات من نحو nation و nature و race قد امتصت هى الاخرى نهائياً وبالرغم

---

(١٢٢) معانى هـــذه الكلمات بالترتيب (من اليمين إلى اليســـار) هى يأخذ ، يدعو ، أما they فهى الضمير المنفصل لجماعة الغائبين و them تقابل ما يعرفه فى اللغة العربية بالضمير المتصل الدال على جماعة الغائبين فى حالتى النصب والجر (المترجم) .

من أن أنماطها الفرنسية لا تزال موجودة [١١٣]. ونلاحظ فى الجانب الآخر من الصورة وجود بعض التعبيرات الأجنبية الصرفة مثل : raison d etre أو lebensraum [١١٤]. وهناك كلمات أجنبية كثيرة تقع فى وسط الطريق بين هاتين النهايتين ، فهى كلمات أصبحت جزءاً من ثروتنا اللغوية التى نستعملها فى حياتنا اليومية ، ومع ذلك تحمل فى ثناياها طابع الاستيراد الحديث . فصوت الشين مثلا الذى يوجد فى بعض الكلمات المقترضة من اللغة الفرنسية كما فى نحو machine و chaperon و chambagne ، يشير بصورة قاطعة إلى فترة تاريخية متأخرة إذا ما قورن بالصوت « تش » الذى نلحظه فى الكلمات المقترضة من زمن أسبق ، كما مثل : change و chapel و chase الخ . إنه النطق الفرنسى لا الإنجليزى — هو الذى لحقه التغيير ، فالمجموعة التى ترجع إلى زمن أسبق تعكس الصوت الفرنسى القديم . على حين يشتمل الاقتراض الأحدث عهدا على الصوت الحديث خلاف هذا الصوت القديم فى اللغة الفرنسية [١١٥] .

---

(١١٣) هـذه الكلمات الثلاث لا تزال صورها موجودة بالفعل فى اللغة الفرنسية ، إذ هى تكتب فيها بهذه الطريقة ذاتها ، ولكنها بعد أن انتقلت إلى الإنجليزية خضعت لقواعد النطق فى هذه اللغة خضوعاً تاماً ، وهذا يفسر معنى الامتصاص الذى يشير إليه المؤلف (المترجم) .

(١١٤) عندنا فى الكلام الدارج اليوم كلمات مقترضة من لغات أجنبية ولا تزال محافظة على أصلها الأجنبى محافظة تامة نحو تليفزيون وأسانسير ، وهناك عدد ضخم من الكلمات الأجنبية التى امتصتها اللغة العربية امتصاصاً كاملا بحيث زالت كل آثارها الأجنبية ، كما فى نحو « فنجان » و « مكنه » (المترجم) .

(١١٥) هذه الكلمات الست تشترك فى وجود الحرفين ch فيها ، وهنا يقتضى اتحادها فى النطق فيما يختص بالصوت الذى يرمز إليه بهذين الحرفين . ويفهم من كلام المؤلف أن هذا هو ما حدث بالفعل فى اللغه الأصليه لهذه الكلمات — وهى اللغه الفرنسيه — فى الزمن القديم ، إذ كانت تنطق آنذاك بصوت مركب هو « تش » =

إن الدافع الذي يكمن وراء الاقتراض اللغوي هو النزعة إلى التفوق والامتياز ومعنى هذا أنه قبل الإقدام على الاقتراض ، لابد أن تكون الأمة التي يراد الاقتراض من لغتها محسوبة في عداد الأمم التي ينظر إليها بأنها جديرة بالتقليد في كل المجالات بوجه عام أو بمجال معين على أقل تقدير . ويوضح هذه الحالة خير توضيح وجود لغتين أو أكثر متفاوتتين في المنزلة في الدولة الواحدة .. فلقد تساءل الناس عن السر في ندرة الكلمات السلتية في اللغة الإنجليزية ، في حين أن اللغات السلتية[١١٦] الدارجة مليئة بالكلمات الإنجليزية . ويعتقد يسبرسن أن السبب يجب أن يبحث في المركز الاجتماعي للمجموعتين اللغويتين . فلقد كان من دلائل الامتياز عند السلتيين المغلوبين على أمرهم أن يطعموا كلامهم باقتباسات إنجليزية خالية من البهاء والرونق بكثرة الاستعمال ، على حين لم يخطر على بالهم قط أن يضمنوا لغتهم الإنجليزية أي شيء من تعبيراتهم ذات الألوان البيئية الخاصة . وعلى هذا المنوال نفسه يسير المهاجرون الحاليون إلى الولايات المتحدة .

والنزعة إلى الامتياز والتفوق هي المسئولة أيضاً عن كل مظاهر التكلف والتصنع والادعاء التي تصاحب استعمال الكلمات الأجنبية في كثير من الأحيان . أما بالنسبة للغة الإنجليزية — تلك اللغة الفريدة في نوعها من حيث رحابة الصدر في تقبل الكلمات الأجنبية — فهذه القضية قضية معقدة إلى درجة طالما جعلت الناس ينظرون إلى الثروة اللفظية لهذه اللغة كما لو كانت مكونة من نصفين :

= ولكن هذا الصوت لحقه التطور في اللغة الفرنسية فيما بعد ، إذا أصبح ينطق بالشين في هذه الكلمات كلها . أما في اللغة الإنجليزية فنطق الحرفين ch يظهر في صورتين ، إحداهما : « تش » وهذا هو الحال في الكلمات المقترضة من اللغة الفرنسية في الزمن القديم ، أي قبل حدوث التطور المذكور . الصورة الثانية صوت الشين ، وهذا يظهر في الكلمات المقترضة بعد تطور النطق في اللغة الفرنسية ومن هذا يتبين أن النطق الفرنسي — لا الإنجليزي — هو الذي لحقه التغير ، كما قرر المؤلف (المترجم) .

تضف « سكسوق » ، وآخر « لاتيق » وقد لمسنا بأنفسنا بعض الآثار المترتبة على هذا الوضع عند دراسة المترادفات [117] .

وقد يؤدى التقارض العارض إلى « استيراد الصادرات » . فالكلمتان sport « رياضه » و ticket « بطاقه » اللتان ترجعان إلى الكلمتين الفرنسيتين : desport و etiquette قد عادتا إلى اللغه الفرنسيه مرة أخرى فى صورتهما الإنجليزية ، وقد حدث مثل هذا أيضاً مع الكلمه humour « فكاهه » التى تعد من الكلمات الأساسيه التى تكشف عن حقيقه الحضارة البريطانيه . وقد يحدث عكس هذا أيضاً ، فالكلمة bigot متعصب ، فى اللغه الإنجليزية مأخوذة من اللغه الفرنسيه ولكن من الجائز أن تكون الكلمه الفرنسيه نفسها مقترضه من أصل إنجليزى قديم جداً ، لعله العبارة القسميه by God .

وهناك طريقه أخرى أصعب مثالا من سابقتها فى استعمال العناصر الأجنبيه ، تلك هى الاقتراض بطريق الترجمه . فقد لا تنقل الكلمات الأجنبيه بعينها ، ولكن تترجم إلى مادة قوميه ، يراعى فى صياغتها أن تكون على نمط النموذج الأجنبى فالتركيب الفرنسى Haut — parleur صورة طبق الأصل للاستعمال الانجليزى loudspeaker ، وهو مكون من عناصر فرنسيه خالصه ، وكان من السهل أن تتحد هذه العناصر تلقائيا لتكون كامه واحدة ولكن الذى حدث هو أن هذا التركيب إنما ظهر بهذه الصورة تلبيه للنزعه إلى تقليد المصطلح الإنجليزى [118] .

---

(١١٧) أنظر ص ٩٩ — ١٠٣ (المترجم) .

(١١٨) loudspeaker ومعناها « مكبر الصوت مكونة فى الأصـــل من speaker + loud . وقد روعى هذا التركيب فى الترجمه الفرنسيه كما ترى . ويبدو أن العبارة العربيه « مكبر الصوت » قد صيغت هى الأخرى على هذا النسق ، إذ كان من الممكن ترجمه التعبير الانجليزى بكلمه واحدة هى (جهاز) ، كما هو رأى البعض بالفعل (المترجم) .

وليس من الصعب أن تصاغ العبارات الكاملة بهذه الطريقة ذاتهـــا ، فالعبارة الإنجليزية man — in — the — street « رجل الشارع » تصبح homme: de la rue في اللغة الفرنسية .

وهناك طريقة أخـــرى من طرق الاقتراض التي تؤثر في معاني الكلمات ، فقد يحتفظ بهذه الكلمات في لغتها القومية ، ولكن مع استعمالها في معان منقولة من كلمات أجنبية . وإنه لمن السهل علينا أن نتعرف على هذه الحالة حين تكون الكلمتان متشابهتين في الصيغة كما في نحو realise ، realieer[119] . إما إذا لم يوجد هذا التشابه في الصيغة فقد ينساق الإنسان إلى افتراض أن كلتا الكلمتين قد لحقتهما تغييرات مماثلة ، إن هذه التغيرات إنما تعكس بعض الخواص والميول الثابتة في العقل الإنساني عامة . فلقد ادعى البعض مثلا أن تطور معنى الكلمة الإنجليزية Hobby من « لعبة خشبية » إلى « هواية » قد حدث مثله أيضاً في الكلمتين الفرنسية dada والألمانية Steskenpferd ، أي أن لعبة الأطفال الخشبية في اللغات الثلاث قد خلعت أسمها على فكرة « الهواية » . ولكن هذا الرأي ينهار من أساسه حين نعلم أن المعنى الجديد في كل من اللغتين الفرنسية والألمانية لم يعرف إلا بعد ظهوره في ترجمات منقولة من اللغة الإنجليزية إلى هاتين اللغتين وهكذا نرى أن فكرة التطور هذه لا ترجع إلى أية خاصة من خواص العقل الإنساني .

٢ — الاقتراض من اللهجات .

قد تقترض اللغة النموذجية أو المشتركة أحياناً بعض الكلمات من اللهجات المحلية . فالنطق العجيب للحركة الأولى في bury إنما يرجع إلى نطق مقاطعة « كنت » Kent لهذه الكلمة . وكذلك لا يرجع نطق الكلمات merry و knell

---

(١١٩) أنظر ص ١١٩ (المترجم) .

و left بالكسرة القصيرة الممالة إلى تأثير المنطقة نفسها ، وبالرغم من كتابة هذه الكلمات بطريقة تختلف عما اتبع فى bury — ولو كان هذا النطق تطوراً عادياً فى اللغة المشتركة لوجب أن يكون بالكسرة الخالصة (i) فى هذه الكلمات كلها ، لا بالكسرة الممالة (e)[١٢٠] . والصوت v فى vixen — حين يقارن بالصوت f فى fox — مصدره هو الآخر مقاطعة « كنت » أيضاً[١٢١] .

(١٢٠) الحركة الأولى bury تنطق بالكسرة القصيرة الممالة كما هو فى نحو red أو (بيتهم) فى اللغة العربية الدارجة . وكان المفروض أن تنطق هذه الحركة نطقاً آخر غير هذا النوع من الكسر . وذلك لسببين ، أولهما وجود الحرف u الذى يرمز فى اللغة الإنجليزية النموذجية إلى عدد من أصوات اللين ، ليس من بينها — عادة — الكسرة القصيرة الممالة . والسبب الثانى هو أن التطور التاريخى الذى تعرضت له هذه الكلمة لا يؤيد هذا النطق ، كما يفهم من كلام المؤلف ، وكما سيتضح لنا الآن . ومعنى هذا كله أن نطق الحركة بهـذه الصورة سببه انتقال النطق المحلى إلى اللغة المشتركة العامة . والحركة المرموز إليها بالحرف (e) فى الكلمات الثلاث : left و knell و merry تنطق هى الأخـرى بالكسرة القصيرة الممالة بسبب تأثير النطق المحلى فى « كنت » ، ولا يعترض بأن هذا النطق — فى الكلمات الأربع — قد يكون راجعاً إلى عملية التطور الصوتى ، إذ لو كان الأمر كذلك لوجب أن يكون النطق فيها جميعاً بالكسرة الخالصة لا بالكسرة الممالة . وذلك لأن هذا الصوت كان يرمز إليه — فى فـترة من فترات تاريخ اللغة الإنجليزية — بالحرف y (وهو يقابل الياء فى العربية) . والعادة فى اللغة الإنجليزية أن يتطور هـذا الصوت إلى الكسرة الخالصة لا الكسرة الممالة ، كما قرر المؤلف . وهذه هى صور الكلمات الأربع فى إحدى الفترات التاريخية للغة الإنجليزية : byrgan (bury) ' myrge (merry) ' lyft (left) ' cnyllan (knell) (المترجم) .

(١٢١) vixen معناها « أنثى الثعلب » . و fox معناها « ثعلب » ، والكلمتان من أصل واحد ، فاختلاف النطق فى الصوت الأول منهما إذن سببه تأثير لهجة « كنت » كما أشار المؤلف (المترجم) .

٣ ـ الاقتراض الاجتماعى :

كل مجموعة إنسانية مهما صغرت لها لغتها الخاصة بها . فهناك فى دائرة الأسرة والمكتب والمصنع ومطاعم الجنود ، تتولد الكلمات والعبارات والمعانى الهامشية والألغاز وطرق التعبير الأخرى التى تختص بهذه البيئات والتى يصعب إدراكها على من لا ينتمى إليها . وهذا هو الشأن أيضاً فى المجموعات الأكبر والأوسع من تلك البيئات التى يربطها رباط المصالح المشتركة . كالمهنه والحرفة والتجارة والانتماء إلى مختلف فروع العلم والفن والصحافة والقوات المسلحة والكنيسة والهيئات الأكاديمية والرياضية الخ . فلكل من هذه المجموعات ثروتها اللفظية الخاصة بها ، وهى ثروة تعكس خصائصها الموضوعات والمناقشات التى يتناولها الأعضاء فيما بينهم ، وتسهل اتصالهم بعضهم ببعض ولكنها فى الوقت نفسه تزيد فى الهوة التى تفصلهم عن غيرهم ممن لا ينتمون إليهم . وهذا الاتجاه نفسه موجود فى اللهجات الطبقيه الخاصه — كلهجات السوقه واللصوص — ويقوى هذا الاتجاه فى هذه اللهجات النزعه إلى خلق مصطلحات صادقه التعبير ، وحاوية لعناصر الفكاهه والدعابة ، وكاشفة عن الروح البيئيه الخاصه ، وهـــذا يعنى أن هناك اتجاهاً نحو الابتعاد المتعمد عن الاستعمال اللغوى العام كما يعنى الشعور بالحاجه الملحه إلى تقويه الأواصر بين أعضاء المجموعه وإلى إبعاد الدخلاء والمتطفلين .

ومع هذا فإنه من المستحيل أن نضع حـــدوداً دقيقه بين لهجات اللغه الواحدة ، فكل واحد منا ينتمى إلى أكثر من مجموعه من هذه المجموعات اللغوية المتشابكة ، ونحن ، إذ ننتقل من مجموعه إلى أخرى ، نحمـــل معنا الثروة اللفظيه الخاصه بكل منها . وهذا يعنى أن المصطلحات الفنيه الخاصه مثلا لابد أن تتعدى حدودها الأصليه وتنفذ إلى الثروة اللفظيه العامه ، وبخاصه حين تفقد مدلولات هذه المصطلحات أهميتها أو صفتها الفنيه أو البيئيه فلقد اجتازت المصطلحات « عقدة النقص » و « التفتيت النووى » و « الوجودية » و « هيكل الطائرة » الحدود الضيقه لعلم النفس والعلم التحليلى وفيزياء الذرة والفلسفه

وصناعة الطائرات التي قد ابتكرت في الأصل من أجلها، وتسربت إلى ثقافتنا العامة التي امتصتها امتصاصا كاملا. وهذا يطبق كذلك على كلمات اللهجات الطبقية الخاصة التي لا تكف عن الانتقال إلى هذه الثقافة. وقد تحتفظ بعض الكلمات المنقولة من استعمال إلى آخر بما تتضمنه من معان خاصة لفترة طويلة، كما في الكلمة pal بمعنى «رفيق أو زميل» التي ترجع إلى لهجة الغجر في حين أن بعضا آخر من الكلمات سرعان ما يتلخص من بيئته الأصلية.

يتبين لنا من هذا أن الاقتراض الداخلي — بالرغم من صعوبة ملاحظته والتعرف عليه — عملية مستمرة — أفقيا ورأسيا — في كل القطاعات وكل الاتجاهات الممكنة، أي من مجموعة لغوية إلى أخرى، ومن اللغات المشتركة إلى اللهجات الاجتماعية الخاصة والعكس بالعكس. والتقارض اللغوي بكل أنواعه أحد العوامل الكبرى في استمرار التجديد في الثروة اللفظية للغة وذلك بالإضافة إلى ماله من تأثير فعال في المعنى.

ومن المؤكد أن ابتكار المفردات وصوغها واقتراضها من استعمال إلى آخر تستطيع بالتعاون فيما بينها أن تسد نقصاً كبيراً في الثروة اللفظية، ولكن من المشكوك فيه أن تستطيع اللغة مقابلة ما تفرضه عليها حاجات الحياة الحديثة المطردة النمو بصورة فعالة، ما لم تكن لديها طريقة أخرى أكثر مرونة ودقة، هذه الطريقة التي نعنيها هي إضافة معان جديدة إلى الكلمات الموجودة بالفعل

الفصل الثانى

أسباب تغير المعنى

لعلنا نتذكر أننا قد عرفنا المعنى بأنه علاقه متبادلة بين اللفظ والمدلول ولسوف يفيدنا هذا التعريف فى دراستنا عندما ننتقل من الصورة الثابتة إلى الصورة المتحركة لمعانى الكلمات ويقع التغيير فى المعنى كلما وجد أى تغير فى هذه العلاقه الأساسيه . ويظهر التغير فى هذه العلاقه فى صورتين اثنتين : فقد يضاف مدلول جديد إلى كلمه قديمه أو كلمه جديدة إلى مدلول قديم . أما الأمثلة التى توضح نظام العمل فى هاتين الصورتين فسوف نوردها بعد قليل — ويجدر بنا قبل الدخول فى أية تفصيلات أن نحاول إعطاء فكرة وجيزة عن هذه التغيرات وعن الأسباب النهائيه التى تتحكم فيها .

من هذه الأسباب ما هو معروف ومألوف لنا من قبل وهو الحاجه إلى كلمة جديدة ، أى كلمه أقدر من غيرها على التعبير عن المقصود . فإذا احتجنا مثلا إلى كلمة مناسبه لإطلاقها على (تسجيل) بمعنى الإسطوانة المعروفه فى عالم الغناء والموسيقى فأقرب طريق إلى ذلك هو أن نوسع فى معنى كلمه « تسجيل » (مصدراً) ، بحيث تشمل التسجيل بمعنى اسطوانه أو مسجل بالإضافه إلى عمليه التسجيل نفسها . على أن هناك حالات أخرى لا حصر لها يكون تغيير المعنى فيها غير مرتبط بأيه حاجه عملية ، حيث لا يعمل هذا التغيير على سد النقص الموجود فى الثروة اللفظيه ، وإنما يضيف أمثلة جديدة إلى المترادفات الموجودة بالفعل ، ما الداعى مثلا إلى إضعاف معنى الفعل « يموت » وما اشتق منه حتى يصبح جائز الاستعمال فى الكلام الدارج فى نحو « يموت فيه » و « يحبها

موت » ؟ (١٢٢) من البـــديهى أن اللغة لديها ثروة غنية من الكلمات المماثلة التى تستطيع أن تختار منها ما تشاء ، ولو لم تـكن هذه الـكلمات الجديدة موجود . ويجب أن نعلم على كل حال أن أسباب تغير المعنى معقدة متشابكة إلى درجة تجعل من العسير علينا أن نرجعها جميعاً إلى الحاجة العملية الذهنية الصرفية .

وتغير المعنى ليس إلا جانباً من جوانب التطور اللغوى ، ولا يمكن فهمه فهما تاما إلا إذا نظرنا إليه من هذه الزاوية الواسعة . فاللغة ليست هامدة أو ساكنة بحال من الأحـــوال ، بالرغم من أن تقدمها قد يبدو بطيئاً فى بعض الأحايين . فالأصوات والتراكيب والعناصر النحوية وصيغ الـكلمات ومعانيها معرضة كلها التغير والتطور . ولـكن سرعة الحركة والتغير فقط هى التى تختلف من فترة زمنية إلى أخرى ومن قطاع إلى آخر من قطاعات اللغة . فلو قمنا بمقارنة كاملة بين فترتين لغويتين متباعدتين لـكشف لنا الأمر عن إختلافات عميقة كثيرة ، من شأنها أن تعوق فهم المرحلة السابقة وإدراكها إدراكا تاما . فما لا شك فيه أننا فى حاجة إلى استعداد لغوى خاص كى نتمكن من فهم الملحمة الإنجليزية القديمة Beowulf مثلا ، أو أن نتذوق أساليب النثر فى عهد « الملك ألفريد » King Alfred بالرغم من أنه لم يكن هناك انفصال حقيقى بين الفترات التاريخية للغة الإنجليزية .

وكل التغيرات التى تصيب اللغة — مهما اختلفت فى طبيعتها أو سرعتها وبجالها — تسير وفقا لقاعدة أساسية واحدة هى أنها دائماً وأبداً تقع على مرحلتين . المرحلة الأولى مرحلة التغير نفسه أو الابتداع والتجديد innovation . ويظهر هذا الابتداع فى الـكلام الفعلى speech ، وهو لذلك عمل فردى كالـكلام نفسه ولـكن هذا لا يعنى أنه مقصور على فرد واحد ، فقد يتصادف أن يتفق أفراد لا حصر لهم على الابتداع فى وقت واحد ، بل قد يحس عدد آخر من الجماعة اللغوية المعينة بأن هذا الابتداع كان حاضراً بأذهانهم ، وكان فى استطاعتهم أن يبدءوا به وربما

---

(١٢٢) التمثيل من عندنا وليس ترجمة لأمثلة المؤلف (المترجم) .

فعلوا . هذا القبول الاختيارى وهذا الاتفاق الايحائى عاملان أساسيان فى المرحله الثانيه وهى مرحلة انتشار التغير dissemination . فإذا ما سمع الشىء المبتدع فى عبارة ، أو فى عبارات — كما هو الأغلب الأعم — علق بالذهن ، وترتب على ذلك استعمال الآخرين له ، ونفذ بالتدريج إلى نظام اللغه [١٢٣] . وفى حالة الكلمات ومعانيها الجديدة يأتى الاعتراف متأخراً بعض الوقت ، ويكون ذلك بطريق تسجيلها بالمعجم .

وهكذا نرى أن المرحلة الأولى فرديه individual والثانيه اجتماعيه ocial معتمدة فى أساسها على قوة التقليد . هذا التقليد ربما يكون مقصوراً على المتكلمين البالغين ، ولكن يجب ألا ننسى الدور الذى تقوم به الأجيال القادمه فى عمليه التجديد اللغوى . فهذه الأجيال حين اكتسابها للغاتها القوميه تتعرض لاحتمالات سوء الفهم وتغيير القواعد والنظم الثابته أو الانحراف عنها . وإن اللغه تنتقل من جيل إلى آخر على فترات تتخللها تغيرات وانحرافات دائمه ، وهذه الحقيقه ذاتها تؤدى إلى المرونه فى الاستعمال اللغوى وإلى عدم ثبات الظواهر اللغويه أكثر من أى عامل آخر .

ولقد وردت إلينا نظريات مختلفه توضح أسباب تغير المعنى : ففى أوائل هذا القرن رأى اللغوى الفرنسى انطوان ميه Antoine Meillet أن هناك ثلاث مجموعات رئيسيه من الأسباب التى تكمن خلفها تغيرات المعنى فى العادة ، وهى أسباب لغويه وتاريخيه واجتماعيه .

١ — الأسباب اللغويه :

ما الذى حدث حتى استطاعت الصفه الإنجليزيه constitutional أن تستعمل اسماً للدلالة على « المشى لأغراض صحيه » ؟ إن السبب لغوى محض ، فالكلمتان :

---

(١٢٣) هاتان المرحلتان مرتبطتان بفكرة التفريق بين الكلام واللغه ، انظر ص ٢٨ وما بعدها (المترجم) .

+ constitutional ، وقد ظهرتا معاً جنباً إلى جنب على فترات متعددة ، مكونة عبارة تقليدية ، وفى نهاية الشوط ، اشتد الترابط بينهما اشتداداً وثيقاً حتى تمكن العنصر الأول وحده من أن يؤدى معنى العبارة كلها [١٢٤] .

٢ - الأسباب التاريخية :

إن كلمة ship « سفينة » مثلا قد تغيرت صيغتها تغيرا لا يكاد يذكر منذ العهد الأنجلو سكسونى ، ومع ذلك فإن السفن الحالية تختلف عن السفينة التى كان يبحر عليها قراصنة الشمال من عدة وجوه ، أى من حيث الحجم والتركيب والشكل والخواص الفنية الخ . ومعنى هذا أن المدلول قد لحقه التغير ولكن اللفظ الدال عليه قد بقى على حاله ، ومعناه كذلك أن التماثل الأساسى فى الوظيفتين القديمة والجديدة للمدلول كان سبباً فى إعاقة اللغة عن ملاحقة التقدم الحضارى . وهذه الظاهرة نفسها تطبق على المنظمات والمؤسسات ونحوها . فالبرلمان الإنجليزى اليوم يختلف إلى حد ما فى لوائحه وقوانينه عن برلمانات القرن السابع عشر ، ومع ذلك فقد وجد أنه من الأصلح الاحتفاظ باللفظ الدال عليه . ولو فرض حدوث تعديل دستورى آخر — وكثيراً ما يناقش هذا التعديل فى الوقت الحاضر — يرمى إلى

---

(١٢٤) اللغة العربية غنية جدا بهذا النوع من الأمثلة . حيث نجد الكلمة أو العبارة تؤدى معنى عرفناه فى الأصل بطريق عبارة بأسرها أو مجموعة من العبارات نتيجة الترابط القوى بين الكلمات أو العبارات واستعمالها بهذه الصورة استعمالا متكرراً نحو « الرئيس » التى تعرف اليوم أنها تعنى « الرئيس أنور السادات » و « الإمام الأعظم » . فهذه العبارة إذا ذكرت فى كتب الفقة ونحوها فهم منها أن المراد أبو حنيفة النعمان ، ومثلها « محرر المرأة » التى ارتبطت ارتباطا قويا باسم قاسم أمين ومن ثم أصبحت هذه العبارة فى مجتمعنا تعنى هذا الرجل ، أى أن هذه العبارة التى هى صفة فى الأصل صارت اسما لهذا الرجل ، ومثلها كذلك « شاعر النيل » المراد بها حافظ ابراهيم (المترجم) .

تغيير الطريقة التي يتكون بها مجلس اللوردات مثلا ، فإن هـــذا التعديل سوف لا يتضمن التخلص من الإســـم ذى الشهرة التاريخية ، وتغييره إلى « جمعية » أو « كونجرس » مثلا . نعم ، إن المدلول حينئذ سوف يلحقه تغيير جوهرى . ولكنه مع ذلك سوف يظل مرتبطا بالمدلول القديم ومتصلا به .

٣ ـ الأسباب الاجتماعية :

لقد رأينا فيما تقدم (ص ١٥٠ — ١٥١) أن كثير من كلمات الاصطلاحات المهنية والفنية قد تجد طريقها إلى اللغة المشتركة وتنفذ إليها والعكس بالعكس . وبهذه الطريقة ذاتها تنتقل معانى الكلمات من مجموعة لغوية إلى أخرى . فقد يحدث أن تستعمل إحدى البيئات الفنية الخاصة كلمة عادية فى معنى جديد ذى صبغة فنية خالصة ، وربما يتبع ذلك دخول هذا المعنى الجديد إلى اللغة المشتركة بجانب المعنى القديم . وقد حدث هذا للكلمات : الصلاة ، الحج ، وإذاعة ، إخراج ، تمثيل (١٢٥) ، التى اكتسبت معانيها الاصطلاحية المعروفة بها الآن بطريق استعمالها فى هذه المعانى فى البيئات الفنية الخاصة . ويمكن القول عـــلى وجه العموم . إن الاتجاه فى مثل هذه الحالات يميل نحو التضييق فى معنى الكلمة حين تنتقل من الاستعمال العام إلى المجالات المتخصصة ، فالخط مثلا بالنسبة

---

(١٢٥) هذه الأمثلة من عندنا ، وهى أقرب من أمثلة المؤلف إلى القارىء العربى . والمعروف أن « الصلاة » فى اللغة المشتركة معناها الدعاء ، ولكنها فى إصطلاح الفقهاء تدل على العبادة المعروفة . والحج معناه فى اللغه العامه « القصد إلى معظم » ، ولكنها فى لغه علماء الشرع تعنى « القصد إلى بيت الله فى أشهر معلومه » أما إذاعه وإخراج وتمثيل فهى مجـــرد مصادر لأفعال معروفه فى اللغه المشتركه ، ولكنها فى الاصطلاح الفنى لها دلالات فنيه خاصه ندركها جميعاً . ومما هو جدير بالذكر أن المعانى الاصطلاحيه والفنيه لهذه الكلمات جميعاً قد انتقلت بدورها إلى اللغه المشتركه بجانب المعانى القد (المترجم) .

لرجل السكة الحديد يعني أشياء تقل في عددها عما تدل عليه في اللغة العامة . إن الخط في نظره هو الخط الذي يعرفه ويهمه أكثر من غيره .

هذه الأنواع الثلاثة مجتمعة تستطيع فيما بينها أن توضح حالات كثيرة من تغير المعنى ، ولكنها مع ذلك ليست جامعة بحال من الأحوال . فهناك عوامل نفسية صرفة كثيرة لم تفسر بعد ، فالبواعث الإبداعية أو الخلاقة التي تكمن خلف بعض المجازات التي تستعمل في الشعر أو في الكلام العادي مثلا ، لا يمكن إرجاعها إلى أي واحدة من العوامل السابقة ، كما لا يمكن تفسيرها بها . ولقد ظهرت منذ ربع قرن من الزمان نظرية جديدة ، تعمل على سد هذا النقص . وكان صاحبها — وهو الأستاذ هسبيربار — H. Sberber — متأثرا بفكرة التحليل النفسي إلى حد بعيد ، وقد حاول أن يطبق بعض آراء فرويد على معاني الكلمات . فهو ، إذ يهمل في بحوثه كل التغيرات اللغوية والتاريخية الصرفة ، يركز اهتمامه على المشكلات التي يبدو أن لها تفسيراً نفسياً صرفاً ، أو بعبارة أخرى ، إنه ركز اهتمامه بصفة خاصة على الاستعارات ، أما نظريته هذه فهي نظرية بسيطة ولكنها تدل على ذكاء وعبقرية ، وفيها يهتم صاحبها بانتشار التغير والابتداع أكثر من اهتمامه بالابتداع نفسه . ومن المعروف أن المعنى الجديد ، كي يظفر بالدخول إلى نظام اللغة ، لابد له من أن يتغلب على المقاومة الشديدة التي قد تبديها ملايين المتكلمين . وهذا بالطبع يحتاج إلى بذل قدر كبير من الطاقة . فما مصدر هذه الطاقة ؟ يرى سبيربار أنها تستمد من القوى الانفعالية أو العاطفية التي ترتبط بالكلمات ، أو بعبارة أدق ، إنه يرى أنها تستمد من القوى الانفعالية والعاطفية التي ترتبط بالمجال الفكري الذي تنتمي إليه هذه الكلمات .

فإذا كان هناك موضوع من الموضوعات يسيطر على عقولنا ويستحوذ على أفكارنا . فإنه لا مناص من أن يوجد لدينا ميل طبيعي إلى الإفصاح عنه ، وذلك بتناوله بالحديث ، فإذا لم نتمكن من ذلك ، كما هـــو الشأن أحياناً ، فلا أقل من أن نشير إليه بالإقتباس من مصطلحاته ، ولو كان الحديث في ذاته يتعلق بأشياء

أخرى . ويوضح هذا ما نراه فى أثناء الحرب مثلا من سيطرة الشئون الحربية على كل مجالات الحياة سيطرة تؤدى إلى استعمال العبارات والمصطلحات الحربية وتطبيقها بحرية تامة على مختلف الموضوعات والمسائل الأخرى . ومن هذا القبيل ما يقال مثلا فى هذه الظروف من أن « الناس يتقهقرون تقهقراً إستراتيجيا » أو أنهم « على وشك القيام بهجوم أمامى » أو أن وزارة القوى والوقود تصدر « بلاغات وقودية » بانتظام الخ . وهكذا نرى أن مصطلحات المجال ذى الأهمية الخاصة — وهو مجال ماثل فى الذهن طول الوقت — تستغل فى وصف حوادث المجالات الأقل شأناً فى حياتنا . وهذا يعنى أن المجال الحربى قد اتسع وانتشر .

وسوف نجد فى الوقت نفسه أن الأوصاف الكثيرة للعمليات الحربية تستحث مهارة المتحمين بأخبار الحرب ، وتطلب منهم الحصول على ثروة لفظية غنية ومنوعة كى يتمكنوا من إحداث التأثير الدرامى الدقيق الذى يرغبون فيه . وهذا بالطبع يقتضى انتقال الكلمات العادية إلى المجال الحربى على مستوى واسع ، كى تقابل حاجة هؤلاء الناس . ولعل هذا يفسر ما نراه مثلا من الاستعارات ، البديعة الأخاذة ، ذات الأصول المتشعبة تشعبا كبيراً — تلك الاستعارات التى تملأ التقريرات الخاصة بمختلف أساليب الغارات والمعارك الجوية مع ما يجرى فيها من حركات الطائرات ومراوغتها وغطسها وانقضاضها . هذه المجالات وأمثالها إذن هى مراكز الجاذبية attratiron ، كما أنها مراكز التوسع والانتشار exdansion ويعتقد سبيربار أن القوى العاطفية والانفعالية التى ترتبط بهذه المجالات هى العوامل الرئيسية فى تغيير المعنى .

هذا المبدأ الذى قرره سبيربار يمكن تطبيقه واستغلاله فى نواح عدة . فهو لا يرشدنا إلى كيفية تفسير الاستعارات المفردة الكثيرة فحسب ، ولكنه يكشف لنا أيضاً عن الدور الذى تلعبه فى حياتنا تلك القطاعات الفكرية الواسعة التى تنتقل هذه الاستعارات منها وإليها . إنه حين يعين مراكز الانتشار والجاذبية ، أى حين يحدد القطاعات الفكرية البارزة فى حياتنا فى زمن معين — ويعمل على تقوية

الصلة بين اللغة والتاريخ ، ويفتح البحث ميادين خصبة لم تكشف بعد اكتشافا تاماً وهناك مثالا واحداً على ذلك : سوف يخبرنا تاريخ اللغة أن بعض الكلمات الحالية ترجع فى الأصل إلى اصطلاحات صيد الطيور ، أو الصيد بالصقور بصفة أخص . فالكلمة lure « إغراء » مثلا كانت فى الأصل تعنى « الطعم » يقدم للصقور عند تمرينها على الصيد ، كما كانت الكلمة haggard « بشع المنظر أو زائغ البصر من شدة التعب » تستعمل فى الأصل وصفاً للصقور غير الأليفة . هذه الحقائق المهمة سوف لاتتعدى دائرة القصص الصرفة أو التحف الأثرية فى قيمتها إذا لم تنظر إليها من زاوية مصادرها الأولى وظروفها الواسعة التى نشأت فيها . فإذا طبقنا مبدأ سبيربار . أى إذا تعرفنا على الدور الذى لعبه صيد الصقور فى حياتنا بوصفه مركزاً للجاذبية والانتشار ، فإننا سوف ننفذ إلى حقيقة هذا القطاع الخاص من قطاعات التطور الثقافى ، فندركه إدراكا تاماً . وهناك ميدان آخر يمكن أن يفيد من تطبيق هذا المبدأ : ذلك هو ميدان البحث فى الأخيلة الشعرية فدراسة الاستعارات « التى تسيطر على الأذهان » ، أو بعبارة أخرى دراسة القطاعات الفكرية التى تنقل الكلمات والاصطلاحات منها وإليها ، دراسة دقيقة فاحصة قد تكون ذات أهمية بالغة من الناحية النفسية . وسوف نعرض بمزيد من القول لهذه الميادين المرتقبة الجديدة فى نهاية الفصل التالى .

ويقرر ناقدو سبيربار — وهم على حق فيما يقررون — أن هذه النظرية تعانى ما تعانيه تعاليم فرويد التى ارتبطت بها ، من ضيق الأفق وتحديد المجال . فكل من هذين العالمين يميل إلى تبسيط الأمور تبسيطاً مبالغاً فيه ، وإلى إرجاع الحقائق المعقدة المتشابكة إلى عامل واحد مقبول فى ظاهره . ففرويد يرجعها : إلى القوى الجنسية أما سبيربار فيردها إلى القوى الانفعاليه والعاطفية .

والواقع أن هناك إستعارات فائقة الحصر لا يمكن تفسيرها إلا على أساس أنها أساليب فنيه صرفة ، أو أنها مجرد نوع من التلاعب بالكلمات فى الأصل . فقد يوحى التشابه بين الأشياء باستعمال مصطلحات جديدة معبرة ، تتضمن فكرة

التشابه والمماثلة . ومع ذلك فهذه النظرية ، التى إذا طبقت وجب أن يكون ذلك بشىء من الحذر والحيطة تشمل على نقطة ذات أهمية باقية على مر الأيام . ذلك أنها قد أوجبت عدم النظر فى الكلمات منعزلة أو منفردة ، إذ من المحتم فى أغلب الأحايين أن نركز اهتمامنا على كل القطاع اللفظى الذى تنتمى إليه هذه الكلمات إذا كان لنا أن نفهم تاريخ مفرداته فهما صحيحاً ، وسوف ندرك أهميه هذا المبدء عند مناقشه العلاقه بين الكلمات والأشياء [١٢٦] .

(١٢٦) انظر الباب الرابع من هذا الكتاب (المترجم) .

الفصل الثالث

كيفيه تغير المعنى

حاول رجال القواعد وعلماء البلاغة جاهدين منذ أرسطو أن يخضعوا تغيرات المعنى لشيء من التنظيم والتقعيد . غير أنهم حصروا جهودهم لقرون طويلة فى تصنيف « المجازات » أو ما يعرف بأنماط إنتقال المعانى من مجال إلى آخر لأسباب جمالية أو أسلوبية . فلم تكن هناك حتى نهاية القرن الماضى أية محاولة لتنظيم البحث فى عمليات انتقال المعانى خالية من مضموناتها الأدبية . ولقد ظهرت منذ ذلك الوقت نظم كثيرة متداخلة متشابكة . فبعض العلماء ــ أمثال الأستاذ ج . ستيرن G. Stern ــ يفضلون ترك الحقائق تتكلم عن نفسها . اختبر ستيرن عدداً ضخماً من تغيرات المعنى فى اللغة الإنجليزية ، ثم قام بتصنيفها إلى أنواع مختلفة بقدر ما سمحت به المادة التى ظفر بها ، وتوصل بذلك إلى سبعة نماذج رئيسية لتغير المعنى بالإضافة إلى أنواع أخرى فرعية . ولكن معظم الثقات من الدارسين كان همهم البحث عن مبادىء عامة يبنون عليها نظام التقسيم : مبادىء لا تساعد على وضع التغيرات فى نظم متسقة فحسب ، بل تعين كذلك على الفهم الجيد السليم . ومن أوفق الخطط المختلفة التى وضعت فى هذا الشأن الخطتان المنطقية والنفسية للتقسيم .

التقسيم المنطقى

بعد أن نفض بريال وغيره من متأخرى علماء القرن التاسع عشر أيديهم من علوم البلاغة وقطعوا كل صلاتهم بها ، وبعد أن أكدوا وجود علم المعنى بوصفه فرعا مستقلاً من فروع الدراسات اللغوية ، اتجهوا نحو تحليل أنواع التغير فى المعنى

تحليلا منطقياً ، ولقد وجد هؤلاء العلماء أن فى دائرة المعانى القـــديمة والجديدة نفسها ما يمدهم بخطة يسيرة قريبة المنال إلى أقصى حد ، حيث لم يتطلب الأمر منهم إلا النظر فى ثلاث إمكانيات فحسب . ولقد تبين لهم أن المعنى القديم إما أن يكون أوسع من المعنى الجديد أو أضيق منه أو مساويا له ، ولم تكن هناك إمـــكانية رابعة يدخلونها فى حسبانهم : ومن هنا جاء التقسيم الثلاثى الذى بنيت عليه الخطة المنطقية .

١ ـ توسيع المعنى :

وتنحدر الكلمة الإنجليزية **arrive** (ويقابلها فى الفرنسية arriver) عن اللاتينية adripare بمعنى « يصل إلى الشاطىء » ، وهذه الأخيرة ترجع بدورها إلى ripa أى « شاطىء » . فهذه الكلمة كانت فى الأصل مصطلحاً بحرياً . لا يجوز استعماله إلا فى معنى الوصول إلى الميناء ، أما الآن فقد اتسع نطاق استعمالها . حتى أصبحت تشمل عدداً ضخماً من أنواع الوصول » ، سواء أكان ذلك على القدم أم بأية وسيلة أخرى من وسائل الانتقال . وهكذا نرى أن معنى الكلمة لحقه تعميم كبير ، وأصبح ممكن التطبيق على مدى أوسع وأشمل .

٢ ـ تضييق المعنى :

من المعروف أن الكلمة الإنجليزية posion ومعناها « السم » (ويقابلها doison فى الفرنسية) هى نفس الكلمة potion « الجرعة من أى سائل » . ولكن الذى حدث هو أن الجرعات السامة دون غيرها هى التى استرعت الانتباه واستأثرت به ، لسبب أو لآخر . وبهذا تحدد المدلول ، وأصبح مقصوراً على أشياء تقل فى عددها عما كانت عليه الكلمة فى الأصل إلى حد ملحوظ .

٣ - انتقال المعنى:

ترجع الكلمة الإنجليزية stile «أسلوب» إلى كلمة لاتينية معناها (آلة مستدقة الرأس تستعمل للكتابة). وتظهر صورتها المصغرة في الكلمة الإيطالية stiletto. ثم حدث أن خلعت الآلة اسمها على نوع من الوظائف التي تقوم بها. ومن الواضح أن المدلولين ليسا من باب واحد، ومن ثم لا يمكن الموازنة بينهما من حيث مدى انتشار كل منهما.

إن أهم مميزات هذه الخطة المنطقية يظهر في كمالها، فليست هناك إمكانية رابعة للتقسيم الذي اشتملت عليه. ومن مميزاتها أيضاً بساطتها وسهولة تطبيقها، فهي تمكننا من تحديد نوع التغير الذي يصيب المعنى بسرعة فائقة. ولكن هذه المزايا تقابلها تضحيات فادحة الثمن. فهذه الخطة لا تعدو أن تكون مجرد نوع من النظام الشكلي الذي لا يستطيع أن يمدنا بأية معلومات عما يكمن خلف عمليات التغير التي تقوم بدراستها. إننا نقرر أن الكلمة posion قد ضاق مجال تطبيقها ولم نقل في الواقع شيئاً يستحق الذكر. أما العوامل النفسية المسئولة عن انحطاط معنى هذه الكلمة، والظروف المباشرة لهذا التغير والأسباب النهائية التي دعت إليه، فقد بقيت كلها تنتظر التوضيح والتفسير، وتميل خطط التقسيم في الوقت الحاضر إلى التركيز بقوة على هذه العوامل النفسية.

التقسيم النفسي

إن أول خطوة نحو تحديد القوى النفسية التي تكمن خلف تغير المعنى هي التمييز بين التغير الحقيقي وغيره. ولقد رأينا في التخيص الذي قدمناه في الفصل السابق لتطور مدلول الكلمة ship (سفينة) أنه لم يحدث أي تحديد لغوي، بل على العكس، لاحظنا أن اللغة كانت أكثر محافظة على القديم من التطورات الفنية التي لحقت المدلول فبقي اللفظ على حاله ولم يتغير حتى بعد تغير المدلول

نفسه [١٢٧] . وهذا التغير ونحوه يرجع إلى التصورات التي فوق المتيرووليس بحاجة إلى توضيح نفسي من أي نوع .

أما إذا ركزنا الانتباه على التجديدات الحقيقية ، فسوف تبرز لنا في الحال ظاهرة عامة واحدة تسود النماذج المتباينة التي لا حصر لها من الأمثلة . سوف نجد أن هناك دائماً نوعاً من الارتباط — وإن كان ارتباطاً بعيداً — بين المعنى القديم والجديد . هذه الارتباطات ، أو بعبارة أخرى ، هذه العلاقات التي تحكم عملية التغير هي الأساس الذي ينبني عليه التقسيم النفسي . أما وقد ارتضينا أن نفسر المعنى بأنه علاقة بين اللفظ والمدلول ، فمن الجائز أن تنشأ علاقات بين الألفاظ فقط أو بين المدلولات فقط أو بين الألفاظ والمدلولات معاً في آن واحد وبهذا نحصل على الخطوات الأولى للتقسيم ، وهذه الخطوات هي العلاقات بين المدلولات من جهة والعلاقات بين الألفاظ من جهة أخرى ثم — في النهاية — مجموعة العلاقات الأكثر تنوعاً وتعقيداً وهذه الصورة تشمل الحالتين السابقتين وتقوم بدورهما في وقت واحد .

على أنه قد نذهب إلى أبعد من ذلك فنسأل السؤال التالي : ما طبيعة هذه العلاقات وما حقيقتها ؟ سوف يخبرنا علماء النفس بأن هناك نوذجين ، رئيسيين من العلاقات . النموذج الأول أساسه وجود نوع من المشابهة بين الجهتين ، أي المدلولين أو بين اللفظين . ويتحقق النموذج الثاني حين ترتبط الجهتان بعضهما ببعض ارتباطاً من نوع ما . وهكذا تتحقق الروابط بين الألفاظ وبين المدلولات بإحدى هاتين الطريقتين . هذه الروابط — ومن خصائصها التأرجح والخضوع للعوامل الذاتية والتباين الشديد قد تؤدي إلى إحداث التجديد في الكلام الردىء ، وربما استطاع هذا التجديد أن ينفذ بالتدريج إلى نظام اللغة ، إذا أتيحت له الفرصة المناسبة .

---

(١٢٧) انظر صفحة ٥٥ (المترجم) .

فمن الواضح إذن أن لدينا الآن خطة عامة ذات أربع نماذج رئيسية نوردها فيما يلي :

١ - المشابهة بين المدلول :

إننا حين نتحدث عن عين الإبرة نكون قد استعملنا اللفظ الدال على عين الإنسان استعمالا مجازياً . أما الذى سوغ لنا ذلك فهو شدة التشابه بين هذا العضو والثقب الذى ينفذ الخيط من خلاله . والحق أن التشابه قوى إلى درجة أن كل وجوه الخلاف بين الجانبين تسقط من الحسبان عند المقارنة ، ويصبح انتباهنا محصوراً فى الخصائص المشتركة بينهما . هـــذا هو الأساس النفسى للاستعارة metaphor (وهذا مصطلح من أصل إغريقى تقابله الكلمة transfer بمعنى النقل والتحويل) . والفرق بين الاستعارة والتشبيه هو أن الاستعارة تعبر عن المقصود بالتضمين لا بالتصريح ، فبدلا من أن نقول : « إن ثقب الإبرة يشبه عين الإنسان » قد يروقنا أحياناً أن نأتى بتعبير أخصر وأوجز ، وهذا نوع من الاختزال اللغوى وتشمل كل استعارة على شيئين من مجالين مختلفين أو — على حد تعبير الدكتور ريتشاردز — تحتوى كل استعارة على غاية ووسيلة . فعين الإبرة — أى الشىء المتحدث عنه فى مثالنا السابق — هى الغاية ، أما عين الإنسان — أى الشىء المشبه به — فهى الوسيلة [١٢٨] .

---

(١٢٨) من المعروف أن أركان الاستعارة فى اللغة العربية ثلاثة ، هى : المستعار وهو اللفظ ، والمستعار منه وهو المشبه به والمستعار له وهو المشبه . وهكذا الحال بالطبع فى اللغة الإنجليزية . فاقتصار المؤلف على ذكر ركنين فقط — وهما ما أشار إليهما « بشيئين من مجالين مختلفين » أو ما سماهما الدكتور ريتشاردز بالغاية والوسيلة — هذا الإقتصار لا يعنى عدم وجود الركن الثالث ، إذ أن الاهتمام هنا موجه أولا وقبل كل شىء إلى عملية « النقل » نفسها ، تلك العملية التى تتضمن وجود جانبين أحدهما منقول منه وهو المشبه به والآخر منقول =

وهذا المثال نفسه يمكن أن يمثل به أيضاً لتلك المادة المألوفة لنا اليوم من إطلاق أسماء أعضاء الانسان على الجمادات . والحق أن جسم الانسان يعد قطاعاً من القطاعات البارزة التي تنتقل الكلمات منها وإليها ، أو قل إنه مركز من مراكز الانتشار والجاذبية . فحين نطلق الكلمة crown « تاج على الجزء الأعلى من جمجمة الإنسان ، نكون قد نقلنا اسم شيء من الجمادات إلى مجال الكائنات الحية . على أن بعض البحوث الهولندية الحديثة قد أثبتت في حالتنا هذه أن أمثلة الانتشار أكثر وروداً من أمثلة الجاذبية (١٢٩) .

ومن النماذج الشائعة للاستعارة استخدام الكلمات ذات المعاني المادية للدلالة على المعاني المجردة ، كما نحو « جسم المشكلة » و « عقد المناقشة » و « ركز الفكرة » الخ . وهناك نوع آخر من الاستعارات يعتمد على التشابه في الشعور نحو جانبي الاستعارة ، وفي نوع الإحساس بهما أكثر من اعتماده على التشابه في الخصائص الجوهرية ، وذلك كما في قولنا « تحية عاطرة » و « استقبال بارد » . ومن هذا القبيل أيضاً ما درجنا عليه من نقل كلمات أحد مجالات الحواس إلى مجال آخر ، نحو « لون دافيء » و « صوت حلو » فهنا يوجد الإحساس بأن هناك

= إليه ، وهو المشبه . أما المنقول : وهو اللفظ أو المستعار فهو مفهوم ضمنا من الكلام . بل قد يفهم صراحة من العبارة الأولى في كلامه عن هذه النقطة (المترجم).

(١٢٩) في كلام المؤلف تركيز شديد . إنه يريد أن يقول إن جسم الانسان مركز للإنتشار والجاذبية . أي أنه مجال تنتقل الكلمات منه وإليه . وهو يرى أن هذا النقل — بصورتيه — تتساوى أمثلته من حيث الكثرة والقلة ، ومثل لحالة النقل منه بإطلاق « العين على ثقب الابرة » ولحالة النقل إليه بإطلاق التاج على الجزء الأعلى من الجمجمة . ثم عاد المؤلف فقرر أن بحوثا لغوية أخرى قد أثبتت أن أمثلة النقل من مجال جسم الإنسان أكثر وقوعاً من أمثلة النقل إليه . ومعناه — بعبارة أخرى — أن أمثلة الانتشار أكثر من أمثلة الجاذبية فيما يختص بهذه الحالة بالذات وهي مجال جسم الإنسان (المترجم) .

تشابها بين الدفء وبين لون معين من الألوان ، وتشابها بين المذاق الحلو وبين الصفات الجميلة للصوت ، وفى الحالات القصوى من هذا الباب ، قد يكون الارتباط بين المستعار منه والمستعار له أقرب وآلف من الارتباط الموجـــود فى الأمثلة السابقة . وذلك كما فى تلك الحـــالة النفـــة المعروفة « بالسمع الملون » ، حيث تستدعى الأصوات أوتوماتيكيا نوعا من الإحساس بالألوان . ومن ذلك ما روى أن أحد الموسيقيين المشهورين قد أذهل الفرقة التى كان يقودها بمطالبته إياها أن تجعل النغمة . أكثر زرقة .

وهناك أمثلة ثانوية من المجاز قريبة الشبه بالاستعارة . من ذلك مثلا المبالغة exaggeration (وتسمى hyperbole أيضاً) التى تعـــد مسئولة عن تلك الشعارات المذهبية والاصطلاحات الخادعة التى تستغلها أجهزة الدعاية أسوأ استغلال حتى إنها لا تلبث أن تؤدى إلى عكس المقصود منها ، وذلك كما فى نحو « سعيد بشكل مخيف » و « رائع بكل بساطة » الخ [١٣٠] .

على أن مثل هذه التعبيرات الصارخة سرعان ما تفقد جدتها وقوة التعبير فيها حيث تصبح مبتذلة بالية ، ثم تخلفها وتحل محلها تعبيرات أخرى ، لا تلبث هى أيضا أن تؤول إلى مصير نفسه ، وهو فقدان فاعليتها وقوة تأثيرها ، أما التأثير الأكثر حكمة والأقوى فاعلية فيمكن أن نظفر به من أساليب التهكم الذى يزعم صاحبه .

---

(١٣٠) هذه ترجمة لأمثلة المؤلف . ولم نشأ أن نأتى بأمثلة عربية خالصة . لاختلاف وجهة النظر العربية عما قرره المؤلف هنا إلى حـــد ما ، إنه يرى أن المبالغة ضرب من ضروب المجاز ، على عكس المفهوم من كلام العرب ، إذ دائرتها عندهم أوسع من دائرة المجاز ، فالاستعارة والكناية مثلا معدودتان من المبالغة ، أنظر علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغى ص ٣٣٢ (سنة ١٩٧١) ولعل المؤلف مع ذلك ، يقصد أن بعض الأمثلة البالغة لا كلها من باب المجاز أو لعله يستعمل المجاز هنا بمعناه العام وهو مجرد نقل الكلمة من مجاز إلى آخر (المترجم) .

أنه يقول ضد المقصود بالفعل . ومن هذه الأساليب أسلوب « نفى النفى » [(١٣١)]
(أو الإثبات المعبر عنه بطريق غير مباشر بوساطة نفى ضده litotes) نحو
« not unlike » « وليس غير شبيه » و no mean scholar . وفى اللهجات
الدارجة بوجه خاص ، يكثر استعمال الكلمات المستهجنة كاصطلاحات داله على
الإعزاز وشدة الحب ، فكثيرا ما تسمى الأمهات أطفالهن « بالأرذال الصغار » .
ومن هذا القبيل ذلك الحوار الذى اقتبسه لنا الأستاذ ستيرن من مجلة
بانش . Punch :

الشاب الأول : (أهلا بك أيها الأحمق بالوراثة !) .

الشاب الثانى : (أهلا بك أيها الجحش الذى لا يساوى شيئا !) .

الشابة : (ما كنت أدرك أن كليكما يعرف صاحبه معرفة جد قوية !) .

---

(١٣١) المصطلح الذى استعمله المؤلف double negative أى « النفى المزدوج » . ولكنا آثرنا عليه المصطلح (نفى النفى) لأنه لصق بما يقصده المؤلف ، وأقرب إلى فهم القارىء العربى . على أنه يجب أن نعلم أنا نقصد بنفى النفى هنا تلك الصورة التى تستعمل فيها أداتا نفى ، إحداهما تنفى الفكرة الأساسية فى العبارة أو الجملة ، أى نفى نسبة شىء إلى آخر ، والثانية تنفى هذا النفى الذى قامت به الأداة الأولى . ومعناه فى النهاية إثبات الفكرة الأساسية أو ما يقاربها بطريق غير مباشر ، وهذا التفسير يتمشى مع القول المأثور (نفى النفى إثبات) . ومن الجدير بالذكر على كل حال . أن بعض أمثلة المؤلف لا تتمشى مع مفهوم المصطلح الذى استعمله ، من ذلك no mean scholar « ليس باحثا تافها » . فهذا المثال ليس فيه نفى مزدوج (بالمعنى الذى تفهمه من النفى اللغوى الذى يتضمن حتما استعمال أدوات النفى بالفعل ، لا استعمال الضد) . وليس فيه أيضاً « نفى النفى » بالمعنى الذى شرحناه ، إن هذا المثال فى الواقع إنما يعنى إثبات الشىء بنفى ضده . فالمعنى المراد هو أنه good scholar . (باحث عظيم) . وهذا ما نص عليه بالفعل قاموس اكسفورد عند شرح هذا المجال نفسه . فاستعمل المتكلم الضد وهو mean =

وكل هذه المجازات تعتمد فى أساسها على نوع من المشابهة بين المدلولات المختلفة وهذا يطبق أيضاً على الصيغ المنوعة التى تستخدم فى أساليب حسن التعبير ، تلك الأساليب التى تثير قضايا نفسية أكثر تعقيداً مما تتضمنه وسائل التعبير السابقة .

٢ ـ العلاقة بين المداولين :

الكلمة bureau ، مكتب ، قد يكون معناها اليوم المكتب الذى يجلس إليه الإنسان ويكتب عليه ، أو المصلحة الحكومية أو المكان الذى تدار منه الأعمال ومن الواضح أنه ليست هناك أية مشابهة بين المدلولين ، ولكن بينهما ارتباطاً من نوع آخر ، فالمكتب الذى نكتب عليه يوضع عادة فى الأماكن التى تدار منها

= ، تافه حقير ، ثم نفى هذا الضد باستعمال أداة النفى (no) ، وأغلب الظن أن المؤلف قد شعر بهذا التصور فى مصطلحه فذكر المصطلح الآخر وهو litotes . وهذا هو الأنسب للنقطة التى يريد بيانها ، إذ معناه — كما ذكرنا فى المتن — والإثبات المعبر عنه بطريق غير مباشر ، بوساطة نفى ضده ، ، وهذا المفهوم — كما هو واضح — أعم وأوسع من مفهوم المصطلح الآخر ، ويشمل فى الوقت نفسه كل أمثلة المؤلف ، إذ الإثبات غير المباشر قد يكون بنفى النفى ، وقد يكون بنفى الضد كما فى المثال المذكور وهو (no mean scholar) : وكما فى نحو المثال العربى (ليس غبياً) والمراد أنه ذكى . بقى ، أن نشير إلى أن نفى النفى (أو الإثبات المعبر عنه بطريق غير مباشر) لا يعنى التهتك بذاته . وإنما يعنيه بمعونة المقام وما يرتبط به من ظروف وملابسات ، وبمعونة الخصائص الصوتية التى تصاحب الكلام ، كالتنغيم وتوزيع النبر الخ ، وكون (نفى النفى) (أو الإثبات المعبر عنه بطريق غير مباشر) من باب المجاز هو رأى المؤلف ، وليس كذلك الحال عند العرب فيما نعلم . اللهم إلا فى صورة محدودة معدودة يمكن عدها من المجاز ، كما فى نحو قوله تعالى . (أليس الله بكاف عبده) و (ألست بربكم) الخ . فالاستفهام هنا المراد به النفى . وهو نفى مجازى ، وهذا النفى المفهوم من الاستفهام سلط على النفى الآخر المعبر عنه بالأداة الصريحة (ليس) فصار الكلام مثبتا (المترجم) .

الأعمال ، وعلى هذا فالفكرتان مرتبطتان بعضهما ببعض فى ذهن المتكلم ، أو قل إنهما تنتميان إلى مجال عقلى واحد . وهذا هو التفسير النفسى لذلك النوع من المجاز المعروف بالمجاز المرسل motonymy . ويظهر هذا المجاز فى صور متعددة ، فقد يطلق الظرف على المظروف أو المحل على الحال ، كما فى نحو (شرب كوبا من الماء) و (بيت الرجل) والمقصود أهله . وقد يطلق اسم الأداة والآلة على وظيفتها ، أو اسم العمل على آثاره ونتائجه . كإطلاق « اللسان » على « اللغة » ، وإطلاق الكتابة بمعنى العمل على الكتابة التى على الحائط مثلا وكذلك قد يسمى الشيء باسم مخترعه أو مؤلفه أو مكانه الأصلى ، مثل « سندوتش لذيذ » ، و « اشترى قطعة كشمير » . ولقد قابلتنا هذه الصورة الأخيرة عند مناقشة تحويل أسماء وصفات عادية (١٣٢) . وهناك صورة أخرى كثيرة الورود وهى استحضار الكل بذكر جزئه ذى الخاصة البارزة ، كما فى إطلاق العين على الجلوس (١٣٣) .

وقد تكون العلاقة بين المدلولين صعبة الادراك أحيانا ، ومن ثم يحتاج الأمر إلى معرفة خاصة تمكننا من تحديدها والتعرف عليها . كيف اكتسبت الكلمة collation ، أى الموازنة والمراجعة التفصيلية ، مثلا معنى « الأكلة الخفيفة » ؟ من البديهى أنه ليست هناك مشابهة بين المعنيين ، بل إلى احتمال وجود أية صلة

---

(١٣٢) المثالان « بيت » و « اشترى قطعة كشمير » من عندنا وليسا ترجمة لمثالى المؤلف . و « الكشمير » نوع من الصوف ، وسمى بهذا الاسم نسبة إلى مقاطعة « كشمير » المعروفة . انظر أيضاً ص ٦٨ (المترجم) .

(١٣٣) هذا المثال من عندنا . أما مثال المؤلف فهو: fleet of tewenty sails وترجمته الصحيحة هو « أسطول من عشرين سفينة » ومن المعروف أن sail معناها الشراع ، وهو جزء « له مزيد اختصاص بالمعنى المطلوب من الكل المسمى باسم الجزء » ، على حد تعبير علماء العربية ، فأطلق الجزء وهو الشراع ، وأريد به الكل وهو السفينة ship (المترجم) .

بينهما احتمال يبدو بعيدا أول الأمر ولكن التاريخ يمدنا بما يفسر هذه الحالة . لقد كانت العادة فى الأديرة « البنيدكتينية » Benedictine monasteries (١٣٤) أن يتناول الرهبان طعاما خفيفاً بعد فراغهم من قراءة سير الرواد الأوائل من رجال الدين ومراجعة هذه السير . فكان هذا الارتباط العرضى كافيا لأن ينحرف بالكلمة ويقودها إلى هذا التطور فى المعنى .

٣ - المشابهة بين اللفظين :

وقد تختلط الكلمتان إحداهما بالأخرى اختلاطا يؤدى إلى عقد صلة زائفة بينهما وربما يؤثر ذلك فى معنى إحدى الكلمتين ، وهذه الحالة ليست إلا صورة من صور المماثلة بين الكلمات بطريق الربط الزائف بينها ، أى الافتراض الخاطىء بأن هناك نوعا من العلاقة بين كلمتين ليست بينهما صلة أو قرابة فى الواقع . ويمكن توضيح هذه الحالة بالصفة الإنجليزية القديمة sand - blind أى « كليل البصر أو أعمى » ، فالصيغة الأصلية لهذه الكلمة هى sam-blind و sam هى الكلمة semi بمعنى « نصف » أو (شبه) ، ومن ثم كان التشابه الشكلى الصرف بين sam و sanb دافعاً إلى الربط بينهما ربطاً زائفاً (١٣٥) . ويشرح لنا الدكتور جونسون معنى هذه الصفة فى معجمه هكذا . (ضعف فى البصر يتميز بظهورات صغيرة تعلو

---

(١٣٤) نسبة إلى القديس Benedict (٤٨٠ — ٥٤٣) ، بطريرك رهبان الغرب ، والمشهور بتعاليمه ومبادئه الخاصة . انظر دائرة المعارف البريطانية ج ٣ (طبعة ١٩٥٣) (المترجم) :

(١٣٥) من المعروف أن sand معناها « رمل » و blind معناها « أعمى » . فالصفة sand-blind لا يمكن أن تفيد المعنى المذكور إلا بربط sand باللفظ sam الذى يعنى « نصف أو شبه » كما قرر المؤلف . ومعنى sam-blind هو « نصف أو شبه أعمى » « المترجم » .

وتهبط أمامه ، » ولقد أحيا شيكسبير هذا التفسير نفسه فى مسرحية « تاجر البندقية » كما يظهر من هذه العبارة : « not sand -blind, high-gravel blind » [١٣٦] .

ومما يشبه ذلك أيضاً تاريخ الصفة القديمة shamefast « حيى » ، حيث ارتبط الجزء الثانى منها فى أذهان الناس باللفظ face « وجه » ، وكان ذلك مدعاة لظهور الصفة shamefaced « حيى » .

٤ - العلاقة بين اللفظين :

وقد يؤدى وقوع الكلمتين معاً جنبا إلى جنب فى عبارة تقليدية كثيرة الورود إلى نوع من الاختصار والإيجاز ، بحيث تقوم إحدى الكلمتين مقام العبارة كلها وقد لاحظنا هذه الحالة من قبل عند دراسة أسباب تغير المعنى [١٣٧] وهذا الضرب من الاختصار إنما يقع أكثر ما يقع فى لغات المجموعات والاجتماعات المتخصصة ، حيث يساعد سياق الكلام على توضيح العلاقة بين أجزاء العبارة . مثال ذلك (الصاحبان) والمقصود أبو يوسف ومحمد ، و (الشيخان) والمراد أبو حنيفة وأبو يوسف . ولو عبرنا عن هذه الحالة تعبيراً مجازياً أمكن القول بأن الجزء المحذوف قد أصاب الجزء أو الأجزاء التى تجاوزه (بالعدوى) فى معناه . وهـــذا يفسر إطلاق المصطلح (العدوى) confagion أحياناً على هذه الأمثلة ونحوها .

---

(١٣٦) مفهوم هذه العبارة هو أن ضعف بصر المتحدث عنه ليس من ذلك النوع البسيط الذى أشار إليه الدكتور جونسون ، وإنما هو من نوع أشد وأقوى والمعروف أن لـ graveL معناها (الحصاة) ، فكأن الذرات التى تظهر أمام أعين المتحدث عنه ليست صغيرة صغر حبات الرمل ، وإنما هى فى حجم الحصوات وهذا يعنى المبالغة فى الوصف بالعمى أو ضعف البصر (المترجم) .

(١٣٧) انظر ص ١٥٤ — ١٥٥ (المترجم) .

وقد يذهب المثال الواحد إلى نموذجين أو أكثر من نماذج تغير المعنى في آن واحد. من ذلك اللفظ « سكلاريدس » الذي قد يفسر على أنه مجاز مرسل أساسه العلاقة بين المدلولين ، أي الشيء الذي يسمى بهذا الاسم ومكتشف هذا الشيء. ويجوز في الوقت نفسه أن نعده ضرباً من الاختصار الناشيء عن وجود علاقة بين لفظين يظهران معاً في عبارة تقليدية معروفة هي : « قطن سكلاريدس » [٢٠] . ولعله من الأسلم أن ننسب تغير المعنى هنا إلى عوامل الحالتين معاً .

إن نظام التصنيف الذي عرضناه فيما سبق أن يشتمل على منهج التحليل قابل التطبيق على أي تغير يصيب المعنى . وأول شيء يواجهنا عند تطبيق هذا المنهج هو السؤال التالي . أين يقع الارتباط ؟ أو بعبارة أخرى ، هل ارتبطت الجهتان (المنقول منها والمنقول إليها) بطريق اللفظين أو المدلولين ؟ ثم علينا بعد ذلك أن نتعرف على طبيعة العلاقة بين الجهتين . أهي علاقة المشابهة أم الملابسة ؟ وفي نهاية المطاف ، يجدر بنا أن ننظر إلى تلك الصور الفرعية التي أوردناها في ثنايا النماذج الرئيسية ، فقد تلقى ضوءاً جديداً على الموضوع كله . وبهذه الطريقة ، يصبح المبدأ الذي ينبني عليه تقسيم التغيرات مبدأ لتحليل هذه التغيرات وتفسيرها أيضاً .

يحدث — بالإضافة إلى هذه الظروف العامة لتغير المعنى — بعض العوامل الخاصة التي كثيراً ما تفصح عن نفسها في تاريخ اللغات المتباينة تبايناً كبيراً . وأهم هذه العوامل الإحساس وحسن التعبير وانحطاط المعنى .

(٢٠) « سكلاريدس » نوع من القطن كان يزرع في مصر منذ أكثر من ربع قرن ، و « سكلاريدس » في الأصل اسم رجل يوناني اكتشف بذرة هذا القطن ، ومنه سمي باسمه . وهذا المثال من عندنا كما هو واضح . وكذلك الحال في القطن ... ((الصاحباني)) و ((السيكلاريدس)) المعروفان جيداً في اصطلاح تجارة القطن (المترجم) .

اللامساس و حسن التعبير

اللامساس taboo مصطلح بولينيزى a polynesian term ، ويطلق على كل ما هو مقدس أو ملعون ، ويحرم لمسه أو الاقتراب منه لأسباب خفية ، سواء أكان ذلك إنسانا أم كلمة أم شيئاً آخر [١٣٩] . فإذا ما اصطدمت كلمة ما بحظر الاستعمال تحت تأثير عامل اللامساس حلت محلها كلمة أخرى خالية من فكرة الضرر والأذى . وهذه العادة ليست مقصورة بحال من الأحوال على المجتمعات البــدائية ، فهى معروفة فى كل البيئات ، وفى كل أنواع الحضارات بمستوياتها المختلفة . وتحريم استعمال الكلمات بتأثير فكرة اللامساس نتيجة طبيعية للخرافات اللغوية ، وأثر من آثار الاعتقاد فى سحر الكلمة . وهذا المسلك تجاه الكلمة (قد ناقشناه من قبل فى الباب الأول من هذا الكتاب [١٤٠]) وقد يمتد الحظر من مجرد التحريم البسيط إلى رســم قيود دقيقة محكمة لاستعمال اسم (الله) ولقد انتشرت هذه العادة فى ديانات مختلفة ، منها البرهمية واليهودية والإسلام [١٤١] .

---

(١٣٩) ترجمة المصطلح taboo باللامساس هو ما جرى عليه أكثر المترجمين العرب ومن الجائز أيضاً ترجمته (بالحظر) ploynesian .

« بولينيزى » نسبه إلى ploynesia وهى مجموعة من الجزر الصغيرة فى المحيط الباسيفيكى شرق استراليا (المترجم) .

(١٤٠) انظر ص ٤٣ وما بعدها (المترجم) .

(١٤١) المعروف أن اسم الله — وهو (يهوه) — فى اللغة العبرية يكتب فقط ولا ينطق تقديساً له وإنما الذى ينطق لفظ آخر هو (سيدى) ولعل مما يفسر هذا الاتجاه نفسه فى الإسلام إجماع النحاة على حذف الفاعل « وبناء الفعل للمجهول » تعظيما له « بصون اسمه عن لسانك أو عن قـــرنه بالمفعول ، كخلق الخنزير » انظر حاشية الخضرى على ابن عقيل ، الجزء الأول ص ١٥٧ ، المطبعة الميمنية سنة ١٣٠٥ بتصرف (المترجم) .

ولقد كان فى روما القديمة — حيث كان اللفظ nomen يعد فألا — تقليد قديم يتعلق باسم سرى للمدينة . فهـــذا الإسم لم يكن معروفا إلا لمجموعة صغيرة من الواقفين على بواطن الأمور ، وكان محظوراً عليهم إفشاؤه حظراً تاماً ، بحيث كان المخالف لذلك معرضاً لأحط صور الحكم بالإعدام وهو الصلب . أما هذا الإسم الذى كان محظوراً إفشاؤه والذى كان من الجائز أن يعد أعداء روما بسلاح قوى بتار فهو — كما تروى المصادر العلمية الحـــديثة — جناس لفظى مكون من الصيغتين · ROMA : AMOR ·

وهناك عادات مماثلة نلحظها فى المأثورات الشعبية لكثير من الاجناس والأمم ففى بلاد المجر فى العصور الوسطى ، كان الاطفال يسمون أحيانا (بأسماء وقائية) ، كأن يدعى الواحـــد منهم (بالموت الصغير) أو (ليس حيا) أو « القذارة » و « الوسخ » ، وذلك لصرف الأرواح الشريرة عن هذه المخلوقات التى لا تساوى شيئاً فى ادعاء أهلها . وهناك فى بعض المناطق الريفية فى الصعيد ، تنزع الصفحة من كتاب المزامير وتغمس فى العجين ، ثم تقدم إلى الأغنام فى صورة طعام ، أملا فى شفائها أو — قل — قصداً إلى طرد الأرواح الشريرة وإبعادها عنها . وعندنا نحن من العادات الخرافية والخزعبلات ما يعكس هذه الرهبة العميقه الجذور ، وهيبة تأثير الكلمة وسحرها العجيب .

ولقد تركت الخرافات اللغوية وعادات حظر استعمال الكلمات آثارملحوظة فى كثير من قطاعات الثروة اللفظية ، ويوضح هذه الحقيقة خير توضيح أسماء الدب فى كثير من اللغات ، فى اللغة الهندية الأوربية الأولى كان للدب اسم لا يزال أثره باقياً فى الكلمة اللاتينية ursus ، وفيما تفرع عنها من ألفاظ حديثة كاللفظ الفرنسى ours «دب» ، اللفظ الإغريقى المقابل لذلك هو أساس الصفة الانجليزية arctic « خاص بالقطب الشمالى » ، أما فى اللغات الهندية الأوربية الأخرى فقد استعيض عن ذلك بألفاظ أو عبارات ليست نصا فى دلالتها على الدب ، ومن البديهى أنه قصد بذلك استعطاف هذا الحيوان الخطير ، فالكلمة الإنجليزية bear « ومعناها الآن الدب » والصيغ التى تقابلها فى اللغات الجرمانية الأخـــرى ، كان معناها

فى الأصل (بنى) ومن اللغات السلافية والبلطيقية ولغة ويلز القديمة ، يسمى الدب (بآكل العسل) ، (خـــنزير العسل) و (اللاعق) ويبدو أن سكان الفيليبين الأصليين كانت لديهم هم الآخرين هــــذه الرهبة الخرافية من الدب كما يبدو أنهم سلكوا معه مسلكا مماثلا .

ولقد خضع عدد كبير من أسماء الحيوانات الأخرى لحظر الاستعمال تأثر بفكرة اللامساس ، مما لا شك فيه أن بعض هــــذه الأسماء قد حدث لها ذلك لأسباب «طوطمية» (١٤٢) ، فالثعبان والذئب والثعلب ، بل والخنزير والمعز ، قد حلت محلها ألفاظ خالية من فكرة الضرر والأذى فى بعض اللغات . ولكن ليس من بينها عـــلى ما يبدو آثار الخوف والرهبة أكثر من ابن عرس ، ذلك الحيوان المتعطش لإراقة الدماء وسفكها . وهذا الحكم إنما بنيناه على ما نلاحظه من ذلك العدد الضخم من الكلمات ، والعبارات البراقة التى تدل على هذا الحيوان، ولكن بطريقة ملتوية غير مباشرة . فالفرنسيون يسمونه (الجمال الصغير) والألمان يدعونه (الحيوان الصغير الجميل) ، وهو عند الإيطاليين والبرتغاليين (السيدة الصغيرة) ، وعند الإسبانيين ، (الفلانى) ، وعند الدنماركيين (الجميل) . وفى فترة من فترات اللغة الإنجليزية القديمة كانت الكلمة (اللطيف) مرادفا للاسم « ابن عرس » (١٤٣) .

---

(١٤٢) (الطوطمية) نسبة إلى Totem و (مر) كلمة تطلق على كل أصل حيوانى أو نباتى تتخذه عشيرة ما رمزا للماء ، ولقبا لجميع أفرادها ، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ، وتنزله وتنزل الأمور التى ترمز اليه منزلة التقديس، وقد يكون (الطوطم) ذئبا أو ثعبانا أو ثعلبا الخ. انظر « الطوطمية » للدكتور على عبد الواحد وافى (سلسلة أقرأ رقم ١٤٩) (المترجم)

(١٤٣) ابن عرس جمعه «بنات عرس» ، ومفرد هــــذا الجمع يعرف فى الأرياف عندنا « بالعرسة » وهى كلمة محظوره الاستعمال بتأثير عامل اللامساس ويشار إليها بالخفية ، فى بعض البلاد ، وباسم أحد فى بعضها الآخر (المترجم) .

وليست كل أمثلة الحظر مقصورة على عالم الحيوان . فبعض أجزاء جسم الإنسان — وبخاصة الرأس واليد — قد كتب عليها هذا المصير نفسه . فاليد اليسرى بوجه أخص تؤخذ دائماً على أنها نذير بمستقبل مشئوم ، ويشير إلى ذلك إن الكلمة sinister ومعناها « شؤم » كان لها فى الأصل معنى « الأيسر أو اليسرى » فى اللغة اللاتينية ، والكلمة الإنجليزية نفسها (left) كان مدلولها « الضعيف » و « الذى لا يساوى شيئاً » . ويبدو أن حظر الاستعمال بتأثير عامل اللامساس قد فرض أيضاً على اللفظ اللاتينى verbum أى « الكلمة » . فهذا اللفظ بمجرد اكتسابه صبغة دينية فى الفصل الافتتاحى من إنجيل القديس يوحنا — كما سبقت الإشارة إلى ذلك (١٤٤) — لم يعد من المستطاع استعماله فى معان دنيوية . ومن ثم استعيض عنه فى كل اللغات الرومانية تقريباً بالكلمة parabola ، كما يظهر فى اللفظ الفرنسى parole بمعنى « الكلام » .

واستبدال الكلمات اللطيفة الخالية من أى مغزى سيء أو مخيف بكلمات اللامساس يعد ضربا من ضروب حسن التعبير enphemsim . وحسن التعبير وسيلة مقنعة بارعة لتلطيف الكلام وتخفيف وقعه ، وتعمد اللغة إلى استعمال هذه الوسيلة مع كل شيء من مقدس أو ذى خطر أو مثير للرعب والخوف ، كما تطبقه على الأشياء الشائنة أو غير المقبولة لدى النفس . فمن المعروف أننا نلجأ دائماً إلى العبارات الرقيقة والتلميحات اللطيفة والتحويم حول المقصود عندما نضطر إلى إلقاء الأخبار السيئة ، وبخاصة أخبار المرض والموت . وكذلك نسلك هذا المسلك نفسه عندما ما نحاول أن نتظاهر بتخفيف لهجة النقد اللاذع وجعله مستساغا مقبولا ، كما فى عبارة المستر تشرشل المشهورة : « عدم الدقة الاصطلاحية » .

وحسن التعبير — كالمبالغة وغيرها من ضروب المجازات ذات الدافع والباعث النفسية (١٤٥) وقد تذهب أهميته ويئول إلى الانحطاط . فاذا ما كثر

---

(١٤٤) انظر ص ٤٤ (المترجم) .

(١٤٥) أنظر ص ١٦٧ — ١٦٩ (المترجم) .

استعماله تعرض لفقدان خاصة الرقة واللطف فيه ، بدلا من أن يدل على الفكرة المحظورة بطريق غير مباشر يصبح مرتبطاً بها ارتباطا مباشراً ، ومن ثم يصير غير ممكن الاستعمال كأسلوب من أساليب تلطيف الكلام . فلقد رأينا من قبل أن الكلمة undertaker كانت أول الأمر نوعا من التعبير المختصر اللطيف الذى لم يفصح عن أسوأ الجوانب فى معناه (١٤٦) . أما الآن فقد أصبح هذا اللفظ نفسه لجأة غير مستساغ ، ويميل الأمريكيون إلى الاستعاضة عنه بالكلمة mortician ، حانوتى ، التى تستمد رقتها المؤقتة ذات النغمة الحزينة نوعا من ارتباطها بالكلمة beautician (إخصائى التجميل) . والواقع أن الثروة الطائلة من المترادفات التى ولدتها جميع اللغات لتخفيف صدمة الموت ووقعه على النفس ، إنما ترجع إلى هذا القانون ، قانون (الاستهلاك بكثرة الاستعمال) والحاجة الدائمة إلى التجديد . وليس دور هذا القانون فى هذا المضمار بأقل من دور الموت نفسه ، ذلك المجال الذى يضطرنا إلى التنويع والتجديد فى اصطلاحاته بسبب ماله من تأثير عاطفى . والملاحظ أن بعض المصطلحات التى تعبر عن فكرة الموت بتعبير لطيف رقيق مثل (رحل) وبعضها الآخر عادى مألوف ، بل قد يكون ذا مسحة هزلية كما فى نحو kick the bucket (١٤٧) ، وهنــــاك فى اللهجة الخاصة بالجيش الكثير من هذه الأمثلة .

---

(١٤٦) undertaker معناها الأصلى (الذى يأخذ عــــلى عاتقه مسئولية القيام بعمل من الأعمال) ثم غلب عليها الاستعمال فى معنى « حانوتى » وهى فى هذه الحالة اختصار للتعبير (Funeral undertane) « بمعنى حانوتى » . وهذا الاختصار ضرب من حسن التعبير ، إذ قد تخلصنا فيه من اللفظ Funeral الذى هو نص فى المعنى غير المرغوب فيه وهو (الدفن) ، وبمرور الزمن أصبح اللفظ undertaker نفسه غير مقبول لارتباطه هو الآخر بهذا المعنى . أنظر أيضاً ص ١٢١ (المترجم) .

(١٤٧) هذه العبارة معناها « يموت » ولعلها كانت مرتبطة فى الأصل بحالة فردية دفعت بها إلى الاستعمال العام فيما بعد ، فمعناها الحرفى هو (يرفس الجردل) ومن الواضح أن هذا المعنى لا يتلاءم مع جلال الموت ... ومن هنا تظهر هزليتها وعدم جديتها فى استعمالها للدلالة على الموت (المترجم) .

وكثيراً ما يحرم استعمال الكلمات المستقبحة بتأثير عامل اللاامساس ، غير أن مقياس الحكم بالقبح يختلف من جيل إلى آخر ، طبقاً للتقاليد ومستويات أنماط السلوك . يروى لنا الأستاذ يسبرسن أن « السراويل » كانت تعرف فى الماضى بأنها أشـــياء لا يمكن التعبير عنها أو توضيحها ، أو وصفها ، ولا يحتمل النطق بها أو ذكرها أو الهمس بهـــا ، كما كانت سيدات بوسطون Boston يكتفين بالإشارة إلى قوائم البيانو وإلى أرجلهن ليتجنبن ذكـــر الكلمة « المعيبة » legs « سيقان » . وقد يكون التوافق المرضى فى الصوت بين كلمة عادية وأخـــرى مستقبحة كافياً لإزعاج الآذان الحساسة ، كما لاحظنا ذلك من قبل عند مناقشه الاصطدام بين مفردات المشترك اللفظى (١٤٨) . والحق أن شدة الحساسية نحو الكلمات قد تقوى إلى درجة تجعل مجـــرد التشابه الجزئى بين الكلمات العادية والكلمات المحظورة بتأثير عامل اللامساس سبباً فى تحريم استعمال هذه الكلمات العادية . فنى فرنسا فى القرن السابع عشر ، كانت السيدات المشهورات بتطرفهن فى المحافظة على التقاليد والعادات ، والمعروفات بالاسم « precieuse » يتبعن نظاماً محكما دقيقاً فى تحريم هذا النوع من الكلمات . ومنذ سنوات قليلة فقط ، أطلقت الكلمة quintet على مجموعة من ستة رجال فى فرقة موسيقية أمريكية ، خشية أن توحى الكلمة sextet بمعان غير مرغوب فيها (١٤٩) .

---

(١٤٨) أنظر ص ١٢٩ (المترجم) .

(١٤٩) الكلمة quentet تطلق فى الاستعمال العادى على المجموعة الموسيقية المكونة من خمسة أشخاص لا ستة ، أما الذى يطلق على المجموعة المكونه من ستة فهى الكلمة الأخرى sextet . ولكنها لم تستعمل فى حالتنا هذه خوفاً من أن توحى بمعان مستقبحة . أما مصدر هذا الإيحاء فهو الجزء الاول منها وهو sex ، إذ معناه « الجنس » فى غير هذا التركيب (المترجم) .

انحطاط المعنى

لقد أثار انتباه الدارسين القدامى كثرة ورود ظاهرة الانحطاط فى تاريخ معانى الكلمات . وفسر بعضهم هذا الاتجاه بأنه دليل على وجود « نزعه تشاؤمية » فى العقل الانسانى . والملاحظ أن كثيراً من حالات تخصيص المعنى تميل أكثر ما تميل إلى التركيز على الجوانب المرغوب عنها للمعانى « الحيادية » . فالكلمة الإنجليزيه poison التى ناقشناها فيما سبق لها ما يقابلها مقابله دقيقه فى اللغه الألمانيه هو مرادفها gift الذى تخصص فى الجرعات السامه دون غيرها (١٥٠) . ولكنه المجال الإنسانى بوجه خاص هو الذى تشيع فيه ظاهرة انحطاط المعنى . فالكلمه knave ومعناها « لئيم خسيس » كانت فى الأصل تعنى « الخادم » أو « الغلام » ولا تزال تستعمل بالفعل فى هذا المعنى فى اللغه الألمانيه وفى العبارة الانجليزيه the knave of hearts (١٥١) .

ومما لا شك فيه أن التحامل الطبقى فى المجتمع كان السبب المباشر فى التطور المعنوى لهذه الكلمه كما كان السبب أيضاً فى تطور معنى الكلمه المقابله لها ، وهى villain « سافل وغد » التى كانت فى الأصل تعنى « خادم المزرعه » والتى ترجع إلى الكلمه اللاتينيه villa « مسكن ريفى » (١٥٢) . وهذه الكلمه نفسها قد تطورت

---

(١٥٠) Gift معناها الأصـــلى « الجرعه من أى سائل » ، ومثلها فى ذلك الكلمه الإنجليزيه poison . ثم تخصصت الكلمتان فيما بعد فى الجرعات السامه دون غيرها . وهذا يؤيد وجهه نظر المؤلف وهى أن تخصيص المعنى يميل أكثر ما يميل إلى التركيز على الجوانب غير المحببه للمعنى (المترجم) .

(١٥١) من البديهى أن الكلمه التى تستعمل فى اللغه الألمانيه بمعنى الغلام هى (knabe) التى هى أصل الكلمه knave ، أما العبارة knave of hearts فهى بمثابه اسم يطلق على ورقه معينه من أوراق اللعب (الكوتشينه) وهى الورقه التى توجد بها صورة « الولد » وتزين زواياها الاربع صورة القلب (المترجم) .

(١٥٢) villain مصطلح من بقايا عهود الإقطاع فى أوربا ومعناه الدقيق =

فى اللغة الفرنسية وأصبحت تستعمل فى معنى قبيح ، وقد تفرعت عن اللفظ اللاتينى captivus بمعنى « أسير » ، عدة ألفاظ اتجه كل واحد منها اتجاهاً مختلفاً فى انحطاط المعنى ، وذلك كاللفظ الانجليزى caitiff « حقير » والفرنسى chetif « عليل » والإيطالى cattivo « سىء » .

ولقد كان للنساء نصيب فى هذا المضمار ، فالكلمة الإنجليزية hussy « وقحة » فاجرة ، ليست إلا صيغة أخرى للكلمة housewife « ربة البيت » . إذا نظرنا إليها من الناحية التاريخية ، والكلمة الفرنسية fille « بنت » قد انحط معناها انحطاطاً أوجب استعمال الصفة jeune « شابة » سابقة لها حتى ترد إليها اعتبارها .
ومن الطبيعى أن يكون تغير المعنى نحو الرقى هو الآخر عاماً وشائعاً ، إذ أن المعنى « الحيادى » للكلمة قد يتطور أحياناً إلى هذا الإتجاه أو ذاك . فالكلمة luck قد تكون ذات معنى طيب أو سىء . ولكنها تميل إلى تخصص فى المعنى الأول . كما تدل على ذلك الصفة lucky . وعلى النقيض من ذلك الكلمات fate و fatal و fateful التى اكتسبت الألوان غير المحببة من المعنى (١٥٣) . وبهذه الطريقة نفسها قد تتردد الكلمة بين الرقى والانحطاط فى سلم الاستعمال الاجتماعى ، بل قد تصعد الكلمة الواحدة إلى القمة وتهبط إلى الحضيض فى وقت واحد كما فى الكلمة الفرنسية marechal التى ترجع إلى أصل جرمانى معناه « خادم الاصطبل أو السايس » ،

= « العبد الذى يرتبط بالأرض التى يفلحها وتنتقل ملكيته معها » . وعندنا من بقايا الاقطاع فى بلادنا لفظ يفيد هذا المعنى أو ما يقاربه هو (التملى) (المترجم) .

(١٥٣) luck معناها العام (حظ) ولكنها أكثر ما تستعمل الآن فى معنى (الحظ السعيد) كما تشير إلى ذلك الصيغة lucky التى معناها (محظوظ) . أما fate فقد تعنى (الحظ) بدون تخصيص ، إذا أخذت منعزلة عن سياقها . ولكنها فى الاستعمال الحقيقى لا تعنى اليوم إلا (الحظ السىء) ونحوه . fatal fateful صفتان متفرعتان ومعنى الأولى (مهلك مميت) والثانية معناها (مشئوم) (المترجم) .

والتى قد يكون معناها (المشير) أو (البيطار) (١٥٤) . والكلمة Constable التى ترجع إلى اللاتينية comes stabuli ومعناها (كونت الاصطبلات) ، هى شخصية سامية كانت توجد فى البلاط الملكى فى أوربا فى العصور الوسطى — هذه الكلمة لا تزال تحتفظ بمكانتها فى نحو Chief constable و Constable of England و Lord High constable . ولكنها فقدت هذه المكانة فى police constable

قوانين المعنى

بعد أن استعرضنا النماذج المختلفة لتغير المعنى ، ووقفنا على أسباب هذا التغير وعلى الظروف التى تحيط به لنا أن نتساءل : أهذه العملية الضخمة الدائبة الحركة عملية احتياطية صرفة ، ولا يمكن التنبؤ بها ، أم أنها تتضمن اتجاهات عامة وقواعد مطردة يمكن اكتشافها والتعرف عليها ؟ هذه القضية كانت الشغل الشاغل لعلم المعنى منذ مراحله الأولى ، وبخاصة حينما اكتشف أن التطور فى الميادين المجاورة — ميادين الأصوات والنحو — يحدث باطراد يثير الدهشة . فإذا كانت الحركة الطويلة القديمة التى كان يرمز إليها بالحرف a فى نحو stan مثلا قد تطورت إلى on (وترسم إملائيا o) فى الكلمة الإنجليزية stone فمن المحتمل أن يكون هذا التطور نفسه قد لحق كل الأصوات التى كان يرمز إليها بهذا الحرف فى الموقع نفسه

---

(١٥٤) الكلمة marechal مكونة من mare بمعنى « فرس » مضافاً إليها chal (خادم) التى تظهر فى آخر كلمة نحو senescchal ومعناها (قيم الخدم فى بيت الأمير) أو ما يعرف بالكخيا (المترجم) .

(١٥٥) Chief Constable معناها رئيس الشرطة فى انجلترا . أما Constable England و Lord High Constable فيطلقان على ضابط عظيم يرعى شئون ملوك انجلترا وهو أشبه ما يكون (ناظر الخاصة الملكية) فى العهد البائد . وعلى كل حال . فهذا الضابط الآن إنما يمارس وظيفته فى المناسبات فقط ، كحفلات التتويج مثلا . و police constable معناها (كونستابل شرطة) (المترجم) .

والحق أن هذا هو ما حدث بالفعل فى home و worte و rode التى ترجع فى الأصل إلى ham و rad, wrat (١٥٦). وبالرغم من وجود استثناءات كثيرة لهذه القاعدة ، فهى كذلك مطردة اطرادا يسوغ وصفها « بالقانون » شريطة أن يؤخذ هذا المصطلح بمعناه الواسع ، لا بمعناه الدقيق ، كما فى ميادين بعض العلوم الأخرى ، فمن المعروف مثلا أن القوانين فى العلوم الطبيعية تصـــدق دائماً بقطع النظر عن المكان والزمان ، فالتيار الكهربائى إذا وقع تحت ظروف معينة سوف يحلل الماء إلى أوكسجين وهيدروجين فى أى مكان وفى أى زمان ، وسوف يكون فى استطاعتنا أن نتنبأ ببعض النتائج الأخرى إلى حد معين . أما قوانين الأصوات ليست لها الخواص . إنها تنبىء فقط عن قدر معين من الاطراد فى التطورات السابقة فى حدود معينه من حيث الزمان والمكان . أى أنها تشير إلى أن صوتا معينا قد تطور إلى صوت آخر بذاته فى فترة كذا وفى لغة كـــذا تحت ظروف معينة ومحددة تحديدا دقيقاً . هذه المقابلات الصوتية ونحوها هى أساس علم اللغة الحديث ، وأساس علم اللغة المقارن وبصفة أخص ، وهى التى منحت الدراسات اللغوية قدراً من العلميه التى لا يكاد يوجد مماثلها فى كل العلوم الأدبية .

ونعود فنسأل : هل تخضع معانى الكلمات لمثل هذه القوانين ؟ يعتقد الأستاذ ستيرن أنها تخضع . ومع ذلك فقد رأى أنه من الأصلح على وجه العموم أن نبحث عن نوع آخر من القوانين . أما وقد ثبت أن تغيرات المعنى تخضع لمجموعة من العلاقات والارتباطات ، والتركيب العقلى للمتكلم بصفة عامة ، فهى لابد أن تعكس اتجاهات معينة لها صفة الثبوت والاطراد أو قل إنها تعكس بعض الخواص الأساسية للعقل الإنسانى .

---

(١٥٦) الحركة الطويلة التى يرمز إليها بالحرف (a) تشبه الفتحه الطويلة فى نحو قال وباع الخ . أما الحركة ou والتى ترسم إملائيا (o) فلا مثيل لها فى اللغة العربية ، وأقرب الحركات إليها هى الضمة الطويلة الممالة فى نحو « يوم » العامية .
(المترجم)

فلقد رأينا مثلا أن الاحساس وحسن التعبير وانحطاط المعنى تسير كلها فى اتجاهات متشابهة تشابها جوهريا فى لغات مختلفة . وهذه هى الحال أيضاً فى الاستعارة والمجاز المرسل اللذين يعكسان بعض الخصائص المتماثلة . ولو لم يكن هنا تأثير متبادل بين هذه اللغات ، كما فى « اللسان » مثلا الذى كثيراً ما يطلق على الوظيفة التى يؤديها العضو المسمى بهذا اللفظ ، كما رأينا من قبل . وقد يكون من السهل أن نفسر الاتفاق على هذه الحالة بين اللغات الإغريقية واللاتينية والفرنسية والألمانية والروسية والهنغارية والفنلدية مثلا بأنه راجع إلى الاقتراض بطريق الترجمة . ولكن لا يصلح لتفسير وجود هـــذه الظاهرة نفسها فى اللغة التركية وفى بعض اللغات الأخرى البعيدة ، كلغات سيبريا وإفريقيا وبولونيزيا .

والمنهج التالى للتعرف على هذه الاتجاهات العامة وتقعيدها (وهى اتجاهات معروفة أيضاً فى تاريخ الأصوات) هو المنهج الإحصائى . وهو منهج يعتمد على جميع الأحداث اللغوية وتفسير ورودها فى المجـــال المعين . وربما يضطر علماء الرياضة إلى الأخذ بنصيب فى الموضوع حين يجرى البحث على مستوى أرق . ولقد قام العالم الأمريكى زيف zipf فى كتابه الحديث :

Human Behaviour and the principle of Least Fort (1964)

بتحليل نسبة ورود الكلمات ، وحصل من ذلك على نتائج باهرة ، كما استطاع أحد العلماء فى انجلترا أن يبرهن على إمكانية الفصل فى حقيقة الأعمال الأدبية المشكوك فى أصحابها بطريق الدراسات الإحصائية الصرفة .

ويكفى هنا أن نورد مثالا واحداً بسيطاً خالياً من أى مضمون رياضى ، لتوضيح طبيعة هذه الإتجاهات العامة . وليكن هذا المثال من أمثلة تغير المعنى فى مجال الحواس المستغلة فى الأساليب الشعرية : ولقد لاحظنا عند دراسة الاستعارة أن التشابه فى الشعور نحو طرفيها ، وفى نوع التأثر بهما ربما يتسبب فى انتقال الكلمة من مجال إلى آخر من مجالات الحواس (١٥٧) . هذه العملية — المعروفة

---

(١٥٧) انظر ص ١٦٥ — ١٦٧ (المترجم) .

عند علماء النفس ، بالاقتران فى الإدراك » ـ تلعب دوراً مهما فى الصورة الشعرية وهى حيلة أسلوبية قديمة استخدمها الإغريق حتى قبل ، ولها أمثلة كثيرة فى آثار شيكسبير Shakespeare و « دون Donne » وفى آثار بعض شعراء القرن السابع عشر ، ومنها « الأفواه العمياء » لملتون Milton . بيد أن فترة النهضة الرومانتيكية هى التى دفعت بالأدب إلى أن يستغلها على أوسع نطاق . غـــير أنها تحت تأثير الرمزية الفرنسية French Symbolism قد تعرضت للانحطاط والتدهـــور ، وصارت أسلوباً مصطنعاً متكلفاً خالياً من التلقائية والطواعية . فالموسيقى عند أوسكار وايلد Oscar Wilde قد تكون « بنفسجية » و « قرمزية » ، كما يوصف العطش بأنه (أخضر) وليس هذا فحسب ، بل إن آرثر سيموتز Arthur Symons يتصور أن (شذى العطر يمكن سماعه) ويشبه سوينبرن Swinburne صوتاً من الأصوات (بالأريج يحترق فى اللهب) . وكثيراً ما يعمد الشعر الحـــديث والشعر المنثور إلى استغلال هذه المصادر التعبيرية التى تسود بوجه خاص قصائد إديث سيتول Edith SitWell ، حيث نجد أمثلة من نحو : (سكون ينضر ويورق) و (ضوء ينهق كالحمار) .

ولقد كان لكثرة ورود هذه الاستعارات وأمثالها فى الشعر ، الفضل فى تجميع بعض الإحصاءات التى قصرت حتى الآن على اثنى عشر شاعراً ، معظمهم من الإنجليز والفرنسيين . ودرست الاستعارات التى جمعت من ناحيتين اثنتين : ناحـــية أصولها وناحية اتجاهاتها ، ففى نحو (لون دافىء) مثلا لدينا صفة (وهى دافىء) انتقلت من مجال الحرارة إلى مجال الرؤية . وبالموازنة بين القوائم المختلفة اكتشفت أن هناك اتفاقا جوهريا بين هؤلاء الشعراء جميعاً . فقد وجد ـــ بقطع النظر عن ميولهم الشخصية ، وتأثرهم بالنماذج الأدبية السائدة فى بيئاتهم الخاصة ـــ أن إدراكهم للعلاقات بين المعانى المنقول منها والمنقول إليها كان ينهج ـــ على ما يبدو ـــ مناهج متماثلة إلى حد بعيد . ويظهر أنهم جميعاً استمدوا صورهم التعبيرية المختلفة من مجالس اللمس بصفة أساسية ، ونقلوها إلى مجالس الصوت بصفة أساسية أيضاً .

وبالجملة ، تبين أن الانتقال من المجال الأدنى إلى المجال الأرقى من مجالات الحواس — أى من مجال اللمس إلى مجال الصوت والإبصار — كان ملحوظاً بشكل واضح فى كل المادة التى خضعت للدراسة ، على حين أن الانتقال فى الاتجاه المضاد كان قليلا ومحصوراً فى دائرة واضحة التكلف والصنعة ، كما فى بعض الأمثلة الرمزية والأمثلة الحديثة التى ذكرناها فيما سبق.

وبالرغم من أن البحوث المقبلة وحدها هى التى تستطيع أن تبرهن على مدى اطراد هذه الاتجاهات وشيوعها ، فيبدو واضحاً الآن أنها ليست مقصورة على شاعر واحد أو لغة واحدة أو فترة واحدة . كل هذا قد يشير إلى أن هذه الاتجاهات فى جملتها لا ترجع إلى الصدفة أو الهوى ، ولكننا لا نستطيع أن نجازف بإبداء رأى نهائى فى هذه القضية ، قبل أن نزيد فى معرفتنا بهذه الاتجاهات وطبيعتها .

ولقد وضعت فى الماضى مجموعة تسمى (بقوانين) المعنى ، وكان بعضها أكثر طموحا فى المجال والهدف من تلك الاتجاهات التى فرغنا الآن من تلخيصها . ومن أقدم هذه القوانين (قانون التفريق بين المترادفات) ، أى التفريق بينها بطريق إعطائها ظلالا أو ألواناً مختلفة من المعانى ، سواء أكانت هذه المعانى موضوعية أم كانت ذاتية . ومن هذه القوانين أيضا ما ادعاه البعض من أن الانتقال من المعانى المادية المحسة إلى المعانى المجردة أكثر وروداً من الانتقال فى الاتجاه المضاد . أما نظرية سبيربار المبنية على التحليل النفسى[١٥٨] ، فقد طورها إلى قانون تام النضج والتكوين ، مؤكداً أن القوى العاطفية والانفعالية إذا تمكنت من نقل كلمة خارج مجالها الأصلى ، لابد أن تحذوها كلمات أخرى من المجال نفسه .

والحق أن هذه القوانين وأمثالها لا تزال بحاجة إلى مزيد من البراهين الواقعية قبل أن نحكم على صحتها ومدى اطرادها حكما سليما . وهذا القول نفسه يمكن أن

---

(١٥٨) أنظر ص ١٥٧ (المترجم) .

يطبق على نظرية « نسبة احتمال الوقوع والورود » التى مكنت « زيف » من أن يدعى أن هناك تناسبا طرديا بين نسبة ورود الكلمة وعدد معانيها ، إنه من المستحيل استحالة مادية أن ندرس كل لغة على وجه الأرض فى كل مرحلة من مراحل تطورها ، ومن ثم وجب أن تؤخذ الأمور بمنتهى الحيطة والنظرة الواقعية ومن الأسلم لنا أن نتجنب إصدار أحكام سريعة شاملة فى هذا الشأن . ومع ذلك فإن الحقائق تشير بوضوح يتزايد يوماً بعد يوم إلى أن عالم المعنى ليس أكثر اضطراباً من عالم الأصوات ، بالرغم من أنه يخضع لقوانين مختلفة .

الفصل الرابع

انقراض الكلمات

هناك طرائق عدة لتجديد التراث اللفظى للغة ، أهمها ابتكار المفردات وصوغ كلمات جديدة من أصول قديمة . والاقتراض من لغة أخرى ، وتغير المعنى وهذه الطرائق جميعاً تلامى إلى جانب النمو فى الثروة اللفظية ، ولكن هناك من جهة أخرى قدراً كبيراً جداً من هذه الثروة معرضاً للانقراض والاختفاء . فكثير من الكلمات والمعانى التى تطالعها فى آثار شيكسبير مثلا قد أهملت وسقطت من الاستعمال الآن ، كما تدل على ذلك نظرة سريعة خاطفة فى أى معجم من معجمات هذا الشاعر : ولنأخذ على سبيل المثال هذه الكلمات التى التقطت اعتباطا من مدخل الحرف (a) التى اختفت ولم يعد يتداولها الناس : accte بمعنى « يستدعى للمحاكمة » aeknown بمعنى « مطلع أو عالم بالأمر » و affe بمعنى « يخطب العروس » كما أنه لم يعد فى إمكاننا أن نستعمل كلمة abhor فى « يحتج » أو كلمة addition فى معنى « عنوان أو لقب » أما إذا نظرنا إلى اللغة فى عهد تشوسر فإن قائمة الضحايا من الكلمات المنقرضة سوف تتضخم وتكبر إلى حد بعيد ، كما أننا لو أخذنا الاستعمال اللغوى فى عهد الملك ألفرد فى الحسبان فسوف نحس فى الحال بانقطاع واضح فى تاريخ الثروة اللفظية ، حيث إن عددا ضخما من الكلمات الجرمانية القديمة قد تم التخلص منه منذ الفتح النورماندى .

ولقد كانت العادة فى الأيام الأولى لعلم المعنى — عندما كان لنظرية التطور لداروين تأثيرها البالغ فى كثير من الميادين — أن يتحدث الدارسون عن الكلمات بل عن اللغات بأسرها ، كما لو كانت كائنات حية ذات مراحل حيوية محددة ، من ميلاد ، فنمو ، فنضج ، فشيخوخة ، فمات .

ولقد ابتدع الأستاذ دار مستيتار Darmesteter فى كتابه المسمى « حياة الكلمات The Life of words » أسلوبا جديداً فى استعمالات مجازية . وجاء بعد النوع ، وهى استعمالات لا تزال شائعة حتى اليوم إلى درجه ملحوظة . وجاء بعد ذلك علماء الجغرافيا اللغوية فأخذوا يتحدثون عن صراع الكلمات من أجل (الحياة) و (البقاء) . وربما لا يكون هناك أى ضرر من الاستعمال المجازى ما دام المرء مدركا أنه استعمال مجازى ، ولكن التكرار الكثير غير الحصيف لمثل هذه المجازات قد يقود إلى سوء الفهم الشديد . وإلى تكوين عادات فكرية خاطئه ، عادات تجعلنا نتصور الكلمات كما لو كانت كائنات حية ، وليست رموزا صوتية تستعملها كائنات حية ، كما أن التشبيه بالموت لا يعد بحال من الأحوال وصفا مناسبا لإهمال الكلمه أو هجرها ، إذ أن أختفاء الكلمة أو المعنى لا يكون نهائيا أو تاما فى حالات كثيرة .

وأسباب اختفاء الكلمات من الاستعمال كثيرة متعددة ، فأحيــانا يكون الجانب الصوتى . أى اللفظ نفسة هو المسئول عن انقراضها . ولقد أوضحت لنا الأطالس اللغوية أن الكلمات الشديدة القصر كثيراً ما تختفى ليحل محلها منافس أكثر أهمية ، والمألوف أن يكون هذا المنافس كلمه أو كلمات مشتقه من الأصل نفسه . ومع ذلك يتساءل الأستاذ بلو مفيلد — وهو على حق فى تساؤله — قائلا : كيف استطاعت إذن بعض الكلمات القصيرة مثل eau الفرنسيه — وتنطق o — أن تواصل الحياة ؟ وقد يتعاون جانب الصوت مع جانب المعنى على تعريض حياة الكلمه للخطر ، ويحدث هذا عادة كلما وقع اصطدام بين كلمتين تربطهما علاقة الاشتراك اللفظى ، كما فى الكلمتين queen و quean وغيرهما من الأمثلة الأخرى التى مرت فى الفصل الثانى من الباب الثانى من هذا الكتاب (١٥٩) . ولكنه فى معظم الحالات يكون المعنى وحده هو المسئول عن اختفاء الكلمات وانقراضها . وهناك فى هذه الحالة الأخيرة عدة احتمالات . فقد تسقط الكلمة من الاستعمال لأن مدلولها

---

(١٥٩) أنظر ص ١٢٧ — ١٣١ (المترجم)

قد اختفى واندثر ، ومن الثابت أن عددا لا يحصى من الأشياء والنظم والمنظمات التى لم تعد بنا إليها حاجة مع تطور الحضارة قد اختفت مع الكلمات التى تدل عليها ، على أن اللغة — كما رأينا — قد تحتفظ بمثل هذه الكلمات مع منحها ظلالا مختلفة من المعانى .

وقد يكون الترادف هو السبب الفعال فى اختفاء الكلمات ، وقد أحصى الأستاذ يسبرسن سبعة وثلاثين تعبيراً مختلفاً للدلالة على hero بمعنى بطل و prince بمعنى أمير فى الملحمة الانجليزية Beowulf ، كما عد ثلاثين لفظاً للدلالة على sea بمعنى بحر فى هذه الملحمة وغيرها من القصائد . ولكن هاتين القائمتين قد تعرضتا منذ ذلك الحين للاختصار الشديد . وقد تنقرض بعض الكلمات وتسقط من الاستعمال بسبب غموض المعنى ، أو بتأثير عامل اللامساس أو اعتبارات حسن التعبير (١٦٠) والملاحظ أن احتمال اختفاء الكلمات وانقراضها يكون قويا بصفة خاصة عندما تكون هذه الكلمات من باب المشترك اللفظى مع تحقيق اعتبارات اللامساس فيها وقد اقتبس لنا الأستاذ بالمار palmer مثالا مهما فى هذا الشأن من اللغة الإنجليزية القديمة هو adl بمعنى « مرض » فهذا اللفظ — إلى جانب ما له من إيحاءات بغيضة — قد اصطدم بلفظ آخر بمعنى « قذارة » ، ولا يزال أثره باقيا فى التعبير addleegg « بيضة فاسدة » (١٦١) . ومن ثم جيء بالكلمة disease التى هى ألطف وأخف وقعاً ، والتى تعنى حرفيا « عدم الراحة » ، لتحل محل هذه الكلمة القديمة . وكما هى العادة فى مثل هذه الحالة ، لم يعد أحد ينظر إلى إستعمال كلمة disease على أنه من قبيل التحويم حول المعنى أو تلطيفه ، وإنما صارت هذه الكلمة الوسيلة الحتمية للتعبير عن هذا المعنى غير السار .

وهناك ظروف أخرى تؤدى إلى ترك الكلمة وهجرها ، وتتمثل هذه الظروف فى عدم استقرار التقاليد وأنماط السلوك . (فقانون التضاؤل التدريجى) مثلا

(١٦٠) أنظر ص ١٣٠ — ١٧٨ — ١٧٩ (المترجم) .

(١٦١) adl و addle — بالرغم من اختلافهما فى الصورة الكتابية — ينطقان بصورة واحدة ، ومن هنا كان الحكم بأنهما من المشترك اللفظى (المترجم) .

— التى لا حظنا آثاره فى سياقات عديدة — سرعان ما يعمل عمله مع أساليب المبالغة، ومع الكلمات ذات المعانى البيئية الخاصة، والشعارات المذهبية على اختلاف أنواعها، فيسلبها جدتها وقوة التأثير فيها (١٦٢)، وكثيراً ما تضطر هذه الكلمات وأمثالها إلى أن تفسح المجال بعد ذلك لمنافس أقوى.

وقد تختفى الكلمة — أو المعنى — من الاستعمال العام، ولكنها تظل متشبثة بالحياة فى عبارات وأساليب خاصة. وهذا هو ما حدث بالفعل فى تاريخ الكلمتين الممثلتين بالصيغة let فى اللغة الإنجليزية فقد كانت هاتان الكلمتان فعلين متميزين فى الصيغة والمعنى فى الإنجليزية القديمة، أحدهما بمعنى «يسمح» والآخر بمعنى «يعوق». ولكنهما فى فترة من فترات تطورهما توافقتا فى اللفظ، ونتج عن ذلك صراع لفظى بينهما. وقد أدى هذا الصراع إلى التخلص من الكلمة التى تعنى «يعوق» غير أنها ظلت تواصل الحياة — ولكن فى صيغة فى الاسم — فى العبارة without let or hindrance «دون تعويق أو تعطيل»، وكذلك فى التعبير المعروف let ball الذى يستعمل فى لعبة التنس. وهذه الأمثلة الفردية من الكلمات التى تتشبث بمواصلة الحياة عامة وشائعة إلى حد ملحوظ.

وإنه لمن الصعب علينا فى بعض الأحيان أن نحدد مدى اختفاء الكلمة وانقراضها. فكثير من المصطلحات القديمة، التى يفهمها المثقفون ولكن استعمالها الفعلى بالرغم من ذلك مقصور على الميادين الدينية والشعرية. قد يعود إلى الحياة فى الأساليب البلاغية والمواقف الخطابية فإذا ما استعملت كلمة نحو wrath مثلا فى أى أسلوب حديث فإنها سوف تحمل ظلالا انفعالية مؤثرة، مستمدة من إيحاءاتها القديمة (١٦٣). ومن هذا القبيل ما تمدنا به الترجمة الرسمية للعهد

---

(١٦٢) أنظر ص ٩٦ و ١٦٧ — ١٦٩ و ١٧٧ و ١٧٨ (المترجم).

(١٦٣) wrath كلمة إنجليزية قديمة، معناها (غضب أو سخط) وتستعمل عادة فى الأساليب الدينية وأكثر ما يكون استعمالها فى معنى (الغضب أو السخط الإلهى) (المترجم).

القديم وآثار شكسبير من معين لا ينضب من الكلمات القديمة التي وصلت الحياة ، في الوعي اللغوي للأجيال المتعاقبة ، بفضل ما لها من تأثير خاص في النفس . ولا تزال أروع العبارات التي ابتكرها المستر تشرشل أثناء الحرب تدين بقدر كبير من تأثيرها الساحر لمقدرته الفائقةعلى استغلال هذه المصادر التقليدية القديمة.

وقد يحدث أحياناً أن تظهر في الأفق دعوات إلى إحياء الألفاظ القديمة المهجورة بطريقة منظمة : طريقة تتمشى مع خطة معينة تمليها السياسة اللغوية ، وتهدف إلى التخلص من الكلمات الأجنبية أو إلى سد النقص الملحوظ في الاستعمال. ذلك النقص الذي لا يمكن معالجته بالطرق العادية . وقدكان هذا السلوك شائعاً في ألمانيا في القرن الثامن عشر عندما جاهد دعاة المحافظة على اللغة وقواعدها في سبيل التخلص من الكلمات الفرنسية الدخيلة . وأقرب من هذا عندما حدث على نطاق واسع في اللغات الاسكوتلاندية المليئة بالعناصر الأجنبية . وفي اللغـــة (الحالية الايرلندية) Irish Caclic (١٦٤) التي فرضت في إيرلندا فرضا .

يتبين لنا من هذا كله أنه من الخطر أن نقول إن كلمة ما (قد ماتت) ، إذ أن هناك دائماً احتمال (عودتها إلى الحياة) ، ولو كان ذلك بعد قرون عديدة من الهجوم والاختفاء من الاستعمال .

---

(١٥٤) انظر الملحوظة (١٩) (المترجم) .

الباب الرابع

الكلمات والأشياء



الفصل الأول

تأثير الكلمات

من المعروف أنه لا توجد علاقة مباشرة بين الكلمات والأشياء ، فهناك بين اللفظ والشيء الذى يدل عليه فى العالم الخارجى عنصر ثالث لابد من أخذه فى الحسبان دائماً . هذا العنصر الثالث هو المدلول أو المضمون العقلى الذى يستخلص من هـــذا الشيء الخارجى ويرتبط به . ومعنى ذلك أنه ليس هناك طريق قصير مباشر بين اللغة والواقع .

وقد استطعنا حتى الآن أى نقصر اهتمامنا على اللفظ والمدلول ، ولكن الوقت قد حان لكى نوسع نطاق بحثنا هذا ، فنحاول الخروج من هذا الباب الختامى عن مجال علم اللغة بمعناه الدقيق ونغامر بإبداء بعض الملاحظات عن العلاقة بين الكلمات والواقع . وليس مثل هذا المنهج غريبا عن الدراسات اللغوية الحديثة على الإطلاق، إذ أن الاتصال الوثيق بين الدراسات اللغوية وتاريخ الحضارة الإنسانية قد أصبح أمراً مألوفاً منذ السنوات الأولى من هذا القرن ، كما وجد فرصة التعبير عن نفسه فى صحيفة علمية ألمانية تحمل هـــذا العنوان المعبر : « الكلمات والأشياء » . Words and Things . وقد صاغ لنا أول رئيس لتحرير هذه الصحيفة الشعار التالى « لا يمكن الاستمرار فى بحث تاريخ الكلمات منعزلا عن تاريخ الحضارة » . وقد بدأ أتبـــاع منهج « الكلمة والشيء » فى البحث اللغوى يهملون الطريقة التقليدية لنظام المعجمات اللغوية والدراسات التاريخية التحليلية للكلمات . فبعد أن كان السؤال التقليـــدى هو : ماذا تعنى هذه الكلمة أو تلك ؟ أصبح هؤلاء يوجهون السؤال بطريقة عكسية ، فيقولون : ما الألفاظ التى تدل على هذا الشيء

أو ذلك ، وتطبيقاً لهـــذا الاتجاه الجديد ، قام العلماء السويسريون بصفة خاصة بدراسة الألفاظ المختلفة التي تستعمل للدلالة عـــلى الآلات الزراعية في المناطق الريفية، وأرفقوا بحوثهم باستعراض لتاريخ الآلة نفسها موضحا بالصور والرسوم. ولقد أصبح هذا المبدأ الآن القاعدة العامة في إعداد صيغ الاستفتاءات اللغوية التي تتخذ أساساً لوضع الأطالس اللغوية . وقد ترك هذا المنهج القائم على التعاون بين هـــذين النوعين من الدراسة آثاراً ثورية فيهما معا . وكان في مراحله الأولى مقصورا بصفة أساسية عـــلى الجانب المادى من جوانب الحضارة ، أما في الفترات الأخيرة فقد جرت محاولات لإدخال الجوانب العقلية والخلقية في نطاقه أيضاً .

هذه المحاولات الجديدة بالرغم مما قد يكون لها من تأثير ووقع في النفس — تقلل من شأنها وتذهب بروعتها تلك الاحتمالات العريضة المزعجة التي يفضى إليها منهجنا في البحث . إنه من المألوف للغاية أن نعامل الكلمات — بل واللغة بوجه عام — عـــلى أنها أدوات ، وأدوات فحسب . والحق أن الكلمات في مواقف لا حصر لها لا تعدو أن تكون مجـــرد أدوات . ولكن هل هي دائما أدوات مناسبة ؟ أو — وهذا هو الأهم — هل الكلمات ليست إلا أدوات ؟ هل هي أدوات سلبية صرفة أو أن لها دوراً إيجابياً في النشاط الذهني للإنسان ؟ هاتان المشكلتان — مشكلة تأثير الكلمات ، ومشكلة كفايتها بوصفها رموزا — تمثلان الموضوع الأساسي للدراسة في الفصلين الباقيين من هذا الكتاب .

ولا شك أن القدر الأعظم من تفكيرنا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالكلمات ولكنه من المبالغة أن ندعى استحالة وجود الأفكار دون الاعتماد على اللغة ، لأننا مثلا عندما ندرك مغزى الأضواء في إشارات المرور ، أو العلامات التي توضع في الطريق لإرشاد المارة ، أو عندما ندرك في لحظـــة مفاجئة من الالتماع الذهني علاقة رياضية أو حسابية أو أي نوع من الحقائق البديهية التي يتم تصورها تلقائيا — إننا عندما ندرك كل هذا نستطيع أن نفعله دون الالتجاء

إلى الطريقة الأكثر أناة وهى التفكير بالكلمات . وفى الجانب الآخر نرى أن المنطق الرمزى والعلوم الرياضية قد أخذت على عاتقها مهمة التخلص من الكلمات مع ما يصحبها من غموض ، وقد أدى هذا إلى عقم علم المعنى الفلسفى — فى وضعه الحاضر — عندما يطبق على المشكلات اللغوية أو العملية . وبالجملة ، يمكن القول إن أحداً لا يستطيع أن ينكر الأهمية العظمى للكلمات فى أى نوع من التفكير ، ذلك التفكير الذى يطلق عليه اسم « الكلام الداخلى » inner speech . ومما لا شك فيه أننا جميعاً مررنا بالتجربة العامة للأحلام ، وعرفنا أن أحلامنا تتبخر من أذهاننا بسرعة إذا لم نبادر بتسجيلها فى كلمات . وكثيرا ما يظل الإنسان عاجزا عن تحديد خطة البحث الذى ينوى القيام به أو الطريقة التى يسلكها فى مناقشته إلى أن يوضحهما ويبلورهما ، بوضعهما فى تعبير لفظى . وقد برهنت تجارب التحليل النفسى على أن مخاوف اللاشعور سوف تنتهى تلقائيا إلى مجرد تخيلات ويزول أثرها فلا تكون عقدا أو تسبب كبتاً فى اللحظة التى تصاغ فيها هذه المخاوف فى عبارات واضحة . فإذا جاوزنا ذلك إلى مستوى أعلى ، وجدنا أن التفكير المجرد لا يمكن إدراكه — كما رأينا — (١٦٥) إذا لم يتحول المضمون الذهنى الغامض المتميع إلى شىء مادى بطريق الصياغة اللفظية .

وما دامت الكلمات تتداخل هكذا مع الأفكار وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً بحيث يتعسر عزل أحدهما عن الآخر ، فلا مناص من أن تؤثر الكلمات فى الأفكار إلى حد بعيد . ولكن ليس من السهل تحديد مدى هذا التأثير ، نظراً لأنه عملية ليس من « المفروض » أن تقوم بها الكلمات . والواقع أن الكلمات حين تقوم بهذه العملية تكون قد جاوزت وظيفتها الأساسية المرسومة لها . وكما هى العادة فى مثل هذه الظروف ، تستطيع الحالات المرضية — بفضل ما تقدمه لنا من صور غير طبيعية مبالغ فيها — أن تساعدنا على إدراك الحالات العادية إدراكا عميقاً . ويجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر فضل الأستاذ ستيرن Stern على

(١٦٥) أنظر ص ٨٨ — ٩٠ (المترجم) .

علماء اللغة فى هذا المجال ، فقد استمد هؤلاء معلومات قيمة من تلك الدراسات الطبية التى قام بها هذا الباحث لظاهرة الأفازيا aphasia أو عيوب الكلام speech defects الناتجة عن إصابة المخ بجروح . ولقد أمدتنا دراسة عدد كبير من المصابين فى الحرب العالمية الأولى بالأدلة والبراهين القيمة على تأثر التفكير بما يطرأ على ميكانيكية اللغة من خلل . ولقد نجح رائد البحث فى هذه المشكلات فى بريطانيا الدكتور « هيد » Head فى التمييز بين أربعة أنواع رئيسية لعيوب الكلام . والنوعان الأولان — هما عيوب النطق وعيوب إدراك القواعد النحوية — ليست لهما لدينا الآن أهمية مباشرة . كذلك لا يعنينا هنا كثيراً النوع الثالث منها وهو المعروف « بعيوب إدراك العلاقات بين الأشياء » ، والمصاب بهذا النوع يدرك جيداً معانى الكلمات المفردة ، ولكنه لا يستطيع إدراك العلاقة بين الوحدات أو العناصر المختلفة المكونة للشىء إدراكا كافياً . ومن ثم نراه عاجزاً عن ضبط عقارب الساعة وعن لعب الشطرنج وعن أن يكون وحدة متكاملة من القطع الموجودة فى صندوق ألغاز الصور المفككة مثلا . أما النوع الرابع من « عيوب الكلام » وهو المعروف « بالعيب اللفظى » ، فهو الذى يهمنا الآن بطريقة مباشرة . ومرضى هذا النوع يتميزون « بالاضطراب فى إدراك معانى الألفاظ » ، وهذا يعنى فى إصطلاحنا الخاص أن العلاقة بين اللفظ والمدلول أصبحت لديهم مهزوزة غير محدد ، وهناك مثلا من أمثلة هذا العيب كما قدمه الدكتور « هيد » : « وقد وقع المريض رقم (٢) خلال اختبارات الألوان فى أخطاء جسيمة كان من الممكن أن تحملنا على التفكير بأنه مريض بعمى الألوان إذ أنه سمى الأبيض أخضر والأسمر أحمر والأخضر أزرق . . . ولكن بالرغم من ذلك لم يجد أى واحد من هؤلاء المرضى أية صعوبة فى أن يختار من مجموعة الألوان الموضوعة أمامه على المنضدة ذلك اللون الذى يتمشى مع ما كنت قد عرضته عليه من قبل » . وهناك مريض آخر — له خبرة فائقة بلعبة الشطرنج — لم يستطع أن يلعب بالورق لعبة البريدج ، بالرغم من أنه كان لاعبا ممتازاً فى هذه اللعبة بالذات قبل إصابته . والذى حدث لهذا المريض هو أنه أصبح عاجزاً عن تذكر أسماء الورق الذى يلعب به »

وأوضح ما تقدم فى هذا الصدد تلك السلسلة من التجارب التى قام بها العالم النفسى « جلب » Celb عـلى مريض كان قد نسى نسياناً تاماً أسماء الألوان (Golour -amnesia) ، بينما احتفظ بإحساس مرهف فيما يتعلق بالفروق اللطيفة بينها . عندما سئل هذا المريض أن يختار من بين الخيوط الملونة العديدة التى أمامه تلك التى تلتقى فى مجموعة واحدة ، وجد أنه من المحال القيام بتلك المهمة ، بل أعتقد أنها عملية لا معنى لها . وذلك لأن كل الخيوط كانت فى نظره مختلفة فى ألوانها والواقع أنها كانت كذلك فيما يتعلق بمظهرها الخارجى الصرف . فالذى حدث هو أن هذا المريض حين فقد أسماء الألوان — أى الرموز اللفظية التى ترمز إليها — فقد كذلك المبدأ الذى ينبنى عليه تقسيم الألوان إلى مجموعات . أو بعبارة أخرى ، إنه فقد الطاقة التى تخضع الفروق الفردية لبعض الوحدات العليا فى مستويات التقسيم وتجعلها تابعة لها ، أو أنه فقد العادة التى تدفعنا إلى وضع فواصل من صنع الإنسان بين أجزاء ما يعرض عـلى الطبيعة وحدة متصلة ذات تدرج طبيعى من الألوان . والحق أن الفضل فى تقسيم ألوان الطيف يرجع إلى اللغة . فبوساطتها تم تقسيمه وتمييز أجزائه . ولو فقدنا هذه الدلائل اللفظية التى تميز بين أجزائه لعادت تلك الأجزاء إلى الاختلاط والفوضى .

ويمكن أن نقابل هذه الحالات الشاذة التى تم تشخيصها مع هؤلاء المرضى بشواهد لغوية عادية . فنحن قد ألفنا التعرف عـلى الألوان عن طريق الإطار العام الذى اصطنعناه بالتحليل اللغوى ، فأى وضع آخر غير هـذا الذى ألفناه يجعلنا نحس بأنه غير طبيعى ، مع أنه من الجائز أن نميز عدداً أكثر أو أقل من ذلك العدد الرئيسى المألوف بين تلك الأنواع المختلفة من الظلال اللونية التى لا نهاية لها . وقد حدث هذا بالفعل مع جلادستون Gladstone الذى كان شديد الاهتمام بالدراسات اللغوية ، فعندما وجد أن لوحة هومر تشتمل على عدد من الألوان أقـل بكثير من ذلك العدد الذى تألفه ، اتجه مباشرة إلى افتراض أن الشاعر الإغريقى كان مصاباً بعمى الألوان ، وقد يقدم مثل هذا الافتراض أحياناً لتعليل القلة النسبية فى أسماء الألوان فى كل من اللغتين اليونانية واللاتينية . كما حدث بالضبط فى حالة مرضى الدكتور « هيد » الذين ظن أول الأمر أنهم من

للتمايز بين بعض الألوان ، إلى أن أثبت البحث أن بصر هـــؤلاء المرضى كان سليما لا عيب فيه ، ولكن الجهاز اللغوى عندهم كان مصابا بالاضطراب والاختلال .

وعندما أراد العقل الإنسانى أن يرتب سلسلة الألوان فى نظـــام خاص ، اضطر إلى أن يفرض عليها نموذجا خارجا عنها . وليس من العجيب أن يختلف هذا النموذج الخارجى فى العالم القديم عنه فى عالمنا المعاصر . بل إنه فى الحالات التى يبدو فيها أن التقسيم أو الفصل الطبيعى بين الأشياء واضح لا لبس فيه ، من الممكن أن تكون هناك عدة احـــتمالات من التفسير والتأويل . فبينما ينظر قوم إلى بعض الأفكار على أنها من الأهمية بحيث تتطلب إسماً خاصا ، يترك قوم آخرون هذه الأفكار دون تحديد إلى أن تصبح الحاجة ماسة إلى ذلك . وفى محيط العلاقات العائلية نفسها ، قلما نجد اتفاقا تاما فى تقدير هذه العلاقات . إننا لا ننكر أن الأفكار الرئيسية لابد أن تحظى بالتعبير اللفظى فى كل زمان ومكان ، ولكن مما لاشك فيه أن الظروف الاجتماعية تؤثر فى تحديد المغزى الدقيق للألفاظ التى تعبر عن هذه الأفكار : ففى المجتمعات القبلية القديمة التى بالغت فى تقدير الأبوة ، لا شك أن كلمة «أب» كانت تعنى سلطة أوسع ومركزاً اجتماعياً أقوى مما تدل عليه هذه الكلمة فى العصر الحديث . فإذا ما انتقلنا إلى علاقات الأخوة ، بدأ الاختلاف والتعدد يشق طريقه إلى الوجود . ففى اللغة المجرية مثلا توجد ألفاظ قديمة للدلالة على «الأخ الأكبر» و «الأخ الأصغر» و «الأخت الكبرى» و «الأخت الصغرى» ولكن لم يكن هناك إلى ما قبل مائة عام فقط لفظ واحد يدل على الفكرة البسيطة (أخ) و (أخت) . أما القرابات الأبعد من الأخوة فتقدم لنا صورا أوسع من الاختلاف والتعدد ، ففى اللغة اللاتينية نجـــد ألفاظاً خاصة تستعمل للتمييز بين أخت الأب وأخت الأم وبين أخى الأب وأخى الأم . والسبب فى هـــذا التمييز هو أن قانون الميراث الرومانى كان يحتوى على تفرقة جوهرية بين هذين النوعين من القرابة . فلما تغير الوضع القانونى أصبح التمييز بينهما أمراً غير ذى موضوع . وترجع الكلمة الإنجليزية aunt إلى الكلمة اللاتينية amita أى «أخت الأب» و uncle إلى avunculus بمعنى

وأخى الأم » . واللغة السويدية المعاصرة لاتزال تحتفظ بهذا التقسيم الثنائى لهذه القرابة كما فى اللغة اللاتينية (١٦٦) .

ومثل هذه الفروق فى التحليل اللغوى للعالم الخارجى تصبح شديدة الوضوح إذا ما قارنا عاداتنا اللغوية بعادات الأجناس البدائية . فعندما كنا نبحث فى « المعنى المتعدد » أشرنا إلى التنوع الواسع النوعى فى الكلمات الدالة عـــلى الأشياء المادية الجزئية وإلى ندرة الكلمات الدالة على الكليات أو الأنواع العامة فى لغات هذه الأجناس . وقد جمع الأستاذ يسبرسن عدداً من الأمثلة المهمة فى هذا الشأن ، فهو يخبرنا أن اللغة التسمانية لا يوجد بها لفظ يدل على « الشجرة » بوجه عام . بينما تشتمل على اسم خاص لكل نوع من شجر الصمغ وشجر السنط . وفى البرازيل الوسطى توجد هذه الظاهرة نفسها فيما يتعلق « بالببغاء » و « النخيل » وفى لغة « الزولو » لا يوجد لفظ للدلالة على « البقرة » ولكن هناك ألفاظا (البقرة الحمراء) و (البقرة البيضاء) الخ . وليس لدى قبيلة (الموهيكا) أى لفظ للدلالة على فكرة (القطع) ، فى حين أن لديها كلمات خاصة تختلف باختلاف الشىء المقطوع . وفى منطقة (لابلاند)(١٦٧) لا توجد كلمة تدل على جنس

---

(١٦٦) واللغة العربية أيضاً توافق اللاتينية فى هذا التقسيم الثنائى ففيها العمة والخالة ، والعم والخال . أما اللغة الإنجليزية فليس فيها هذا التقسيم ، ومن ثم تستعمل كلمة aunt للدلالة على العمة والخالة معا ، وكلمة uncle للدلالة على كل من العم والخال (المترجم) .

(١٦٧) اللغة التسمانية Tasmanian language نسبة إلى (تسمانيا) Tasmania وهى مقاطعة من مقاطعات استراليا ، ومكونة من مجموعة ضخمة من الجزر . (والزولو) Zululand منطقة من مناطق جنوب أفريقيا وتكون الجزء الشمالى الشرقى منها . وقبيلة الموهيكا The Mohicans إحدى قبائل الهنود فى أمريكا الشمالية . أما (لابلاند) Lapland فهى منطقة من مناطق أوروبا الشمالية وتمتد عبر شمال النرويج والسويد وفنلندا وروسيا من الشاطىء النرويجى حتى البحر الأبيض (المترجم)

« الثلج » ، بينما توجد ثروة غنية من الأسماء لأنواع الثلج العديدة ، وقد ظهر حديثاً تعليل عبقرى لهذا الوضع . فقيل إن السبب فى عدم وجود اسم للثلج بوجه عام فى هذه اللغة يرجع إلى أن الثلج يلعب دوراً مهماً فى حياة هذه شعوب القطبية ، وكل نوع من أنواع الثلج يتطلب منها لوناً معينا من السلوك يختلف عما يتطلبه النوع الآخر . ومثل هذا التعليل — وإن صدق على بعض الأمثلة التى أشرنا إليها — لا يصدق عليها جميعاً . فعدم وجود لفظ يدل على جنس « الشجرة » ، أو على فكرة « القطع » أو « الغسل » لا يمكن أن نعلل له إلا بعجز طاقة التجريد والتعميم وعدم تطورها عند هذه الشعوب البدائية ، وهذا العجز ربما يوجد جنباً إلى جنب مع القدرة الفائقة على الملاحظة بصورة خارقة للعادة ، والتفسير الحقيقى لهذه الظاهرة هو أن هؤلاء الناس لا يستطيعون أن يدركوا العنصر المشترك بين أفراد النوع أو الخاصة العامة التى تجمع بين هذه الأفراد كما لا يستطيع ذلك أيضاً صغار الأطفال . ولاشك أن افتقار هؤلاء الناس إلى مبدأ التقسيم والتنظيم ، أى افتقارهم إلى الوسائل اللفظية المناسبة ، يعد مسئولا إلى درجة كبيرة عن مثل هذا العجز .

وقد دعت كل هذه الحقائق إلى القيام بمحاولة جديدة لتقويم الدور الذى تلعبه اللغة — والكلمات بصفة أخص — فى النشاط العقلى للإنسان . وقد أصبحنا الآن ننظر إلى الثروة اللفظية للغة على أنها أشبه ما تكون بإطار عام أو نظام من النظم التى ورثناها عن أسلافنا والتى تشكل وجهات نظرنا الخاصة فيما يتعلق بالعالم وتعدل هذه الوجهات على حسب الظروف . إن هذه الثروة هى نتائج جهود الأجيال العديدة ، ووسيلة من وسائل نقل القيم القومية والقائد وطرائق تقويم الأشياء وتفسيرها عبر السنين . وكل جماعة تربطها وحدة لغوية تطور نظاما فريدا متميزاً من نظم التعبير اللغوى ، وتودع هذا النظام كل فلسفتها ونظرتها العامة إلى الحياة . فإذا ما ولد الشخص فى جماعة لغوية معينة ورث عنها نظرتها إلى الحياة ومعايير القيم والمثل الخاصة بها والتى تبلور فى لغتها . وقد أدى إدراك هذه الحقيقة إلى إحداث انقلاب ثورى فى اتجاه علم المعنى فى السنوات الأولى من العقد الرابع من هذا القرن . وكان من أبرز دعاة المدرسة الجديدة فى هذه

الدراسات الأستاذ (ترير) Trier الذى هاجم الطريقة التقليدية فى التركيز على تاريخ الألفاظ المفردة . ودعا بدلا من ذلك إلى وجوب البحث فى قطاعات كاملة من الثروة اللفظية ، وإلى وجـوب ملاحظة ما تعكسه هذه القطاعات من تغير فى وجهات النظر إلى الأشياء أو تنوعها وتغييرها وقد ابتكر هذا العالم المصطلح : الحقل اللغوى linguistic field وأطلقه على تلك القطاعات المتكاملة الواضحة من قطاعات الفكر . ومن النماذج المثالية لهذا الحقل المذكور أسماء الألوان والرتب العسكرية والعلاقات العائلية ، فأفراد هذه النماذج يتلاءم بعضها مع بعض تلاؤماً يؤدى إلى تكوين وحدة متناسقة متكاملة ، وهذه الأفراد تغطى فيما بينها مجالا معينا من مجالات الحقيقة والواقع ، وتعمل على تنظيم هذا المجال بطريقة فريدة ، فكل فرد من هذه الأفراد يستمد قيمته ومعناه من المجموع كله ، فالمصطلح : captain فى الجيش مثلا يتحدد معناه بوضعه بين lieutenant و major أما فى البحرية وسلاح الطيران فهنا المصطلح نفسه له مفهوم مختلف تمام الاختلاف (١٦٨) .

وقد طبق (ترير) نظرية الحقل اللغوى على تاريخ ألفاظ الحياة العقلية فى اللغة الألمانية ، واستطاع أن يثبت أن المعرفة الدينية والدنيوية فى غمرة العصور الوسطى كانت وحدة غير قابلة للفصل والتقسيم ، بينما تميزت تقاليد البلاط والفروسية عن غيرها من المهارات تميزاً تاماً . وما أن انقرضت أيديولوجية العصور الوسطى حتى بدأ الخط الفاصل بين عادات البلاط والعادات الفنية الأخرى يتلاشى ويزول بينما أخذ يظهر فى الوجود خط جديد يفصل بين المعارف الدنيوية والمعارف

---

(١٦٨) هذه المصطلحات يقابلها عندنا (بالترتيب الذى وردت به فى المتن) النقيب والملازم والرائد ، ومما هو جدير بالذكر أن captain (كابتن) فى البحرية الإنجليزية وسلاح الطيران الإنجليزى إنما تدل على وظيفة لا على رتبة . وهذا الشىء نفسه ملحوظ عندنا كذلك . فكابتن أو قبطان السفينة أو الطائرة قد يكون برتبة نقيب أو بغيرها « المترجم » .

اللاهوتية . أما الطريقة التقليدية التى تعنى بدراسة تاريخ المفردات فإنها كانت فى مثل هذه الحالة تحاول مخلصة أن تقدم تسجيلا دقيقاً للتغيرات التى طرأت على الألفاظ المختلفة التى تضمنتها هذه العمليه التطورية ، ولكنها لم تكن لتدرك حقيقة العملية التطورية نفسها ككل ، أو أن تدرك حقيقة المغزى التاريخى للتوزيع الجديد للمفردات ، أو التعديل فى وضعها واستعمالاتها .

ولا تزال نظرية « الحقل اللغوى » فى مرحلة الطفولة ، وقد تكون الآمال المعقود عليها بمجرد اندفاع بالغ الحماس والتفاؤل ، لأن غموض المعنى وتميع حدوده بالإضافة إلى التداخل فى معانى الكلمات ، كثيراً ما يحول دون تطبيق أى نظام صارم دقيق . ولكن مما لا شك فيه أن هذه النظرية تعد خطوة إيجابية فى الطريق السليم لهذا النوع من البحوث ، وذلك لسبب اهتمامها البالغ بمجالات كاملة من مجالات الفكر .

ومن المشكلات التى قد تستدعى الإيضاح مشكلة الترجمة ، فإذا كانت كل لغة تبلور نمطاً خاصاً فريداً من أنماط النظر إلى الحياة فإن عملية النقل من لغة إلى أخرى لا بد أن تصطدم بصعوبات حقيقية شائكة . وهناك عدد من الكلمات التى تستعصى نهائياً على الترجمة . فإذا حاولنا مثلا ترجمة لقب أجنبى أو رتبة أجنبية فلا بد أن نضيف بعض الحواشى الضافية لتوضيح أصلهما والظروف المحيطة بهما ، أو — قل — لتوضيح المجال الفكرى الذى ينتميان إليه . وهناك أيضاً الدرجات العلمية التى تتفاوت فى مستوياتها فى الأقطار المختلفة ، بل وفى الجامعات المختلفة فى البلد الواحد . فإذا ما انتقلنا إلى الكلمات ذات المدلول الخلقى وجدناها أكثر استعصاء على الترجمة . فالكلمات : fair humour, gentleman [١٦٩] مثلا وكثير غيرها إنما هى تعبيرات عن طريقة الحياة فى بريطانيا ، فإذا رغب الاجانب

---

(١٦٩) لكل من هذه الكلمات الثلاث أكثر من معنى ، وكلها معان يصعب ترجمتها ترجمة دقيقة ، وأنسبها لهذا المقام هى : « بالترتيب الذى وردت به الكلمات فى المتن ، مهذب ، عدل » المترجم » .

فى أن يشاركوا البريطانيين القيم والمثل التى تعنيها هذه الالفاظ فأحسن طريق إلى ذلك هو نقل هذه الألفاظ إلى لغاتهم على سبيل الاقتراض . ولا تعنى الكلمة الانجليزية wit « حضور البديهة » نفس ما تعنيه الفرنسية esprit أو الألمانية Geist [١٧٠] . وكثيراً ما تذكر الكلمة الألمانية Schandenf reude «فرح الشماتة» مثالا على الألفاظ التى لا يمكن ترجمتها بكلمة واحدة فى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية وقد أثبت الأستاذ شبيتزر Spitzer منذعهد قريب أن هذا اللفظ يرجع إلى فترة مبكرة من العصر المسيحى ، حيث كانت تستعمل فى الأصل عند الحديث عن الشيطان فقط . ولكنه يحذرنا من استنتاج أى شىء ذى مغزى خلقى من عدم وجود ما يقابلها فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية فى الوقت الحاضر . ولكن الحقيقة تظل قائمة على أية حال ، وهى أن الناشئة الألمان يولدون ولديهم وسيلة لغوية تشعر بأهمية هذه الرذيلة ، حتى إنها منحت تعبيراً خاصاً فى لغتهم ، على حين أن الناشئة الانجليز والفرنسيين ليست لديهم هذه الوسيلة .

ومن الثابت من جهة أخرى ، أن الكلمتين الفرنسية perfide والإنجليزية cant ومعناها « مخادع منافق » ليس لها ما يقابلهما مقابلة دقيقة فى اللغة الألمانية ، فإذا ما نزلنا إلى مستوى عادى جداً من مستويات الكلام فسوف نفاجأ بما يبعث على اليأس ، إذ سوف نكتشف أن اللغة الفرنسية مثلا ليس فيها كلمات فردية تقابل الأفعال الانجليزية الشائعة : to sit « يجلس » ، to stand « يقف » ، to lie « يستلقى » [١٧١] ، فهذه الأفكار البسيطة لاتترجم إلى الفرنسية إلا بشىء من اللف

---

(١٧٠) تذكر القواميس التى بين أيدينا أكثر من معنى لكل من Geist و esprit وأحد هذه المعانى يتفق مع ما تفيده الكلمة الانجليزية wit (المترجم) .

(١٧١) ترجمة هذه الصيغ بالفعل المضارع لا يعنى أنها أفعال مضارعة تفيد الحال أو الاستقبال . إنها صيغ تعبر عن فكرة الأفعال بدون إشارة إلى الزمن أو « الشخص » من حيث التكلم أو الخطاب أو الغيبة أو ... ، الخ . ويسمى الفعل فى هذه الصيغة infinitive فى اللغة الانجليزية (المترجم) .

والدوران، هكذا : etre assis «كونه جالساً»، و etre debut «كونه واقفاً» و etre couche (كونه مستلقيا). فإذا أضفنا إلى عدم التناسق الموجود في هذه الأمثلة ونحوها، تلك السقطات المزعجة التي تنشأ عن الكلمات «ذات الصداقات المزيفة» (١٧٢)، وعن الفروق المعنوية الدقيقة ذات الشحنات العاطفية والانفعالية وعن التفاوت البين في قواعد النحو وتركيب الجمل — إذا أضفنا كل هذا أمكننا أن نقدر مهمة المترجم — وهي مهمة جد خطيرة في حياتنا الحاضرة — في وضعها الحقيقي المليء بالمشكلات والتعقيدات.

والحق أن الكلمات ليست إلا وسيلة واحدة فقط من الوسائل العديدة التي تستطيع اللغة بوساطتها أن تؤثر على التفكير. بل إن الفلاسفة أكثر اهتماما بتأثير نظام التركيب النحوي عـلى أحكامنا وقضايانا المنطقية. ومن السهل أن ندرك أن انتشار استعمال فعل الكينونة في الانجليزية كأداة ربط في نحو Peter is a man «بطرس رجل»، و Peter is tall و«بطرس طويل»، ربما يؤثر عـلى عمليات التفكير بطريقة تختلف عن العادة الروسية والمجرية مثلا التي تربط جزئي الجملة دون أداة ربط فيقال: Peter man «بطرس رجل» و Peter tall «بطرس طويل» (١٧٣). وبالرغم من أن مشكلات النحو تقع خارج نطاق

---

(١٧٢) الكلمات «ذات الصداقات المزيفة» هي الكلمات المتشابهة في الصيغة المختلفة في المعنى أنظر ص ١٢٠ (المترجم).

(١٧٣) الجملة الإسمية المكونة من مبتدأ وخبر في اللغة العربية تشبه مثيلاتها في اللغتين الروسية والمجرية في عدم وجود أداة ربط بالمعنى الذي ذكره المؤلف، أي أنها تشبهها في عدم وجود فعل الكينونة الذي يربط جزئي الجملة، فيقال: محمد قائم، وعلى حاضر، دون ذكر هذا الفعل. ويفهم من كلام بعض المستشرقين أن هذه الظاهرة تعد قصوراً في الجمل العربية، وسموها «الجمل الخالية من الرابطة» non — copulative sentences. والحق أن هؤلاء المستشرقين — ومن حذا حذوهم — وقد جاوزوا الصواب في هذه القضية. فالجمل الإسمية (وغيرها) لا تخلو من رابطة copula ولكنها رابطة من نوع معين. هذه الرابطة تتمثل =

بحثنا هذا ، فهى تلتقى مع دلالة الألفاظ لتمنح هذه الشكة كيانا وشيئا من الحقيقة المادية : « لو كان أرسطو داكوتيا لاختلف منطقه »[174] . فهذا التعبير يحمل فى طواياه مضمونات مزعجة كل الإزعاج للفيلسوف ، إذ أنه يوحى بأن بعض المشكلات القديمة التى بحثها هذا الفيلسوف والفلاسفة الذين سبقوه لم تكن مشكلات فلسفية أصلية على الإطلاق ، وربما يتضح لنا — فيما لو تأملناها عن كثب — أنها لم تكن إلا أشباه مشكلات ، لفقتها اللغة فى مهارة خادعة .

ويتركز قدر هائل من التفكير الحديث على الحاجة إلى فصل الجانب اللغوى على الجانب غير اللغوى ، ولكن مثل هذا الفصل يشكل مهمة زلقة صعبة . وربما كان أكثر مناهج البحث بعثا على التفاؤل ذلك المنهج التجريبى الذى يحاول التنسيق

= فى وجود ظواهر نحوية وصرفية وصوتية خاصة فى جزئى الجملة ، وتتحقق الظواهر فى الجمل الإسمية فيما يلى : (١) وجوب كون المبتدأ معرفة أو نكرة بشروط معينة ، مع عدم جواز كون الخبر معرفة أو نكرة مطلقا (٢) المطابقة بين طرفى الجملة من حيث الإفراد والتثنية والجمع ومن حيث التذكير والتأنيث . طبقا للعرف اللغوى العام عند العرب (٣) — وهذا مالا يدركه الكثيرون — إمكانية « الوقفه القصيرة » potential pause بين جزئى الجملة (٤) إمكانية الفصل بالضمير إذا كان طرفا الجملة معرفتين نحو : أخوك المعلم = أخوك هو المعلم . والتنغيم فى هذه الجملة الأخيرة يساعدنا كذلك فى الحكم بأن « المعلم » هنا خبر ، لا صفة . وبهذا ينتفى القول بخلو الجملة الإسمية من الرابطة فى اللغة العربية ، كما فهم البعض خطأ (المترجم) .

(١٧٤) داكوتيا Dakotan نسبة إلى « داكوتا » Dakota وهى قبيلة أو مجموعة من القبائل المتحدة التى تقطن السهول الشمالية فى الولايات المتحدة . والذى يقصده المؤلف هو أن أرسطو لو كان من هذه القبيلة لجاء منطقه مختلفا بسبب اختلاف اللغة ، إذ أن عناصر التفكير التى تقدمها لغة ما (وبخاصة تلك العناصر التى تستمد من النظام النحوى) تختلف فى عددها ومدلولاتها وقيمها عن العناصر التى تقدمها لغة أخرى (المترجم) .

بين الحقائق اللغوية والحقائق الفلسفية . فنى عام ١٩٤٧ قام كابان فى مجلة « الفلسفة » Philsophy بإجراء استفتاء عن بعض مشكلات النحو الأساسية ، ووزعاه على البريطانيين المتخصصين فى غير اللغات الهندية الأوربية . وكانت نتائج الاستفتاء مثبلة إلى حد ما ، وأبدى أحد المشتركين فيه أسفة لأن مشكلات « المعنى » لم يرد لها ذكر فى هذا الاستفتاء . ومع ذلك ، فهذا المنهج — بالرغم من اصطدامه ببعض المشكلات الأولية — يعد خطوة فى الطريق الصحيح . وحتى يبلغ هـــذا المنهج مــــداه ، لابد أن نقرر أنه من المعروف أن اللغة فى حالات واضحة قد لا تؤثر على الأفــكار فحسب ، بل قد تسفهها وتشوهها ، ولم تبعث حركة « علم المعنى العام » general semantics إلا لتواجه هذا الخطر .

الفصل الثانى

قصور الكلمات

ترجع أصول علم المعنى العام general semantics إلى اشتغال الفلاسفة المعاصرة واهتمامها الفائق بالمشكلات اللغوية ، فهناك قدر كبير من التشابه بين هذه الدراسة وبين بحوث بعض المفكرين ، أمثال رسل Russel ووايتهيد Whitehead وما تتجه إليه التيارات المختلفة للمنطق الوضعى ، بما فى ذلك « علم المعنى الفلسفى » الذى عالجه الباحثان موريس Morris وكارناب Carnap داخل إطار النظرية العامة للرموز . وقد كان للاتجاه الأمريكى فى هذه الدراسات مبالغات مفرطة ، رفضتها الفلسفة الأكاديمية ، معلنة أنها « تناولية » أكثر مما ينبغى .

ولقد نشأت هذه الحركة العلمية عن مصدرين أساسيين ، أحدهما بريطانى ، والآخر أمريكى (معتمد على أصل بولندى) أما الحركة البريطانية ، التى لم تطلق على نفسها (علم المعنى) فقد ظهرت إلى الوجود مع كتاب (معنى المعنى) The Meaning of Meaning للأستاذين أوجدن وريتشاردز . ولكن هذين الباحثين نفسيهما قد استوحيا الحملة الحماسية — والوحيدة نسبياً آنذاك — التى قامت بها ليدى ويلبى Lady Wellby للعمل على تحسين الوسائل اللغوية فى التفاهم . هذه القصة — ماضيها ومستقبلها — يحكيها لنا هـ.ج . ولز H. G. Wells فى فقرة من كتابه The Shape of Things to Come .

« وهناك مجموعة مهمة وجليلة الشأن من الباحثين لاتزال تواصل عملها . الذى ظهرت بواكيره أول الأمر فى صورة بدائية خلال القرن التاسع عشر . وكان

رائد هذه المجموعة سيدة تدعى ليدى ويلبى (١٨٣٧ — ١٩١٢) التى نظر إليها الكثيرون من معاصريها على أنها — بصراحة — ملال غير مفهوم . فقد أفرطت فى مراسلة كل من كان من المحتمل أن يصغى إليها ، مرددة دائما فكرة أن اللغة يمكن أن تكون أكثر دقة فى التعبير ، وأنه ينبغى أن يكون هناك علم اسمه « علم المعنى » . وكان من بين القلائل الذين نظروا إليها نظرة جدية العالمان س . ك . أوجدن وزميله فى كلية « ماجدالين » Magdoalaene Gollege آى.أ. ريتشاردز (١٨٩٢ — ١٩٤٧) اللذان أصدرا سنة ١٩٢٣ كتابهما « معنى المعنى » الذى يعد محاولة من أولى المحاولات لتحسين ميكانيكية اللغة . وليست الإنجليزية الأساسية Baeic English (١٧٥) إلا ثمرة من ثمار هذه البحوث، ولم يكن هذا العلم الجديد مغرياً من الناحية العملية ، فلم يجذب إليه غير قلة من الباحثين ، ثم ما لبث أن أختفى عن الأنظار خلال تلك العقود المتتابعة من سنوات البلاء . وظلت الحال كذلك ، فلم يعد إلى الوجود مرة أخرى إلا فى السنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين (١٧٦) .

وقد انقضت سبع عشرة سنة منذ أن سمعنا هذه النبوءة ، وإنه لمن الواضح تمام الوضوح أنها كانت مبالغة فى التشاؤم إلى حد كبير . ففى نفس العام الذى ظهر فيه كتاب ويلز : أخرج الكونت كورزيبسكى فى أمريكا ، الطبعة الأولى من كتابه « العلم والصحة العقلية » Science & Sanity وقد نجح ستيوارت تشيش فى الجمع بين الاتجاهين فى كتابه السهل الممتع « استبداد الكلمات » The Tranuv of wonqs (١٩٣٨) الذى مكن الأذكياء من غير المتخصصين من تذوق ما يقوله أوجدن وريتشاردز وكورزيبسكى فى كتبهم التى كانت من قبل عصية المنال صعبة الإدراك . وهكذا نستطيع أن نعد كتاب ستيوارت تشيش أهم العوامل الفردية

---

(١٧٥) أنظر الملحوظة (٤) (المترجم) .

(١٧٦) لاحظ تحديد التاريخ بالقرن الحادى والعشرين ، فالكتاب هنا يرسم صورة مستقبل يتنبأ به . كما يفهم من كلام المؤلف فى الفقرة التالية (المترجم) .

أثراً فى شيوع هذه الدراسة على مستوى شعبى . ومنذ ذلك الحين ، يحاول كثير من الكتاب الأكفاء اكتشاف مدى ملاءمة هذه الدراسة لميادين بعيدة بعد العلوم المحضة والقانون والأدب . كما عقدت فى الولايات المتحدة عدة مؤتمرات ناجحة حافلة بالحاضرين . ثم ظهرت — فى النهاية — مجلة تحمل العنوان الغامض « ومعناه ، الخ » — فقد كان من بين المقترحات العملية التى قدمها كورزيبسكى الإسراع فى استعمال هذه الصيغة للإشارة إلى أن الكلام لم يتم عمداً . وما إن استقر علم المعنى العام وثبت أقدامه بوصفه خاصة من خواص النشاط الذهنى العام لعصرنا الحاضر ، حتى تعرض للمعارك الجدلية العنيفة ، فقد هوجم هذا العلم فى الاتحاد السوفيتى ، بل لقد بدأ كنيث بيرك Konneth Burke وآخرون فى أمريكا نفسها حملة سموها « الثورة على الثورة » (١٧٧) وقد عانى هذا العلم أيضاً من بعض الآثار غير المرغوب فيها ، التى جلبها شيوعه على مستوى شعبى ، كما تدل على ذلك قصة أ . و . ريد A. W. Read عن فتاة لم يرقها اسم مهنتها . فطلبته من أحـــد علماء المعنى asemanticist أن يمدها باسم أحسن سمعة ، فقدم لها مصطلحاً مشتقاً من أصل يونانى غامض ، ولكنه مع ذلك نجح نجاحاً باهراً فى مهمته .

لقد عرضنا فى هذا الكتاب من قبل لمعظم الموضوعات الأساسية فى علم المعنى العام ، ولكنه قد يكون من المفيد أن نشير هنا فى إيجاز إلى الطعون التى يوجهها هذا العلم ضد الاستعمال اللغوى ، وإلى وسائل العلاج التى يوصى بها فى هذا الشأن .

(١) التجريد

النقطة الأساسيه فى كل فروع هذا العلم الجديد هى مهاجمة « المجردات »

---

(١٧٧) الثورة الثانية تعنى « علم المعنى العام » إذ هو ثورة على بعض المفهومات اللغوية القديمة . والثورة الأولى هى حملة بيرك وزملائه على هذا العلم وعلى ما تضمنه من مفهومات جديدة (المترجم) .

abtreactions (١٧٨) التى ادعى لها كيانا ووجوداً حقيقيين . وقد ابتكرت بعض الحيل البارعه لإبراز الأخطار التى ينطوى عليها تقديس الكلمات ، من ذلك ما تشير إليه هذه القصة التى كتبها ستيورات تشيش عن رجلين أحدهما إنجليزى والآخر فرنسى عزلا عن العالم فى جزيرة صغيرة . فبالرغم من أن كلا منهما كان يجهل لغة الآخر فقد استطاعا أن يتفاهما بالإشارة طالما كان الكلام محصوراً فى الأشياء المادية المحضة . فإذا ما عن للفرنسى مثلا أن يتكلم عن « روحه » اختلت وسيلة التفاهم بينهما وأصبحت عاجزة عن أداء دورها . وهناك طريقة أخرى لإبراز المزالق التى قد تودى إليها « المجردات » تجريداً عالياً ، تلك الطريقة هى الدراسة التحليلية للنصوص اللغوية . وقد قام الأستاذ تشيش فى نهاية كتابه « استبداد الكلمات » بدراسة تحليلية دقيقة لاثنين وعشرين نصا ، من بينها نصوص للرئيس روزفلت President Roossvelt وكارل ماركس Karl Marx وآدم سميث Adam Smith ، ومجموعة مختلفة من الخطباء والكتاب فى مختلف أنواع الموضوعات وكان فى مقدمة هذه النصوص اقتباسات من كتابات المؤلف نفسه ويوصف هذا الاقتباس الآن بأنه « خليط مخيف » ، ففيه استبدل تشيس كلمة « بلاب » بكل لفظ ذى معنى مجرد ، متصف بالتميع وسوء التحديد . وبهذه الطريقة استحالت جملة من كتاباته هو إلى الصوره التالية :

' The system called capitalism .... is at beart irrelıgyous, without internal unity or public spirit often a mere congeries of possessors and purseers"(١٧٩) = The blab called capitalism..

---

(١٧٨) « المجردات » abstractions مصطلح استعمله المؤلف هنا وفى الصفحات التاليه فى معنيين اثنين (١) المعانى المجردة و (٢) الكلمات ذات المعانى المجردة . ونحن سنتبعه هنا فى إطلاق « المجردات » على الحالتين ، ومن السهل على القارىء أن يدرك المعنى المراد بمعونة السياق (المترجم) .

(١٧٩) يمكن ترجمة هذه الجملة هكذا : النظام المعروف بالرأسمالية ... نظام لا دينى فى لبه ، وإذا ما حرم التنسيق الداخلى أو الروح الجماعية استحال فى أغلب=

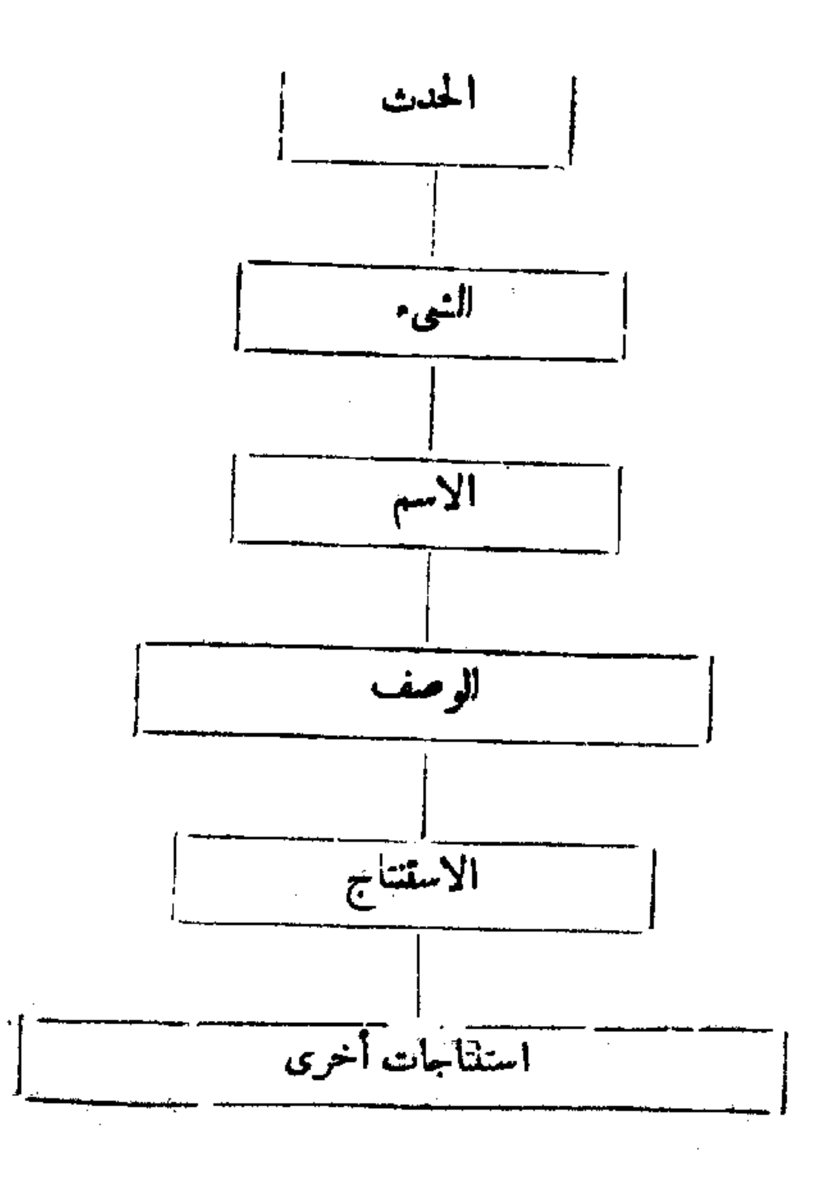
is bleb blab, without blab blab or blab blab often a mere congeoies of blabs and blabs.

إن أهداف علماء المعنى أهداف عملية ، فليس يعنيهم أن يقفوا موقف المعارضة أو التأييد للمشكلات الميتافيزيقية ، كما لا يعنيهم أن يؤيدوا أو أن يعارضوا فكرة وجود « الكليات » ، على أن بعضهم قد يفعل ذلك ولو بطريق غير مباشر على الأقل . إن همهم الأساسي ينحصر في بيان أن (المتحدث عنه) ـ الشيء أو العنصر من عناصر الحقيقة ـ الذي يكمن خلف الكلمات ذات المعاني المادية المحسة نحو : مائدة ، أحمر ، يجري — يختلف تمام الاختلاف عما يكمن وراء الكلمات ذات المعاني المجردة . فالنوع الأول — دون الثاني — يقع تحت الملاحظة والتجربة . (فالحياة) لا تحظى بذلك النمط من الوجود الذي تحظى به الكائنات الحية . ومع هذا كله ، لا يضيرنا بحال من الأحوال أن نستعمل (المجردات) — والحق أن علماء المعنى يستعملونها أكثر من غيرهم — مادمنا ندرك أننا نستعمل (مجردات) بالفعل . وحقيقة الأمر أن الشعار الأساسي لهذه الحركة الجديدة هو . (ابحث عن المتحدث عنه دائما) .

فإذا ما أقدمنا على النظر في المجردات وجب أن نكون على وعي تام — في كل مرحلة من المراحل — بالمستوى الحقيقي الذي وصلنا إليه ، فربما نكون بعيدين عن الحقيقة بمراحـــل عديدة . وقد ابتكرت كورزيبسكي شكلا بارعا لتوضيح مستويات التجريد ، عندما وضع ذلك النمـــوذج الذي أطلق عليه اسما متحذلقا إلى حد ما هو (المميز التركيبي) . ويتكون هذا النموذج من إطار وعدد من المستقيمات الخشبية أو المعدنية التي ترمز إلى مختلف مستويات

= الأحيان إلى مجرد عصابات من الاقطاعيين والانتهازيين . أما الجملة الثانية فهي الجملة الأولى نفسها مع فرق واحد ، هو وضع الكلمة (بلاب) blab مكان كل كلمـــة ذات معنى مجرد ، تخلصا — كما يعتقد تشيش — من الغموض الذي يكتنفها . أما هذه الكلمات فقد أشرنا إليها بوضع خط تحتها (المترجم) .

التجريد . فأقرب شيء إلى الحقيقة والواقع هو « الحدث » تحت الميكروسكوب ، وهو التركيب الأساسي للشيء المكون من حركة الإلكترونات وبعض الخواص الذرية الأخرى . وهناك قدر معين من التجريد يقع بالفعل بمجرد خروج « الأشياء » إلى حيز الوجود ، كالمنضدة مثلا التي يجلس إليها الإنسان للكتابة . والخطوات التالية لذلك هي إيجاد اسم للشيء ، ويعقب هذا وصف الشيء نفسه ، كأن نقول : هـــذه المنضدة المتينة ، ونعمد إلى التعميم ، كأن نقول مثلا : « المناضد المربعة أسهل في الكتابة من المناضد المستديرة » وبانتهاء هذه المرحلة ، يصبح الطريق أمامنا مفتوحا لكل أنواع الاستنتاج والتجريد ، آخذين في البعد بالتدريج عن نقطة البدء هكذا :



ويقدم لنا ستيورات تشيش — صاحب هذا الرسم البيانى الذى يوضح نموذج كورزيبسكى والذى عرضناه هنــا فى صورة مبسطة إلى حــد ما — مجموعة من الحقائق التى تتعلق بتطبيقه من الناحيتين الطبية والتربوية . ومنذ ذلك الحين والمعلومات تنكشف تباعا ، مؤكدة أن هذا المنهج — بالرغم من أنه يبدو صبيانيا — ذو إمكانيات علاجية معينة . ولقد جاء فى تعليق أحد الكتاب على قيمة منهج « المعنى والأعصاب » فى ذلك المجلد الذى ظهر سنة ١٩٤٥ من سلسلة مطبوعات الجمعية الأمريكية للغــات الحديثة
Pablicatious of the Modern Language Association of America
— جاء : أن الأســتاذ وندل جونسون Wendell Johnson بجامعة إيوا Iowa قد وصل إلى نتائج إيجابية فى علاج الطلاب من التهتهة والتقويم غير العلمى للأشياء بوساطة تدريبهم على المنهج الجديد . . . (١٩٤٤) فى النظرة إلى الحياة . وقد استعملت هذه الطريقة نفسها فى جامعة مينيسوتا Minnesota وأدت إلى نتائج متشابهة . ومما يزيد فى قيمة هذا المنهج العلاجى للتهتهة فى نظرنا هو أن تطبيقه لا يتوقف فى كثير من الأحيان على الحالات الفردية فقد أمكن الوصول إلى نتائج طيبة بالتدريب العام لمجموعات فى فصول دراسية . ويقال إن كورزيبسكى نفسه قد طبق طريقته هذه على أشخاص غير عاديين فى مستشفيات الأمراض العقلية ، كانوا يعانون من الأوهام وهوس الاضطهاد على أن الأمر كله مرجعه فى النهاية إلى أطباء الأمراض العقلية والنفسية ليقرروا إلى أى مدى يمكن أن يعزى الشفاء فى هذه الحالات إلى المنهج نفسه ، دون النظر إلى تأثير الإيحاءات التى أوحى بها الإخصائيون الذين قاموا بتطبيق هذا المنهج .

وقد استخرج تشيش عدداً من التوصيات ذات الطابع العملى من تلك المادة الضخمة التى يحتوى عليها كتاب « العلم والصحة العقلية » . من هذه التوصيات ضرورة استعمال الصيغة «etc» (الخ .) ، جنبا إلى جنب مع التوصيات الأخرى

التي تنادي بالإكثار من استعمال علامة الوصل (—)، نحو « Psycho-olgist »[180] (عالم نفسي) ، وبالتوســـع في استعمال علامات التنصيص — « » — بصفة خاصة مثل « الحياة » و « الجمال » و « المعنى » ، وذلك لتنبيه القارىء أنه بصدد ألفاظ ذات معان مجردة . ويؤكد كورزيبسكي — بوصفه متخصصاً أساساً في العلوم الرياضية — الأهمية التربوية للتمرينات الرياضية في وسائل الاتصال اللغوى ، فهو يرى مثلا وجوب ذكر التواريخ بجانب الحقائق العلمية التي يحتمل أن يبطلها تقدم البحث في المستقبل ويمكن أن يؤخذ تعريف الذرة بأنها « الجسم الأولى الذى لا يقبل الانقسام » مثالا عـــلى ذلك ، فتعريفها الحالى (أقرأ من اليسار) a — "not" — tomos "cut" — = لا ينقسم[181] .

أما أبرز ما أسهم به الباحثان أوجدن وريتشاردز في الحملة التي قامت ضد التجريد فهو فكرتهما الممثلة في المثلث الأساسي (انظر ص ٦٢) . فهذه الفكرة — الواضحة الباعثة على الفهم ، والسهلة التناول والتطبيق — قد وجدت طريقها إلى معظم البحوث التي ظهرت في هذا الموضوع . بالرغم من أن المصطلحات التي استعملاها لم تكن موفقة بحال من الأحوال .

---

(١٨٠) Paycho-logist هى الكلمة Psychologist نفسها ،فوضع الواصلة (—) بين جزأيها قد يشير إلى أصلها الاشتقاقى . logist معناها . « نفسى » و logist معناها العالم بالشيء أو المتخصص فيه . ولعل فى هذا التحليل ما يعين القارىء على فهم معنى هذا المصطلح فهما دقيقاً ، وربما يكون ذلك هو السبب فى التوصية بوضع هذه الواصلة فى مثل هذه الكلمات ذات المعنى المجـــرد (المترجم) .

(١٨١) الكلام فيه تركيز شديد . والمقصود هنا أن الحقائق العلمية قابلة للتغيير أو التعديل فتعرف الذرة بأنها « الجسم الأولى الذى لا يقبل الانقسام » — وهو التعريف الذى يطابق الأصل الاشتقاقى للكلمة — هذا التعريف قد تغير وأصبح تعريفها الحالى (على الأقل ١٩٥٠) شيئاً آخر لا يتفق معه ولا مع هذا الأصل الاشتقاقى (المترجم)

٢ - خرافة المعنى الأصلى

عندما قاوم الباحثان أوجدن وريتشاردز الفكرة القائلة . إن الكلمات لها معنى واحد أساسى محدد ، حقيقى ، — كانا فى الواقع قد قاما بثورة فى المعنى ، وفتحا آفاقا واسعة فى اتجاهات مختلفة ، ولو أنهما — من وجوه أخرى — قد أسرفا فى الانطلاق حتى جاوزا الحد المعقول . فكما هى الحال دائما عندما يحدث رد فعل ذهنى قوى لما كان متبعاً من قبل ، كان هذان العالمان يميلان إلى المبالغة فى الاهتمام بما أهملة الباحثون دون مسوغ . وقد وجدا لهما فى ذلك حليفا مهما هـــو الباحث الأنثرولوجى مالينوفسكى Malinowski الذى دبج تذييلا تمما لكتابهما (معنى المعنى) ضمنه ملاحظاته عن العادات اللغوية عند القبائل البدائية فى جزائر (تروبريانـد) Trobriand Island . وقد أدت عناية هؤلاء الباحثين بتأكيد الأهمية البالغه للسياق إلى إهمال الفرق بين الكلام واللغه ، أى بين الموجود بالفعل والموجود بالقوة (١٨٢) . ومع ذلك ، فإن التحذير الذى

---

(١٨٢) يعد المؤلف من أنصار التفريق بين اللغة والكلام ، أوما أشار إليه بالموجود بالقوة والموجود بالفعل . وقد لزم من هذا التفريق الاعتراف بأشياء كثيرة لا تقبلها المدارس الأخرى . من ذلك الاعتراف بأن للكلمة معنى أساسياً أو مركزياً ومعانى أخرى فرعية أو هامشية . فالمعنى المركزى أو الأساسى هـــو ذلك القدر الثابت من المعنى الذى يعرفه كل أفراد البيئة اللغوية الذين يملكون اللغة المعينة . أما المعانى الهامشية والفرعية فتظهر فى الكلام الفعلى بوساطة السياق والحق أن هذه مسألة خطيرة تحتاج إلى بحث مفصل دقيق نأمل أن نخرجه إلى الناس فى المستقبل القريب باذن الله . انظر أيضاً ص ٢٨ — ٣٣ لمعرفة الفرق بين الكلام واللغة (المترجم) .

أعلنوه ضد كل أنواع الخرافات اللغوية كان له — دون شك — أثر طيب على الفلاسفه وعلماء اللغة على السواء .

٣ — التعريف

تشغل مشكلة التعريف حيزاً ضخماً فى ذهن علماء المعنى . فالمصطلح نفسه غامض ، ويعنى على الأقل عمليتين متميزتين ، إذ فى استطاعتنا أن نعرف الكلمات أو الأشياء . والطريقة الثانية — وهى التى حاولنا تطبيقها على (المعنى) — أكثر جذرية من صاحبتها ، ولكن الطريقة الأولى غالبا ما تكون الطريقة العملية الوحيدة . أما غموض الكلمات — وبخاصة ماكان منها على مستوى عال من التجريد — فمن الممكن ضبطه والتحكم فيـــه باتباع منهج (التعريف المتعدد) techuique of multiple definition . ويتلخص هذا المنهج فى تجميع السياقات الرئيسية التى يمكن أن تقع فيها الكلمات الغامضة . مع استخلاص معانيها من كل سياق منها . وقد أدى تحليل الباحثين أوجـــدن وريتشاردز للفظى (جمال) و (معنى) على هذا النمط إلى اكتشاف ألوان مزعجة من التناقض والتداخل فى استعمالها اليومى ، بل وفى استعمالها على مستوى علمى . وقد بلغ التداخل والتناقض فى استعمال هاتين الكلمتين الأساسيتين حدا من شأنه أن يجعلهما عاجزتين عن أداء وظائفهما ، اللهم إلا إذا راقبنا استعمالاتهما مراقبة دقيقة ، وأعدنا النظر فى تعريفهما من جديد .

ولقد أصبحت مهمة صياغة التعريف نفسه سهلة نسبياً بفضل نظرية هذين المؤلفين المسماة (طرق التعريف) befinitiou routes إن كل تعريف من التعريفات إنما يعنى محاولة ربط معنى غير معروف بمعنى مألوف ، وهو بهذه الصفة ليس إلا صورة من صور استبدال الكلمات word — substitution . ومثل هذا الاستبدال يمكن أن يتم بسهولة ونجاح ، إذا كانت أنواع العلاقات التى تربط الجهتين بعضهما محددة تحديداً واضحاً .

والحق أن هذه العملية يمكن السيطرة عليها دون عناء كبير ، حيث إن عدد هذه العلاقات أو طرق الربط محدود للغاية ، ولا يختلف الأمر هنا عن عملية إرشاد شخص ما إلى مكان غير معروف له بطريق اختيار مكان معروف معرفة جيدة ، وجعله نقطة البداية ، ثم وصف الطريق الذي يتلوه . فللإجابة على السؤال: «كيف أصل إلى ميدان كمبرج » (بلندن) ؟ يذكر لنا أوجدن وريتشاردز الرد قد يكون هكذا . « أنت تعرف المتحف البريطاني ، وتعرف الطريق إلى شارع شافتزبري أفينيو . إذا دخلت هذا الشارع وواصلت السير فيه فسوف يقابلك في الطريق ميدان كمبردج » .

وقد أمكن الوصول بوسائل مختلفة إلى تنظيم طرق التعريف المتعددة ووضعها في جداول . فكتاب «معنى المعنى» يميز بين عشرة أنواع مختلفة من هذه الطرق. أما الباحث هـ . ر . والبول H. R. Walpole فقد استطاع — بعد إدخال بعض التعديلات — أن يبلغ بهذا العدد إلى خمسة وعشرين ، وأبسط هذه الطرق جميعاً هي الدلالة المباشرة بطريق الإشارة إلى الشيء المعروف . وتعد الترجمة من لغة إلى أخرى أو من لهجة إلى أخرى حلا سهلا أيضاً . ويأتي بعد ذلك استغلال جميع أنواع العلاقات التي تربط الجهتين بعضهما ببعض ، كعلاقة المشابهة ، أو الجزئية والكلية (فالقدم مثلا جزء من الرجل) والضدية (الشمال ضد اليمين) والحالية والمحلية (الساكن هو المقيم في مكان معين) والزمنية والسببية والعلاقات الشرعية والعائلية الخ .

وكما هو الشأن في كثير من الحالات . يبدو أن علم المعنى العام قد شغل نفسه هنا بالبديهيات . ولعل هذا يبدو بصورة أوضح في تلك الحالة المعروفة (بقواعد اللغة الجيدة) the rules of good language . فهنا أيضاً نجد أن (القوانين الستة الرمزية) التي وضعها أوجدن وريتشاردز قد توسع فيها العلماء حتى أوصلها تشيش إلى خمسة عشر . ولكن ينبغي أن نعلم أنه من المحال ألا يشغل المرء نفسه

بالبديهيات عندما يحاول أن ينفذ إلى الأشياء الأساسية ، ولو سلمنا ألا نجدن كثيراً من النقاط التى أثيرت مشكوك فى جديتها أو فى أهميتها ، فإن آثارها العامة ذات قيمة لاتنازع فى التربية اللغوية ، وضبط النفس فى معالجة الأمور .

٤ ـ اللغه العاطفيه

ليست المعركة التى يخوضها علماء المعنى العام هنا بجديدة تمام الجدة ، فقد سبقهم اللغويون فى الاهتمام بجانبى استعمال الكلام الإنسانى[١٨٣] . وعلى أية حال، فهى حركة جاءت فى الوقت المناسب ، وأثبتت أهميتها بتأكيد هذا الازدواج للجماهير الغفيرة ، ولفت أنظارهم إلى نتائجه الخطيرة فى وسائل الاتصال الإنسانى.

فالتوسع الذى لم يسبق له مثيل فى وسائل الدعاية والإعلام ، والتأثير الساحر الخطير للكلمة المذاعة ثم — أخيراً وليس آخراً — ذلك الجو العام الذى خلقته الحروب العالمية والصراع الأيديولوجى المنيف فى وقتنا الحاضر — كل هذه العوامل وكثير غيرها قد زادت فى خطر احتمال الخلط وعدم التمييز بين ما هو موضوعى وما هو مثير للعواطف ، على أن الوقوع فى هذا الخلط كثيراً ما يسعى إليه الجانب الآخر جاهداً متعمداً ، وإذن فليس من المبالغة أو من غير المقبول بحال من الأحوال أن ينصحنا البعض بأنه من الخير لنا دائماً أن نبحث عن المعانى الموضوعية فى كل مايصدر عن هذه الأجهزة من وسائل(الاتصال)الإنسانى[١٨٤]

---

(١٨٣) الجانبان اللذان يشير إليهما المؤلف يتمثلان فى الوظيفتين الأساسيتين للغة . فقد تكون أداة للتعبير عن الحقائق والقضايا تعبيراً موضوعياً لاذاتية فيه ، وحينئذ تكون وظيفتها توصيل الأفكار ونقلها إلى الغير ، كما يقصد بها التعبير عن العواطف أو إثارتها . أنظر أيضاً ص ٩٢ وما بعدها (المترجم) .

(١٨٤) وضع المؤلف هنا علامات التنصيص للتحذير . فاللغة التى تستخدم فى الاتصال الإنسانى من شأنها أن تكون موضوعية ، أى وظيفتها مجرد نقل الأفكار=

بالرغم مما قد يبدوا فى هذه النصيحة من حذلقة . وفى كثير من الأحيان ، وقد يساعدنا إستخدام طريقة « بلاب بلاب » "blab-blab" method [١٨٥] فى التعرف على (المجردات) والإستعمالات المجازية ونواحى الغموض المختلفة . وغير ذلك من الحيل اللغوية التى قصد بها فى الواقع إلى إثارة العواطف والتأثير فى سلوك الإنسان ، وبالرغم من ظهورها فى أقنعة زائفة توهم أنها وسائل حقيقية لتوصيل الأفكار ونقلها .

ومن الميادين التى نجح الدكتور ريتشاردز وحواريوه فى تطبيق فكرة التمييز بين جوانب الكلام الإنسانى عليها [١٨٦] — ميدان النقد الادبى — فتحليله المعنى إلى جوانبه التى تتمثل فيما سماه (المدلول) و(الشعور) و(النغمة) و(القصد) [١٨٧] ليس فى حقيقته إلا صورة محكمة دقيقة للطريقة المذكورة . ومن البديهى أنه من الممكن تطبيق هذا المنهج أيضاً على الشعر الحديث فى أدركنا أن الجوانب التعبيرية والإيجابية المثيرة فى الكلام الإنسانى لاتقل أهمية فى نظر الشاعر عن الجوانب الموضوعية الصرفة ، فإن الحيرة التى يعانيها كثيرة من القراء أمام القصيدة الخفية المعنى سوف تئول إلى موقف أكثر إيجابية ، وإلى استعداد لقراءة هذه القصيدة على أنها تجربة جمالية . وهناك فى كتاب «جون اسباروه Johon Sparrow المسمى « المعنى فى الشعر » sense in poatry سوف يجد القارىء تطبيقاً حكيما

= وتوصيلها . أما اللغة التى تستخدم فى هذه الأجهزة — كالتى تستغل فى الدعاية ونحوها — فالأمر مشكوك فيها . كما رأيت ، إذ أنها تعمد فى كثير من الأحيان إلى إثارة العواطف (المترجم) .

(١٨٥) هذه الطريقة تتلخص فى وضع كلمة « بلاب » blab مكان كل لفظ ذى معنى مجرد غامض . انظر ص ٢١٠ — ٢١١ (المترجم) .

(١٨٦) انظر الملحوظة (١٨٣) ص ٢١٩ (المترجم) .

(١٨٧) انظر ص ٩٥ من هذا الكتاب (المترجم) .

لهـــذا المنهج نفسه على ت . س . إليوت T, S. Eliot وغيره من الشعراء المعاصرين .

٥ — الإنجليزية الأساسية

ليست الإنجليزية الأساسية جزءاً لايتجزأ من علم المعنى العام ، وإنما هى منبثقة عنه ، وترجع أصولها إلى نظرية التعريف التى فصلها أصحابها فى كتاب « معنى المعنى » لقد استطاع الأستاذ أوجدن بطريق استخدام الكلمات البسيطة فى تفسير الكلمات الأكثر تعقيدا أن يولد بالتدريج ما يمكن أن يسمى « لغة التعريف » وهى مكونة من أصغر قدر ممكن من الثروة اللفظية التى يمكن أن تترجم إليها كل الكلمات التى لاتقع فى نطاقها . ولقد بلور هذا العالم هـــذه الوسيلة الجديدة فى أواخر العقد الثالث وأوائل العقد الرابع من هذا القرن . ومنذ ذلك الحين ، والإنجليزية الأساسية آخذة فى الانتشار بفضل بعض المعاهد والهيئات التى تعنى بالبحوث المنطقية فى لندن والولايات المتحدة والهند والصين وفى بعض البلاد الأخرى .

ولقد طبقت فى تعليم اللغة الإنجليزية فى كثير من البلاد الأجنبية ، بما فى ذلك تعليم المهاجرين إلى أمريكا ، حيث تجرى التجارب العديدة لاستعمالها كوسيلة من وسائل التدريب اللغوى فى رياض الأطفال والمدارس والجامعات .

ويؤثر المستر تشرشل إيماناً قوياً بفائدة الإنجليزية الأساسية ، وقد اتخذت الحكومة البريطانية خطوة جريئة بتقديم المعونة المالية لها . ومن جهة أخرى ، نرى اتحاد الهيئات التربوية قد اتخذ ضدها قراراً فى عام سنة ١٩٤٤ . أما كفايتها كوسيلة من وسائل نقل الأفكار فقد قام الدليل عليها عندما ترجم إليها الكتاب المقدس وآثار أفلاطون Plato وستيفنسون Stevenson وج . ب . شو G. B. Shaw وقد كتب الاستاذ هـ . ر . والبول — الذى خصص فصلا قائماً

بناته للإنجليزية الأساسية بوصفها نوعا من «علم المعنى التطبيقى» — كتب بهذه اللغة كل تلخيصاته للفصول السابقة. وظل محتفظا بهذا السر حتى نهاية الكتاب. ومن المؤكد أن أى قارىء لم يكن ليستطيع بنفسه أن يلاحظ أية فروق على الإطلاق.

وقد وضعت الإنجليزية الأساسية لتخدم ثلاثة أغراض: (١) لتمدنا بلغة عالمية ثانوية تقف على قدم المساواة مع الاسبرانتو Esberanto (١٨٨) وما ماثلها من محاولات أخرى، (٢) ولتيسر على الأجانب تعلم اللغة الإنجليزية، (٣) ولتكون وسيلة من وسائل التدريب اللغوى. أما المبادىء الأساسية لهذه اللغة فهى جد بسيطة: إنها لا تمس أصوات اللغة الانجليزية ولا قواعد الإملاء والنحو فيها. ولا تعبيراتها الخاصة، بأدنى تغيير، ولكنها تنقص الثروة اللفظية وتنزيل بها إلى ٨٥٠ كلمة، وذلك قدر يمكن أن تتسع له نصف ورقة من أوراق المذكرات التى تستعمل فى الأعمال المصلحية. وتعد الصيغ المنصرفة كلمة واحدة فى هذه اللغة. وتصاغ الكلمات الجديدة من الكلمات الأساسية بوساطة عدد معين من اللواحق والسوابق مثل er — ing. — iy. — التى تضاف إلى الظروف و ed التى

---

(١٨٨) «الاسبرانتو» لغة عالمية ابتكرأسسها الدكتورو زامنهوف Zamehof «لتكون أساس التفاهم والاتصال اللغوى بين جميع الأمم. بقطع النظر عن لغاتهم القومية. ويدعى المروجون لهذه اللغة أنها تحتوى على عناصر الحسن التى ينبغى توفرها فى اللغة الإنسانية. فهى - فى نظرهم - منطقية، منظمة التراكيب، مرنة وواضحة، ومن السهل على الجميع فهمها. وقد اعترفت بهذه اللغة بعض الهيئات السياسية والعلمية، وكتبت بها بعض الآثار الأدبية وغيرها.

انظر دائرة المعارف البريطانية ج ٢٢ (طبعة سنة ١٩٥٣) مادة Unicersal Language (المترجم).

تضاف إلى الفعل المبنى للمجهول و un و er — و est — اللتين تلحقان بأسماء التفضيل [189] .

وتكون الثروة اللفظية للإنجليزيه الأساسية مما يلى :

(ا) « العوامل [190] وعددها مائة وتنحصر فى :

(١) أفعال بسيطة وعددها ثمانية عشر ، وهى (إقرأ من اليسار) :

come, go, get, give, put, keep, let, make. be Seem, have du, may, will, say, see. send.

(٢) الروابط ، وبخاصة حروف العطف وحروف الجر .

(٣) الضمائر .

---

(١٨٩) مثال الصيغ المتصرفة (إقرأ من اليسار) give,gives,gave,given,giving فهذه خمس صيغ ولكنها تعد كلمة واحدة فى الإنجليزية الأساسية . أما أمثلة إضافة السوابق واللواحق المذكـــورة إلى الكلمات فتتضح مما يلى (اقرأ من اليسار أيضاً) :

teach + er = teacher (معلم) teacher + ing = teaching (تعليم) : great + ly = greatly (بدرجة عظيمة) : from + ed = formed (كون) : un + pleasant = unpleasaut (غير سار) : great + er = greater (أعظم من) : great + lest = (the) greatest (الأعظم) :

وأنظر أيضاً الملحوظة (١) ص ١١ — ١٢ لمعرفة معنى السوابق واللواحق (المترجم)

(١٩٠) (العوامل) ترجمة للمصطلح الانجليزى ويطلق — كما سيتضح من الأمثلة التالية فى المتن — على مجموعة معينة من الكلمات التى تمتاز بكثرة ورودها وأهميتها الخاصة فى التراكيب الإنجليزية . كالأفعال المساعدة ونحوها . وعلى هذا « فالعوامل » هنا لا تعنى « العوامل » بالمعنى المعروف عند علماء العربية فقد تتفق معها فى شىء وتختلف فى أشياء (المترجم) .

(ب) الأسماء : وتتكون من :

(١) ستمائة اسم للأشياء وأوجه النشاط . وهذه تضم ٤٠٠ اسم «عام» (نحو adjustment, addition. act. account الخ و ٢٠٠ اسم (ممكن التصوير)[191] (نحو angle « زاوية » ant « نملة » apple « تفاحة » الخ) .

(٢) مائة وخمسين اسماً للصفات والكيفيات (نحو able « قادر » ، acid « حامض » ، angry « غضبان » automatic « أوتاماتيكى » الخ) .

ويمكن أن يضاف إلى هذه المجموعة الصغيرة من الكلمات بعض الألفاظ العالمية : نحو تليفون وبيانو . كما يمكن أن يضاف إليها مائة مصطلح علمى عام ، وخمسون مصطلحاً آخر لكل فرع خاص من فروع البحث . ومن المسموح به كذلك فى الانجليزية الأساسية الكلمات المركبة التى لا تخرج عناصرها عن الكلمات الأساسية لهذه اللغة .

ومن الأمثلة الرئيسية التى تدل على اتباع مبدأ التخلص من الكلمات قدر المستطاع اقتصار هذه اللغة على فعلين مساعدين فقط ، هما may و will [192].

---

(١٩١) المصطلحان « عام » و « ممكن التصوير » ترجمة لمصطلحى المؤلف وهما « general و picturahle » ، ويعنى الأول الكلمات ذات المعانى العامة المجردة ، ويقصد بالثانى الكلمات ذات المعانى الحسة . ومع ذلك فقد آثرنا الترجمة الحرفية هنا لاننا بصدد لغة خاصة ذات مصطلحات خاصة (المترجم) .

(١٩٢) اقتصار المؤلف على الفعلين المساعدين may و will يدل على أن بعض الأفعال الاخرى فى القائمة السابقة نحو do و have ، لم تعد أفعالا مساعدة وإنما أخذت على أنها أفعال رئيسية . والمعروف أن هذه الأفعال وغيرها لها قيمتان نحويتان فقد تكون أفعالا مساعدة كما فى نحو I have seen him =

أما بقية الأفعال المساعدة فإما أن يعبر عنها بطريق التحريم ، كما فى الفعل المساعد can الذى تستعمل بدلا منه العبارة to be abie to ، وإما أن نضحى بالفروق المعنوية الدقيقة التى تميزها من هذين الفعلين ، كما فى التضحية بالفروق بين ahall و will وبين might و (١٩٣ may). وكذلك تخلصت هذه اللغة من عدد آخر من العوامل المهمة نحو: too, many, each, alao, above الموصولة أيضاً .
على أن أبرز خصائص الإنجليزية الأساسية هو قلة الأفعال فيها ، أما تلك الأفعال التى استغنى عنها فاما أن تحل محلها تعبيرات مكونة من الأفعال الثمانية عشر المذكوره ومن الحروف ، وإما أن يستعاض عنها بهذه الأفعال نفسها مصحوبة بمفعولات مناسبة كما فى نحو (اقرأ من اليسار) :

know = "have konwledgeo fi', lose = "have loss" think = give thought"boose = " make a selection"

إن اختيار الكلمات التى قدر لها أن تمر من الاختبار الدقيق الذى قام به أوجدن وتصنيفها بهذه الطريقة ليدلان على تطبيق واع مطرد لبعض المبادىء الفلسفية . أما بنية الثروة اللفظية نفسها فتمشى مع مبادىء برتراند رسل وغيره من الفلاسفة إلى حد ملحوظ . والحق أن عملية التعبير عن أفكار لاحصر لها بمثل هذا القدر الضئيل من الكلمات عملية تدريب رائع مستمر للتفكير الواضح والتعبير الدقيق ، وهى فى ذلك لاتختلف كثيرا — فى الوقع وحقيقة الأمر — عن اللغة التى يضطر المرء إلى استعمالها للإجابة عن الأسئلة الصعبة التى يوجهها الأطفال

= لقد رأيته ، أو أفعالا رئيسية كما فى مثل i have one boy — عندى ولد واحد (المترجم) .

(١٩٣) shall و Will فعلان مساعدان يدلان على الاستقبال ، غير أن الثانى — بالإضافة إلى ذلك — يفيد العزم والتأكيد . أما may و might فيدلان على الإمكانية أو الاحتمال ، ولكن الفعل الاول أوقع وأكثر نصا فى ذلك من الثانى (هذا بالإضافة إلى الفرق الصرفى الخالص بينهما ، فالثانى هو صيغة المضى للاول) (المترجم)

الأذكياء . إنها حالة من حالات التدريب الذهنى على مستوى عال . فليس هناك أدنى شك إذن فى أن أحد الأغراض الثلاثة السابقة (ص ٢٢٢) وهو التدريب اللغوى — قد تحقق ، وليس بغريب أن يتم ذلك بفضل وسيلة التفكير (هى الإنجليزية الأساسية) ابتكرها وشكلها أو جدان ، ورعاها ودعا إليها زميله ريتشاردز .

أما صلاحية هذه اللغة لتكون مدخلا إلى تعلم اللغة الإنجليزية ، أو لتكون لغة عالمية ثانوية فقد تعرضت لجدل أكثر حدة وعنفا . وإنه لمن الضرورى لأولئك الذين تولوا مهمة تطوير هذه اللغة ونشرها بين الناس أن يفكروا جيداً فى بعض أوجه النقد التى وجهها البروفسور كوليفسون professor Collinson والأستاذ س . رندل S. Rundle وغيرهما ، فان هؤلاء يؤكدون أن الثروة اللفظية (التى عملت الإنجليزية الأساسية على تسيلها) ليست أصعب جوانب اللغة الإنجليزية بحال من الاحوال . فاصرار الإنجليزية الاساسية على عدم تخفيف صعوبات النطق الإنجليزى وقواعد الإملاء والنحو والاساليب التقليدية الخاصة — هذا الإصرار قد ترك العقبات الرئيسية فى اللغة الإنجليزية على حالها لم تمس ومما يؤخذ على هذه اللغة أيضاً لجوؤها الدائم إلى التكلف والحشو فى التعبير . إن التعبير بطريق التحريم ليس خاليا من الجمال فقط ، ولكنه كذلك يؤدى إلى الغموض واللغو كما يتضح فى نحو :

" have knowledge that you have love for me " بدلا من I know you love me (١٩٤) .

إن كل ما يفعله مثل هذا الأسلوب هو أنه يرفع العبء عن الذاكرة ويلقيه على عاتق العقل . أما أخطر هذه العيوب فهو ازدياد احتمال اللبس والغموض ازديادا مزعجا . وأخيرا ، تعانى الإنجليزية الأساسية نفس العقبات التى تعانيها

---

(١٩٤) يمكن أن نتبين الفرق بين العبارتين بالترجمة الحرفية التالية : (العبارة الاولى) : عندى علم بأنك تكن حباً . (العبارة الثانية) : أعلم أنك تحبنى (المترجم) .

المحاولات الأخرى لإيجاد لغة حية لتكون بمثابة لغة عالمية ثانوية . وبالرغم من أن مؤهلات اللغة الإنجليزية أكثر تأثيراً وإقناعاً من مؤهلات أى منافس آخر يمكن تصوره . فإنه من المشكوك فيه أن تسنح الفرصة لنجاح هذه المحاولة (وهى الانجليزية الأساسية) فى عصرنا الحاضر ، عصر بعث القوميات ونهضتها ، وعلى فرض نجاح هذه المحاولة ، فهناك عيب آخر ، وهو أن اللغة الانجليزية التى سوف ينقلها الناس حينئذ لن تكون فى صورتها الكاملة بما فيها من غنى وجمال وقيم ثقافية ، وإنما ستكون فى صورة مبتورة جدباء ، أو أنها — كما جاء فى عبارة رندل اللاذعة — ستكون أول محاولة ، يفرض فيها المرء لغته فى صورة مبتورة للغة دارجة فاسدة » .

كل هذه المناقشات من حيث التأييد والمعارضة للانجليزية الأساسية ، ينبغى التأمل فيها بدقة وعناية قبل المضى بالموضوع إلى أبعد من هذا الحد . ومع ذلك يجب أن نؤكد أنه لامجال للنزاع فيما لهذه المغامرة التى قام بها الأستاذ أوجدن من مغزى وأهمية .

إنه لمن العسير علينا فى المرحلة الحاضرة أن نقوم ما لعلم المعنى العام من مزايا أو أن نتنبأ بما ينتظره فى المستقبل ، فالبحوث التى أجريت فيه شديدة التباين والاختلاف إلى درجة تجعل من الصعب العثور على خواص مشتركة بينها . فهو فى كتابات أوجدن وريتشاردز يرقى إلى مستوى علمى ، ولا ينفك عن الاتصال الدائم بعلم المعنى الفلسفى الذى يصله بالنظرية العامة للرموز . أما فى البحوث الأخرى ، فهذا العلم يعانى من الحماس المفرط بين مروجيه حتى اتخذ لنفسه نغمة من المستحيل أن تؤخذ مأخذ الجد . إننا لانشك فى أن هذا العلم يلبى بعض حاجات الإنسان الحقيقية وأنه يستطيع أن يقدم له خدمات جوهرية . ولكن كل حركة علمية من هذا النوع تلازمها دائما مخاطرات ضخمة إحداها المغالاة وتجاوز الحدود المقبولة . فإذا كان من الخطر الشديد أن ننظر إلى المشكلات اللغوية على أنها مشكلات حقيقية فإن الخطر يكون أشد ضرراً إذا جارينا

المغالطة العكسية . فنظرنا إلى المشكلات الحقيقية على أنها مشكلات لغوية فالنظرة الأولى قد تنتهى بنا إلى وهم خادع عار من الواقعية . ولكن النظرة الثانية قد تنتهى بنا إلى تكوين عادة النظر إلى الصعوبات الجوهرية كما لو كانت راجعة إلى سوء فهم سطحى للألفاظ . وهناك مثالا أو مثالين مما يقع فى حياتنا اليومية : ربما يسمع أحد علماء المعنى المتحمسين شخصين يتناقشان فى قاعة الموسيقى فيما إذا كانت القطعة التى انتهى عزفها جميلة أولا . أو ربما يسمع عاملا وصاحب عمل يتنازعان حول العدالة التى يعامل بها الأول ، أو — وهذا مثال آخر — ربما يسمع هذا العالم عاشقين منهمكين فى تحليل نفسيهما وغير قادرين على الحكم فيما إذا كان كل واحد منهما يحب الآخر حقيقة أولا . إن هذا العالم — مدفوعا بالنزعة إلى الحذلقة — قد يتدخل فى الأمر ليبين أن القضية فى كل حالة لاتعدو أن تكون قضية لفظية خالصة . فالمتناقشان فى الحالة الأولى قد اختلفا حول المعنى الدقيق لكلمة جمال ، ولكل من العامل وصاحب العمل وجهة نظر خاصة فى معنى العدالة ، أما العاشقان ، فلكل منهما فكرة عن الحب تختلف عن فكرة الآخر . أو بعبارة أدق ، لم يكن بين هؤلاء المشتركين فى هذه المناقشات كلها شخص واحد لديه أية فكرة واضحة عما يتحدث عنه ، هذا القول صحيح ولاشك . ولكن المهم أن نعلم أنه يوجد خلاف جوهرى حقيقى فى كل حالة ، فهناك خلاف حول المزايا الفنية للقطعة الموسيقية ، وخلاف حول المستوى الخلقى للعلاقات العمالية ، وخلاف حول حقيقة العواطف الإنسانية ودرجة الإخلاص فيها . ولا حاجة بنا إلى القول بأنه لايوجد بين دارسى علم المعنى من يدعى أن منهجه ينبغى أن يطبق على مثل هذه الحالات أو أنه زودنا بعلاج ناجح لكل ما فى عصرنا الحاضر من شرور ومساويء ضخمة غير أن هذا المنهج — من الناحية السلبية — قد يؤدى إلى تكوين عادات أسوأ من تلك التى يحاول جاهداً أن يتخلص منها .

وقد نعمل على تخفيف هذه المبالغات بتكوين منهج موحد يجمع بين المبادىء السليمة فى علم المعنى العام وبين ما يمكن أن تسهم به الدراسات اللغوية والفلسفية فى هذا الشأن . فهذه الميادين الثلاثة جميعاً معنية بالمشكلة الأساسية وهى مشكلة

المعنى . وليس هنالا سبب يحول دون العمل على إيجاد نوع من التوفيق بينها ، أو على الأقل - على الاحتفاظ بالاتصال الدائم بينها هـــذا الاتصال ليس موجوداً فى الوقت الحاضر ، ومن العجيب أن ماتم منه فى الماضى كان ضعيفاً ، وكان يجرى على فترات متقطعة ، وربما كان من الممكن ذات يوم أن يؤسس علم للمعنى ، يقوم فيه علم الفلسفة بتحديد الإطار العام للتحليل ، وبتقديم أفق واسع من آفاق العمليات الرمزية ، بينما تقوم الدرسات اللغوية بامداده بكميات ضخمة من المادة التجريبية ، ثم يقوم على المعنى العام باكمال هذه الماده وتفسيرها فى ضوء الخبرة اليومية . قد يكون هذا الموضوع عملا ضخماً لا يستطيع رجل واحد أن يقوم به ، ولكنه ممكن التنفيذ إذا تولته جهود مشتركة على نمط ماتم فى دائرة المعارف الأمريكية المسماة : American Encylopaedia of Unifizd Science وإلى أن يتم ذلك ، فمن الخير للباحثين فى هذا الموضوع أن يتعارفوا فيما بينهم ، وألا يتجاهل كل منهم ما يجرى فى الميادين الأخرى - ناهيك عما يحدث أحياناً من تغطية جهلهم بسخرية واضحة .

يقول الدكتور ريتشاردز فى تقويمه لكتاب والبول : « إن أحد الناشرين أخبره يوماً أن أى كتاب تظهر فيه كلمة (المعنى) ولو مرة واحدة فى عنوانه يلق رواجاً كبيراً » . ولكن دراسة الكلمات من كل زواياها دراسة شاملة دقيقة يقبل عليها جمهور أكثر وأوسع استقرارا فهناك مجموعات مهمة من الناس تعنى عناية كبرى بهذه المسائل ، بدافع الحاجة التى تمليها الحرفة أو المهنة . فهناك أولا أولئك الذين تلقى على عواتقهم مهمة تعليم اللغات - الإنجليزية وغـــيرها - فى المدارس وفى غير المدارس . أما الثمرات التى يمكن أن تجنيها مهمة التعليم من اتصال رجالها بعلم المعنى اتصالا من نوع ما ، فقد لخصها حديثاً السير فليب هارتوج Sir Philip Hartog فى كتابه Words in Action ، ذلك الكتاب الذى يعالج بصفة أساسية مشكلات « الإنشاء » فى اللغة الإنجليزية، وشبيه بمشكلات التعليم إلى حد ما تلك المشكلات التى يواجهها المترجمون وغيرهم من اللغويين الحاذقين . الذين إزداد عددهم وأهميتهم إلى درجة لم يسبق لها نظير ، بفضل الظروف والأوضاع

الحديثة . إن كل ما يجرى فى العالم من اتصالات لغوية باستثناء ما يقع فى نطاق المستعمرات والعلاقات الانجليزية الأمريكية - يعتمد على جهودهم وخدماتهم وهناك فى الأمم المتحدة وما شاكلها من المنظمات الدولية أعداد ضخمة متزايدة من هؤلاء الخبراء اللغويين . ولقد تولدت عن القوة التى تحظى بها الكلمة المذاعة مهنة جديدة تمام الجدة ، هى مهنة (الاستماع) إلى الاذاعات الأجنبية ، فأقسام الاستماع فى هيئة الاذاعة البريطانية وفى وكالات الأنباء ودور الصحف أصبحت مصدراً مهماً من مصادر الإعلام وتلقى الأنباء والدعاية المضادة ، تمكن الافادة منها حتى فى زمن الحرب ، عندما تكون المصادر الأخرى منعدمة تماماً . وإنه لعون كبير ولا شك أن تعقد دراسات تدريبية أولية فى فن الترجمة ومشكلات علم المعنى لاولئك اللغويين الذين قد ترتبت على أخطائهم الفردية نتائج خطيرة . وقد قدم لنا (س . رند) عدداً من الاسئلة التوضيحية فى بحثه :

'Langnage ae a Social and political Factor in Enrope

وهناك مجموعات أخرى يمكن أن تفيد من مثل هذا التدريب . وهذه تضم كل ذوى المهن التى تعنى بدقة المعنى إلى أقصى حد ويدخل فى ذلك كل الهيئات المتصلة بالاعمال القانونية . وكل مصالح الحكومة التى تقوم بتحرير مشروعات القوانين ، وأعضاء المجالس النيابية التى تناقش هذه المشروعات . والقضاة والمحامون الذين يفسرون القوانين إلخ . ويدخل هنا كذلك كل أولئك الذين يعهد إليهم بتحرير العقود على اختلاف أنواعها . وتحرير الاتفاقات الدولية بصفة خاصة ، وقد كان من الممكن تجنب كثير من المناقشات القانونية . وجعل كثير من المناقشات الأخرى أوضح فى الهدف وأدق فى التدرج من نقطة إلى أخرى . ولو كانت هناك خبرة ومعرفة من نوع ما بعلم المعنى . ما كان التأخير فى توقيع معاهدة السلام مع النمسا شهوراً عديدة إلا بسبب عدم إمكانية الوصول إلى اتفاق على ما ينبغى أن تعنيه العبارة (الممتلكات الألمانية السابقة) .

قد يقال إن هذا الخلاف لم يكن سببه سوء الفهم للألفاظ . وإنما هو مجرد

تصوير لغوى لعدم وجود اتفاق حقيق أو ربما هو تصوير لغوى لعدم وجود أية نية أو عزم على الوصول إلى اتفاق . ومع ذلك لنا أن نقول إن مصدراً واحداً — على الأقل — من مصادر الخلط والغموض كان من الممكن التخلص منه لو أن التحديد المبدئى للمعانى كان أكثر كفاية وسداداً .

ومن الميادين التى تحتم فيها الدقة فى تحديد المعانى ميدان العلوم . فالباحثون فى كل العلوم لغويون إلى حد معين ، فهم المسئولون عن ابتكار نظم مطردة من المصطلحات أى عن تكوين هيكل لغوى يمكنهم من التحدث عن قضاياهم ومشكلاتهم أما علماء اللغة وفلاسفة الكلام فلهم موقف غريب فى هذا الشأن ، فهم مضطرون إلى ابتكار لغة خاصة ليتحدثوا بها عن اللغة نفسها . وقد استطاع علم النبات أن يقدم لنا مثالا — ولعله أول مثال — لنظام وضع المصطلحات الغنية الواضحة التى مكنت البحث من السيطرة على الطبيعة ومشكلاتها المعقدة . ويعزى إلى واضع هذا النظام — وهو الأستاذ لينو Linnaeus — هذا القول المأثور : إذا لم تعرف الأسماء فسوف تفقد معرفتك بالأشياء ، وبالرغم من هذا ، فقد تركت المصطلحات فى كثير من الأحيان تنمو وتتكاثر دون رقابة أو ضبط ، وكان من نتيجة ذلك أن كل ضروب المعنى المتعدد قد ظهرت وانتشرت فى حرية تامة فى نطاق المصطلحات العلمية وقد رأينا فى فصول سابقة كيف يمكن أن يعنى المصطلح الواحد أشياء مختلفة ، وأن يدل على الشىء الواحد بمصطلحات مختلفة . وقد فشل علماء اللغة أنفسهم فى ضرب مثل يحتذى به فى وضع المصطلحات وتحديد معانيها ، مما دعا الأستاذ فيرث إلى أن يتحدث عن الحاجة إلى « علم معنى لعلم اللغة » . كل هذا يشير إلى أن وضع المصطلحات العلمية على مستوى واسع ينبغى أن يبنى فى المستقبل على أساس المبادىء التى وضعها علم المعنى .

إن التزود بالمعلومات الكافية عن الكلمات وعن نواحى قصورها من شأنه أن يفيد كل أنواع المهن التى تعتمد على الاستعمال المؤثر للغة . فالكتاب على اختلاف

ميادينهم ، والصحفيون والمذيعون والوعاظ والمحاضرون ، وكل القائمين على شئون الدعاية والإعلام . وكذلك جماهير هؤلاء جميعاً وقراؤهم — كل هؤلاء يمكن أن يجنوا كثيرا من الثمرات ، وأن يتجنبوا كثيرا من السقطات والزلات ، إذا وضحت فى أذهانهم قضايا الألفاظ ومشكلاتها . وإذا ماطبقت المناهج الواضحة الدقيقة للدراسات اللغوية بإحساس واع ، فربما استطاعت أيضاً أن تزود دارسى الأساليب بوجهات نظر ومقاييس للحكم أكثر واقعية مما كانوا يعرفون من قبل وقد تمت بداية طيبة فى هذا السبيل على يد ريتشاردز ومدرسته . كما تم ذلك أيضاً — فى نطاق الدراسات اللغوية — فى الكتاب الممتاز The Gift of Tongues لمؤلفه مارجريت شلاوس M. Shlouch.

هذه النواحى التطبيقية لعلم المعنى يمكن أن تتعدد وتتكاثر إلى غير نهاية فاللغة هى المادة الأساسية لوجودنا ولنظامنا الاجتماعى . فأى تقدم فى دراستها لابد أن يحدث صدى بالغ الأثر فى ميادين متعددة . وعلم النفس والمنطق وعلم الاجتماع والتاريخ — هذه العلوم بالذات تتأثر تأثراً مباشرا بهذا التقدم . على أن أهمية علم المعنى ليست مقصورة على الهيئات المهنية والأكاديمية . فكل مستعمل للغة . كل رجل . كل امرأة . كل طفل . أهل لأن يتلقى دروس علم المعنى . فالمعلومات الجديدة التى تتعلق بالكلمات التى يستعملونها سوف تؤدى إلى تحسين مناهج تفكيرهم وطرائق تعبيرهم عن أنفسهم ، وسوف تمكنهم كذلك من التجاوب مع المضمون الاجتماعى والسياسى للكلام . كما أنها لابد أن تنمى قدرتهم على القراءة والاستماع فى وعى وتركيز . وتجعلهم أكثر تسامحا فى مواقف النزاع الذى يدور حول الألفاظ فى أساسه .

وإذا استطاعت هذه المعلومات الجديدة أن تزيد فى قوة إحساسهم بالاستعمال الفنى للأسلوب وفى درجة تأثرهم بهذا الاستعمال . أصبحت حينئذ عاملا إنسانيا مهما . فى وقت تعانى فيه ، الإنسانية ، تأخراً عنيفاً . وأهم من هذا كله . سوف توسع هذه المعلومات فى أفق تفكيرهم ونظرتهم إلى الحياة . إنها تؤكد — بقطع

النظر عن اختلاف اللغات وتعددها ـ التراث المشترك للحضارة الإنسانية ، كما تؤكد التشابه الأساسي فى العقل الإنسانى ، أى التشابه فى خواصه الثابتة الدائمة ، وهذا قدر أساسى متين من الاتفاق العام الذى يمكن ـ بل يجب ـ أن نبنى من حوله وحدة أوسع وأشمل .

الفهرس

الموضوع — الصفحة

الباب الاول

الباب الثانى

الباب الثالث

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع





رقم الإيداع ١٩٧٥/٥٩٦٠



